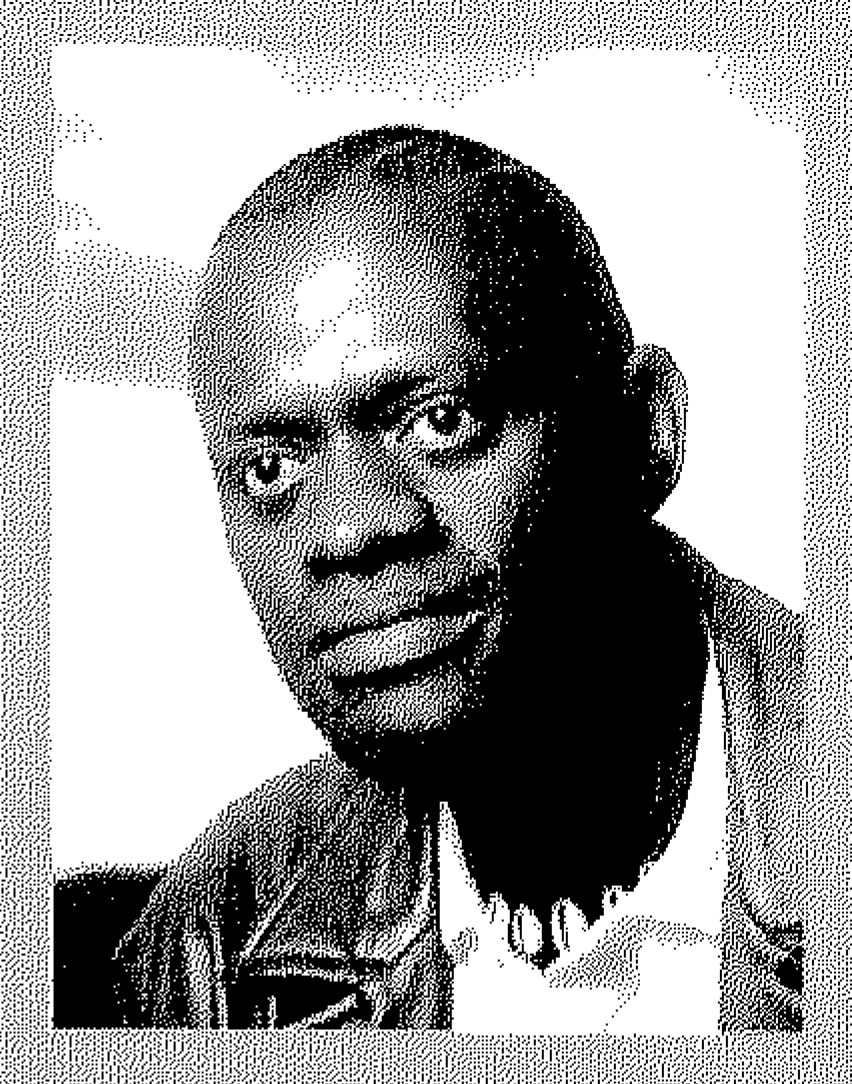

آلان مابانكو
القدح
المشعور
ترجمة
سهيل أبو فخر
دار علاء الدين



Alain Mabanckou

ولد آلان مابانكو في الكونغو عام 1966.
كانت بداية دراسته للأدب والفلسفة في ثانوية كارل ماركس.
أنهى دراسته الجامعية في جامعة Marien-Ngouabi في برازافيل.
سافر إلى فرنسا بعمر 22 عاماً، وحصل على شهادة الدبلوم في القانون من جامعة Paris-Dauphine. ثم عمل 10 سنوات مع فريق Suez-Lyonnaise des Eaux المشهور.
وحالياً هو بروفيسور في الأدب الفرنسي في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس.
من أعماله:

- Bleu-Blanc-Rouge
- L'enterrement de ma mère
- Et Dieu seul sait comment je dors
- Les Petits-fils nègres de Vercingétorix, Serpent à Plumes
- African Psycho, Le Serpent à Plumes
- Mémoires de porc-épic
- Propos coupés-décalés d'un Nègre presque ordinaire
- Black Bazar

القدح المشعور

Alain Mabanckou

Verre Casseé

آلان مابانكو

القدح المشعور

ترجمة

سهيل أبو فخر



منشورات دار علاء الدين

- القدح المشعور.
- تأليف: آلان مابانكو.
- ترجمة: سهيل أبو فخر.
- الطبعة الأولى 2010.
- أعدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-055-3

إلى

بولين كينجيه

أمي

الأوراق الأولى

لنقل إن مدير بار الدّين المسافر أعطاني دفتراً وطلب مني أن أملأه، فهو يعتقد جازماً أنني أنا، القدح المشعور، أستطيع أن أؤلف كتاباً لأنني رويت له مازحاً ذات يوم قصة كاتبٍ مشهورٍ كان يشرب كالإسفنجة، كاتبٍ كانوا يلتقطونه من الشارع عندما يكون ثملاً، ينبغي ألاّ يمزح المرء مع المدير إذن، لأنه يأخذ كل شيء على محمل الجد، وعندما أعطاني هذا الدفتر قال بالضبط إنه سيكون من أجله، من أجله تحديداً، وسوف لن يقرأه أي شخص آخر سواه، وحينئذ أردت أن أعرف سبب إصراره على كتابة هذا الدفتر فأجاب أنه لا يريد أن ينطفئ الدين المسافر ذات يوم هكذا، وأضاف أن الناس هنا لم يعودوا يرغبون في تخليد الأشياء وحفظها في الذاكرة، وأن زمن القصص التي كانت ترويها الجدات على الفراش قد ولّى إلى غير رجعة، ولذلك فقد أصبحت القيمة للتواريخ المكتوبة، أما التاريخ المنقول شفهياً فهو يذهب هباءً مثل الدخان الأسود أو بول القط البري،

كما أن مدير الدين المسافر لا يحب العبارات الجاهزة من قبيل "عندما يموت عجوز في أفريقيا فهذا يعني أن مكتبةً كاملةً قد احترقت"، فعندما كان يسمع هذا القول المأثور الدارج، كان ينتفض غاضباً ويقول في الحال "الأمر يختلف من عجوز لآخر، فلتوقفوا سخافاتكم إذن، إنني لا أثق سوى بالتاريخ المكتوب"، وهكذا رحت أخط بعض الخربشات من وقت لآخر كي أبعث السرور فيه دون أن أكون واثقاً تماماً مما أرويه، بيد أنني لا أخفي أن الأمر راح يروق لي منذ بعض الوقت، لكنني حرصت على ألاّ أعترف له بذلك كي لا يذهب خياله بعيداً ويحثني على متابعة الكتابة، ذاك أنني أريد أن أحتفظ لنفسي بحرية الكتابة متى شئت ومتى استطعت، فلا أسوأ من العمل الإجباري، وأنا لست عبداً له، وأنا أكتب لنفسي أيضاً، ولهذا السبب لا أود أن أكون مكانه حين يقرأ هذه الصفحات التي حرصت على ألا أجامل أحداً فيها، وسوف لن أكون زبوناً عنده حين يقرؤها، ذاك أنني سوف أنتقل بجسدي الهزيل إلى مكان آخر بعد أن أعطيه الدفتر وأقول له "المهمة انتهت".

يجب أن أذكر أولاً المشكلة التي تبعت إنشاء هذا البار، وأن أروي قليلاً المحنة التي عاشها مديرنا، إذ أريد له أن يكتب وصيته ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وقد بدأ ذلك مع رجال الكنيسة الذين لاحظوا أن عدد المصلين أيام الآحاد آخذ بالتناقص، مما جعلهم يعلنون حرباً مقدسةً حقيقيةً، فوضع كل منهم كتابه المقدس أمام بار الدين المسافر، وقال إنه إذا استمر الوضع على هذا النحو، فسوف لن يعود هنالك صلوات في هذه الحارة، ولن يعود هنالك من رهبة أثناء التراتيل، ولن ينزل الروح القدس على حارة "ترواسان"، ولن يعود هنالك من خبز مقدس أو نبيذ حلو على أنه دم المسيح، ولن يعود هنالك من صِبْيَةٍ للمذبح، ولا راهبات تقيات، ولا شموع، ولا صدقات، ولا تناول للقربان الأول أو الثاني، ولا تعاليم دينية، ولا معمودية، ولا أي شيء، وهكذا سيذهب الجميع إلى جهنم مباشرة، ثم جاءت حركة العنف التي قامت بها نقابة الأزواج المغبونين في نهاية الأسبوع وأيام الأعياد،

فقـد زعمـوا أنـه إن لم تعـد زوجـاتهم يحـضرن الطعـام، وإن لم تعـد زوجاتهم يحترمنهم مثل زوجات الزمن الماضي، فذلك بسبب بـار الـدين المسافر، وقالوا بأن الاحترام أمر هام، وإنه لا أفضل من احترام المـرأة لزوجها مثلما هو الأمر منذ آدم وحواء، وما كـان أرباب الأسـر هـؤلاء يرون أي ضـرورة لانقـلاب الأمـور، يجب علـى زوجـاتهم أن يـذعنَّ إذن، وأن يتبعن تعليمات الرجال، هذا مـا كـانوا يقولونـه، لكـن كـلَّ ذلـك راح سدىً، ثم كان هنالك تهديداتٌ من رابطة عريقة لقدامى المدمنين الذين اهتدوا من جديد وعادوا إلى رشـدهم فأصبحوا يشربون العصير والمشروبات الغازية المستوردة من نيجيريا ملفوفةً بأوراق القنب الهندي، وقد حاصر البارَ هؤلاء الأصوليون لأربعين ليلاً ونهـاراً، لكـن ذلك راح سدىً أيضاً، ثم كان هنالك تحركٌ صوفيٌّ لزعمـاء القبيلة والمحافظين على الأخـلاق التقليديـة عبر تمـائمهم الـتي كـانوا يرمونهـا علـى مـدخل البار ولعنتاهم التي كانوا يوجهونها لمدير الدين المسافر والأرواح الـتي يستحـضرونها ويجعلونهـا تـتكلم، وكـانوا يتنبـؤون أن صـاحب البـار سيموت مـن القلـق، وأنهـم سيدفعونه لأن يـصعد بنفسه إلى المقـصلة، لكـن ذلـك راح سـدىً أيـضاً، ثـم كـان هنالـك أخـيراً حركـةٌ مباشـرة لمجموعـة مـن الكسَّارة المستأجرين مـن قبـل بـضعة شـيوخ حمقـى مـن الحـارة ممـن كـانوا يحنّون للحقبـة الديغوليـة، ولبهجـة العـيش عيشةً ماجنة، أي عيشةً مـن زمـن الاسـتعمار وزمـن الراقـصة "جـوزفين بيكـر" التي كانت ترقص وهي تعلق مجموعة من المـوز علـى قامتهـا الرشيقة، وهكذا فقـد راح هـؤلاء النـاس ذوو الـسمعة الطيبـة ينـصبون الكمـائن للمـدير بـصورة مـستمرة عـبر كـسَّارتهم الإرهـابيين الـذين جـاؤوا في

الظلام الدامس منتصفَ الليل يحملون قضباناً من الحديد الزنجباري وهراوى مرصّعةً بالدبابيس من العصور الوسطى المسيحية، ورماحاً قصيرةً مسمومةً من عصر "شاكا زولو"، ومناجلَ ومطارقَ شيوعية، ومنجنيقاً من حرب المئة عام، وسواطيرَ وقزماتٍ وزجاجاتِ مولوتوف كالتي استخدمت في أحداث أيار/مايو ١٩٦٨، وفؤوساً رواندية، ومقاليعَ من معركة "داوود وجوليات"، نعم جاؤوا مع كل هذه الترسانة المهيبة، لكن كلٌّ ذلك راح سدىً أيضاً، ومع ذلك فقد هدموا قسماً من المبنى، وراحت المدينة كلها تتحدث عن ذلك، كما تحدثت عنه جميع الصحف مثل صحيفة "لارو مور"، و "لا سومان أفريكان"، و "موييندا"، و "موويوندزي تريبون"، حتى أن سياحاً جاؤوا من البلاد المجاورة ليروا هذا المكان عن كثب على غرار الحجاج الذين يزورون حائط المبكى، ولا أدري لأي سببٍ راح هؤلاء السياح يأخذون كمية كبيرة من الصور، ولكنهم كانوا يلتقطون الصور، حتى أنه جاء أناسٌ من بين سكان هذه المدينة لم يحصل لهم سابقاً أن وطئوا حارة "ترواسان" فراحوا يكتشفونها مذهولين، وراحوا يتساءلون حينذاك كيف يفعل الناس هنا ليتعايشوا بنجاحٍ مع القاذورات وسبخات المياه وجثث الحيوانات الأليفة والعربات المحروقة والوحل والزبل وحُفَرِ الشوارع المفتوحة والبيوت التي توشك أن تنهار، وراح صاحب البار يجري المقابلات يميناً ويساراً، وأصبح صاحب البار شهيداً فجأةً، وراح ينتقل من برنامج لآخر فيتحدث بلهجة سكان شمال البلاد ولهجة سكان غابة "مايومب"، ولهجة سكان جسر "موكوكولو" المهووسين بتسوية نزاعاتهم بالسكاكين، وأصبح

جميع الناس يعرفونه الآن، وأصبح مشهوراً ، وأصبح محلَّ تعاطف، فأراد البعض مساندته، حتى أنه تلقى رسائل تضامن، ونُظِّمت عرائضُ لمساندة هذا الرجل الشجاع الذي بدؤوا يطلقون عليه اسم *"الحلزون العنيد"* ، وهنا لا بد من ذكر تضامن السكارى بصورة خاصة، أولئك الذين يظلون متضامنين حتى آخر قطرة نبيذ، والذين انتقلوا إلى الفعل فشمَّروا عن سواعدهم وراحوا يصلحون الأضرار المادية التي تسبب بها أولئك الذين كانوا يحنّون للمعارض الاستعمارية والحقبة الديغولية ورقصات "جوزفين بيكر"، وأصبحت هذه القصة التافهة بالنسبة للبعض حدثاً قومياً، فراحوا يتحدثون عن "قضية الدين المسافر"، وناقشتها الحكومة في مجلس الوزراء، وطالب بعض المديرين بإغلاق البار فوراً دون أي قيد أو شرط، وعارض ذلك البعض الآخر محتجين بحجج تكاد لا تكون أكثر إقناعاً، وفجأة انقسم البلد قسمين نتيجة حرب الأرانب هذه، وحينذاك رفع الصوتَ "ألبيرزو لوكيا" وزير الزراعة والتجارة والشركات الصغيرة والمتوسطة بحكمته وهيبته المعهودتين، فقدَّم مداخلةً خالدةً، مداخلةً اعتبرت هنا كأحد أجمل الخطب السياسية في جميع العصور، فقال "زو لوكيا" مراراً وتكراراً عبارة "أتهم"، وهي عبارة أذهلت الناس جميعاً بحيث أصبح كل واحد منهم يقول "أتهم" لأتفه الأسباب ولدى حصول أدنى شجار في الشارع، حتى أن رئيس الحكومة قال للناطق باسمه إن وزير الزراعة هذا يتقن فن الكلام، وإن عبارة "أتهم" الشعبية ستبقى خالدة لدى الأجيال القادمة، ووعد رئيس الوزراء بأن يعهد لوزير الزراعة بحقيبة وزارة الثقافة في أول تعديل حكومي قادم، وأن الأمر لا يكلف أكثر من

استبدال كلمة الزراعة بكلمة الثقافة، وما زال الناس متفقين إلى الآن على أن وزير الزراعة قد ألقى خطاباً باهراً ينم عن ثقافة واسعة بحيث كان يستطيع أن يذكر عن ظهر قلب صفحات كاملة من كتب المفكرين الكبار، أما هو فكان فخوراً بأنه سحر المستمعين إليه بسعة إطّلاعه، وهكذا فقد أخذ على عاتقه الدفاع عن بار الدين المسافر، فأثنى بادئ ذي بدء على مبادرة *الحلزون العنيد* الذي يعرفه جيداً لأنه كان زميله في المدرسة الابتدائية، ثم استنتج قائلاً هذه العبارات التي أذكرها حرفياً: *"السيدات والسادة اعضاء المجلس، انا اتهم، لا اريد ان اكون متواطئاً مع محيط اجتماعي يحتضر مثل محيطنا، لا اريد ان اتكفل بمطاردة هذا الرجل بصفتي عضواً في الحكومة، انا أتهم البذاءات التي تنقض على رجلٍ لم يفعل سوى ان اختطّ لنفسه طريقاً للعيش، أتهم التصرفات الرجعية التافهة التي حصلت في الآونة الأخيرة، أتهم تخلف هذه الأفعال البربرية التي نظّمها اناس سيئو النية، اتهم التطرف والتحديات التي أصبحت عملةً دارجةً في بلدنا، اتهم التواطؤ الماكر لكل أولئك الذين يمنحون العصي للكسّارة ومثيري الشغب، أتهم احتقار الإنسان للإنسان، ونقص التسامح، ونسيان القيم، وتنامي الكراهية، وجمود الفكر، نعم سيداتي وسادتي أعضاء المجلس، انظروا كيف اصبحت حارة "ترواسان" منطقة اضطراب لا تهدأ، وفي هذه الحالة فإن الرجل الذي سندعوه من الآن فصاعداً "الحلزون العنيد"، فيما عدا انه كان من زملائي القدامى في المدرسة، إن هذا الرجل ذكي جداً، إن هذا الرجل الذي يتم اليوم الهجوم عليه هو ضحية*

عملية تآمرية، سيداتي وسادتي أعضاء المجلس، لنركز جهودنا لضرب الأوغاد الحقيقيين، اتهم إذن أولئك الذين يشلون آلية عمل مؤسساتنا ويفلتون من العقاب، أولئك الذين يقطعون صراحةً رابطة التكافل التي ورثناها عن أجدادنا من قبائل "البانتو"، اود ان اعترف لكم ان خطأ الحلزون العنيد يكمن في انه اظهر لسائر المواطنين ان كلّ واحدٍ منهم يستطيع على طريقته ان يسهم في تحويل الطبيعة البشرية مثلما علّمنا الكاتب الكبير "سانت اكزوبري" في كتابه "ارض الرجال"، ولذلك فانا اتهم، وسوف اتهم دوماً".

في اليوم التالي لمداخلة الوزير "زولوكيا"، سيطرت سورة من الغضب على رئيس الجمهورية ذاته "آدريان لوكوتا إيلكي مينجي"، فراح يهرس العنب الذي يحب أن يأكله بعد الطعام يومياً، وعلمنا عبر إذاعة "تروتوار FM" أن رئيس الجمهورية "آدريان لوكوتا إيلكي مينجي"، الذي كان قائداً عاماً للجيش أيضاً، قد أظهر غيرته من وزير الزراعة الذي ابتكر عبارة "أتهم"، وواقع الأمر أن القائد العام للجيش قد تمنى لو كان هو من نطق بهذه العبارة، ولم يفهم كيف لم يستطع مستشاروه أن يبتكروا مثل هذه العبارة القصيرة التي استطاعت أن تؤثر في البلاد بصورة فعالة في حين أنهم جعلوه يستخدم عباراتٍ متكلفةً طنانةً من قبيل *"تماماً مثلما تبزغ الشمس في الأفق وتغيب في المساء على نهر الكونغو العظيم"*، وبما أنه قد أصبح ساخطاً ذليلاً محتقراً خائباً فقد استدعى عبيد مكتبه الذين يكنون

حباً عظيماً له، وطلب منهم أن يجتهدوا أكثر مما اجتهدوا في السابق، فهو لم يعد يرغب في هذه العبارات الطنانة الشعرية الغنائية المزيَّفة، فوقف عبيد مكتبه باستعداد تنفيذاً للأمر، وقالوا جميعاً "حاضر سيدي"، في حين كان رئيسنا "آدريان لوكوتا إيلكي مينجي"، وهو القائد العام للجيش، يتلهَّف لقيام حرب أهلية بين الشماليين والجنوبيين كي يتمكّن من كتابة مذاكراته الحربية التي سيسميها بكل تواضع "*مذكرات آدريان*"، وقد أخطرهم القائد العام للجيش بأن يجدوا له عبارة يمكنها أن تخلد عبر الأجيال القادمة مثل عبارة "أتهم" التي قالها الوزير "زو لوكيا"، فاشتغل عبيد المكتب الرئاسي طوال الليل ضمن اجتماع مغلق، وفتحوا وتصفحوا للمرة الأولى الموسوعات التي كان الغبار عالقاً عليها في رفوف المكتبة الرئاسية، كما بحثوا في الكتب الكبيرة المطبوعة بالخط الدقيق منذ بداية الكون مروراً بعصر "جوتنبرغ" وعصر الكتابات الهيروغليفية المصرية وصولاً إلى كتابات رجلٍ صيني[1] كتب في فن الحرب على ما يبدو في عصر لم يكن الناس يعرفون فيه أن مسيحاً سيولد من الروح القدس ويضحي بنفسه من أجلنا نحن الخطاة، لكن عبيد "آدريان" لم يعثروا على عبارة قوية مثل عبارة "أتهم" التي قالها الوزير "زو لوكيا"، حينذاك هدد القائد العام للجيش بأن يقلب المكتب الرئاسي بالكامل إذا لم يجدوا له عبارة يقولها وتخلد على

---

١ ـ كتب الفيلسوف الصيني «سون تسي» كتابه "فن الحرب" في القرن الخامس قبل الميلاد، ويظهر هذا الكتاب أهمية الخدعة في كسب الحرب وفي استنزاف معنويات العدو (المترجم).

مَّر الزمن، فقال "لماذا أستمر في الدفع لمجموعة من البلهاء الذين يعجزون عن إيجاد عبارة مؤثرة خالدة دامغة، أحذركم إن لم تجدوا لي عبارةً قبل صياح الديك فجراً فسوف تتساقط رؤوسٌ كما تتساقط حبات المانجا المتعفنة من الشجرة، نعم، أنتم جميعاً بالنسبة لي مجرد حبات مانجا متعفنة، أقول لكم ذلك، ولتتفحصوا الخرائط بحثاً عن بلدٍ كاثوليكي يكون منفىً لكم، نعم المنفى أو القبر، آمركم بألا يخرج أحد من القصر ابتداء من هذه اللحظة، وألا أشم رائحة القهوة من المكتب، ولا سيجار "كوهيبا" أو "مونتي كريستو"، ولا مياه شرب، ولا سندويش، لا شيء ولا شيء ولا شيء، ستظلون صائمين طالما أنكم لم تعثروا لي على عبارتي، ثم قولوا لي كيف وجد هذا الوزير الصغير "زو لوكيا" عبارة "أتهم" التي يتحدث عنها الناس جميعاً في البلاد، هه؟ لقد قالت لي أجهزة الأمن الرئاسي أن الناس راحوا يطلقون اسم "أتهم" على المواليد الجدد لديهم، وماذا نقول عن كل تلك الفتيات الشبقات اللواتي رحن يكتبن على أردافهن عبارة "أتهم" وشماً، هه؟ ومن سخرية القدر من جهة أخرى أن زبائن دور الدعارة أصبحوا لا يمارسون إلا مع العاهرة التي تحمل هذا الوشم على مؤخرتها، أرأيتم الورطة القذرة التي رميتموني بها، هه؟ ومع ذلك فلستم بحاجة إلى السحر كي تجدوا مثل هذه العبارة، ثم قولوا لي هل عبيد وزير الزراعة أفضل منكم، هه؟ أتعرفون أن عبيده أولئك ليس لدى كل واحد منهم سيارة خدمة، بل هم جميعاً يستقلون الباص، ويتقاضون أجراً زهيداً في حين أنني أغدق عليكم الأموال هنا في القصر، أنتم تسبحون في مسبحي وتشربون من الشمبانيا التي

أشرب منها وتشاهدون بهدوء المحطات الفضائية الأجنبية التي تتفوه بالترهات عني، وتأكلون من حلواي، وتأكلون من سمكي وكافياري، وتفيدون من حديقتي والجليد الاصطناعي كي تتزلّجوا مع عشيقاتكم، هذا إن لم تكونوا تنامون مع نسائي العشرين، هه؟ وأخيراً قولوا لي بماذا تفيدونني في هذا المكتب، هل أدفع لكم كي تأتوا لتجلسوا كالتنابل ها هنا، هه؟ ليتني عيّنت كلبي الأحمق رئيساً لمكتبي، يا عصابة التافهين الذين لا يصلحون لأي شيء"، وطبق الرئيس "أدريان لوكوتا إيلكي مينجي" باب مكتبه صارخاً من جديد "يا عصابة العبيد، لن تبقى الأشياء كما هي في هذا القصر، فقد طفح بي الكيل من تسمين البزاقات مثلكم التي يسيل لعابها بالحماقات، سوف أحكم بناءً على النتيجة، حتى لو قيل لي أن من بينكم من تخرج من «البوليتكنيك»[1] أو المدرسة الوطنية للإدارة، أي نعم يا طي... ."

شرع عبيد المكتب الرئاسي في الأعمال الشاقة تحت رمح "شاكا زولو"[2] وسيف "داموكليس"[3] اللذين كانا يتدليان على

١- "البوليتكنيك" هي المدرسة التي تقوم بإعداد المهندسين للعمل في مرافق الدولة كما تقوم بإعداد الضباط المهندسين للعمل في الجيش والقوات المسلحة (المترجم).

٢- رمح قصير مسموم، كما سبق ذكره (المترجم).

٣- داموكليس هو أحد أشهر ندماء الطاغية "ديونيزوس" في القرن الرابع قبل الميلاد، وبينما كان يمدح مجده باستمرار دعاه الطاغية إلى مأدبة وعلّق فوق رأسه سيفاً كبيراً كي يوحي له بهشاشة المجد الذي تحيط به الأخطار من كل جانب، وظل هذا السيف رمزاً للخطر على مرّ العصور (المترجم).

رؤوسهم بينما كانت عبارات الرئيس الأخيرة لا تزال تطن في القصر، وفي منتصف الليل، ولأنهم كانوا يفتقرون للأفكار ذلك أن البترول هو الموجود بكثرة في بلدنا وليس الأفكار، فقد خطر لهم طبعاً أن يتصلوا برجلٍ نافذٍ في الأكاديمية الفرنسية يبدو أنه الزنجي الوحيد طوال تاريخ هذا المجمع المجيد، وابتهجوا جميعاً بهذه الفكرة التي خطرت في بالهم في اللحظة الأخيرة، وقالوا جميعاً إن هذا الأكاديمي سوف يشعر بالفخر من جراء ذلك، وكتبوا رسالة مطولة فصيحة، حتى أنهم كتبوا فيها مقاطع شعرية من البحر الطويل[1] مع الاعتناء الشديد بالقافية، ودققوا في علامات الترقيم، ذلك أنهم لا يريدون أن يسخر منهم الأكاديميون الذين يترصدون الأخطاء اللغوية كي يبرهنوا للعالم كله على أهمية وجودهم وعلى أن دورهم لا ينحصر في تحديد جوائز الرواية، ومن الجدير بالذكر أن عبيد الرئيس كادوا أن يتشابكوا بالأيدي ذلك أن قسماً منهم كان يؤيد وضع فاصلة منقوطة محل إحدى الفواصل في حين كان القسم الآخر مخالفاً لهذا الرأي فكان بالتالي مع الإبقاء على الفاصلة كي تصبح الجملة أكثر رشاقة، وظل هذا المعسكر الأخير محافظاً على موقفه على الرغم من الرأي المعاكس الذي وجدوه في *قاموس صعوبات اللغة الفرنسية* الذي ألّفه رجل يدعى "أدولف توماس"، وهو يقول أن المعسكر الأول على حق، وقد حافظ

١- إن البحر الفرنسي الوارد هنا هو Alexandrin وهو بحر مكون من اثني عشر مقطعاً صوتياً وقد ترجمته الى العربية تجاوزاً بالبحر الطويل كونه اطول البحور الفرنسية (المترجم).

المعسكر الثاني على موقفه أيضاً، كل ذلك من أجل أن يبعثوا السرور في الأكاديمي الأسود الذي - كما يقولون باحترام - كان أول دكتورٍ من القارة الأفريقية يحصل على شهادةٍ تؤهله لتدريس قواعد اللغة الفرنسية لطلبة الجامعات، لنقل إن كل شيء كان سيسير على ما يرام لو لم يقل عبيد الرئيس فيما بينهم إن ذلك الأكاديمي لن يجيب بالسرعة المطلوبة وإن رمح "شاكا زولو" وسيف "داموكليس" سوف يقطعان رؤوسهم قبل أن تأتيهم أدنى إشارة من "القبة" الأكاديمية حيث ينظر أولئك الحكماء الخالدون في تطورات اللغة ويقررون بمراسيمهم غير القابلة للنقض أن هذا النص أو ذاك يقع على درجة الصفر من الكتابة[1]، وهناك سبب آخر أكثر أهمية دفع العبيد لأن يتراجعوا القهقرى، ذلك أن أحد أعضاء المكتب، وكان الخريج الأول على دفعته في المدرسة الوطنية للإدارة، ويملك المؤلفات الكاملة لذلك الأكاديمي الزنجي، زعم أن الأكاديمي المذكور قد صاغ هو أيضاً عبارة خالدة تقول *"إن العاطفة زنجيةٌ مثلما العقل إغريقي"*، وشرح خريج المدرسة الوطنية للإدارة إلى زملائه أن الأكاديمي المذكور لن يجد عبارة خالدة أخرى لأن الأجيال القادمة ليست بلاط الملك "بيتو" كي يستطيع المرء أن يأخذ حريته أكثر من خمس مرات، فليس لديه الحق سوى بعبارة واحدة، وإلا لأصبح الأمر هذراً وضجةً مجانيةً كبيرة، ولهذا السبب فإن العبارات التي تدخل التاريخ هي عبارات قصيرة ومختصرة وقاطعة،

١- إشارة لكتاب "درجة الصفر من الكتابة" الذي كتبه الناقد الفرنسي الكبير "رولان بارت" ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب المؤسسة للنقد الحديث (المترجم).

وبما أن هذه العبارات تعبر الأساطير والقرون والعصور، فإن الناس ينسون بكل أسف أصحابها الحقيقيين فلا يعيدون لقيصر ما لقيصر.

وبعيداً عن اليأس وجد عبيد مكتب القائد العام للجيش حلاً آخر في اللحظة الأخيرة، فقرروا أن يضعوا أفكارهم ومكتشفاتهم في سلة، وقالوا إن هذه هي طريقة "العصف الذهني"[1] المطبقة في المدارس الكبرى التي كان البعض قد زارها في الولايات المتحدة الأمريكية، فكتب كل واحد منهم على ورقة عدة عبارات خلدت في هذا العالم الرديء، وبدؤوا بالفرز كما يتم الفرز في البلاد التي يتمتع مواطنوها بحق التصويت، وراحوا يقرؤون جميع الأوراق بصوت رتيب وبرعاية رئيس مكتب العبيد، وكانت البداية بعبارة لويس الرابع عشر *"الدولة هي أنا"*، فقال رئيس مكتب عبيد القائد العام للجيش "لا، هذه العبارة ليست جيدة ولن نحتفظ بها لأنها تنم عن أنانية مفرطة، وإذا اعتمدناها سيعتبرنا الناس دكتاتوريين، لنمضِ إلى العبارة التالية"، قال لينين *"الشيوعية هي سلطة السوفيات وكهربة البلاد"* فقال رئيس مكتب عبيد القائد العام "لا، ليست جيدة فهي تعني أننا نعتبر الشعب غبياً، وبصورة خاصة السكان الذين لا يستطيعون دفع فواتير الكهرباء، لنمضِ إلى العبارة التالية"، قال دانتون *"الجراة، والجراة أيضاً، والجراة*

١ـ طريقة Brainstorming المعروفة في التربية والتي تُرجمت إلى العربية بعدة عبارات: "العصف الذهني" أو "العصف الدماغي" أو "إمطار الدماغ" أو "توليد الأفكار" (المترجم).

دوماً" فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة فهي مكرورة وقد توحي بأننا نفتقر إلى الجرأة، لنمضِ إلى العبارة التالية"، قال جورج كليمانصو *"الحرب اخطر من ان يعهد بها الى العسكريين"* فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة فقد يغضب العسكريون منا وتعلمون أن الانقلابات العسكرية مستمرة ويجب ألا ننسى أن الرئيس نفسه هو قائد الجيش، فلنمضِ إلى العبارة التالية"، قال مكماهون *"انا موجود ها هنا إذن انا باقٍ ها هنا"*، فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة فكما لو أن المرء ليس واثقاً من كفاءته ويتمسك بالسلطة، لنمضِ إلى العبارة التالية"، قال بونابرت لدى حملته على مصر *"أيها الجنود فكروا في أن اربعين قرناً تتاملكم من اعلى هذه الأهرامات"* فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة، فهي توحي بأننا نعتبر الجنود جهلة وكأنهم لم يقرؤوا أبداً كتب المؤرخ الكبير "جان تولار" في حين أن مهمتنا أن نبيِّن للشعب أن العسكريين ليسوا أغبياء، لنمضِ إلى العبارة التالية"، قال توليراند *"هي ذي بداية النهاية"* فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة قد يعتقدون أنها بداية نهاية نظامنا نحن في حين أن من المفروض أن نبقى في السلطة مدى الحياة، إذن نمضي إلى العبارة التالية"، قال مارتن لوثر كنج *"لقد حلمت حلماً"* فاغتاظ رئيس مكتب العبيد ذاك أنه لا يحب أن يسمع بهذا الرجل لأنه يقف على النقيض من "مالكوم إكس" الذي يقدسه وقال "لا، ليست جيدة، لقد مللنا من الطوباويات فهذا يعني أننا سننتظر أن يتحقق حلمنا، وفي ذلك دعوة لأن ننتظر عدة قرون، هيا فلنمضِ إلى

العبـــارة التاليـــة"، قـــال شكـسبير *"أن نكـون أو لا نكـون، هـو ذا السؤال"* فقال رئيس مكتب العبيـد "لا، ليست جيدة فنحن لم نعد نتساءل عمـا إذا كنـا موجـودين أو غـير موجـودين، لقـد حللنـا هـذه المسألة فنحن في السلطة منذ ثلاثة وعشرين عاماً، هيـا فلنمضِ إلى العبارة التالية"، قال الرئيس الكاميروني "بول بيا" *"الكاميرون هـي الكاميرون"*، فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة، فجميـع الناس يعلمون أن الكـاميرون ستبقى الكـاميرون دومـاً، ولن يخطـر في بـال أي بلـد أنـه سـيتم حرمانـه مـن حقائقـه وآسـاده الـذين لا يروَّضون، هيا فلنمضِ إلى العبارة التالية"، قـال "يـومبي أوبـانجول" رئيس الكونغـو السابق *"لنعش اليوم عيشة تقشف كـي نعـيش عيشةً أفضلَ غداً"* فقـال رئيس مكيـت العبيـد "لا، ليست جيـدة، يجب ألا نعتبر سـكان هـذا البلـد سـاذجين، فلمـاذا لا نعـيش اليـوم عيشةً أفضلَ ولا نعبأ بالمستقبل، هـه؟ ومـن جهـة أخـرى فـإن الرجـل الذي قال هـذا القـول قـد عـاش أكـبر عيشة بـذخ عـبر تاريخنـا، هيـا فلنمضِ إلى العبـارة التاليـة"، قـال كـارل مـاركس *"الـدين افيـون الشعوب"*، فقـال رئـيس مكتـب العبيـد "لا، ليـست جيـدة، لقـد أمـضينا وقتنـا في إقنـاع الـشعب أن الله هـو الـذي أراد القائـد العـام للجـيش، ونـأتي لنتفـوه بالحماقـات عـن الـدين، أتجهلـون أن جميـع كنـائس هـذا البلـد تتلقـى المساعدات مـن الـرئيس نفسـه، هـه؟ هيـا فلنمضِ إلى العبارة التالية"، قـال الـرئيس فرانـسوا ميـتيران *"يجـب أن نتـرك أمـر الـزمن للـزمن"*، فاغتـاظ رئـيس مكتـب العبيـد لأنـه لا يحب أن يسمعهم يتحدثون عن هذا الرجل وقال "لا، ليست جيدة،

فقد أخذ هذا الرئيس الزمن لنفسه وسحق خصومه وأصدقاءه تقريباً قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ويذهب ليجلس على يمين ربه، هيا فلنمضِ إلى العبارة التالية"، قال "فريدريك دارد آليا سان أنطونيو" *"يجب أن تضرب الراهب إذا كان أصلع"*، فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة، فهناك الكثير من الصلعان في هذا البلد وخاصة في الحكومة ويجب ألا نهينهم، هيا فلنمضِ إلى العبارة التالية"، قال كاتون لانسيان *"ديليندا كارتاجو"* فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة، إذ سيعتقد سكان الجنوب بأنها عبارة من لغة سكان الشمال في حين يعتقد سكان الشمال أنها عبارة من لغة سكان الجنوب، يجب أن نتفادى مثل هذه الالتباسات، هيا فلنمضِ إلى العبارة التالية"، قال بونس بيلات *"إكسي هومو"*، فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة، الملاحظة نفسها التي قلتها عن تخريف "كاتون لانسيان"، لنمضِ إلى العبارة التالية"، قال يسوع وهو يموت على الصليب *"يا إلهي يا إلهي لماذا تخليت عني"*، فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة، إنها عبارة متشائمة ومتباكية بالنسبة لشاب مثل يسوع الذي كانت بين يديه جميع السلطات التي تؤهله أن يسحق رذائل العالم السفلي، لنمضِ إلى العبارة التالية، قال بليز باسكال *"لو كان أنف كليوباترا أقصر مما كان عليه لتغيّر وجه العالم"*، فقال رئيس مكتب العبيد "لا، ليست جيدة، فالأمر يتعلق اليوم بالسياسة وليس بالجراحة التجميلية، هيا فلنمضِ إلى العبارة التالية"، واستذكر عبيد الرئيس آلاف الشواهد والعبارات التاريخية دون أن

يعثروا على أي شيء للمواطن الأول في هذا البلد لأن رئيس مكتب العبيد كان يقول في كل مرة "ليست جيدة، هيّا لنمضِ إلى العبارة التالية"، ثم وفي الساعة الخامسة فجراً وقبل صياح الديك توصَّل أحد المستشارين الذي كان يراجع وثائقَ كتبت بالأبيض والأسود إلى أن يعثر على عبارة تاريخية.

في الساعة الثانية عشرة، وفي الوقت الذي يجلس السكان فيه على الطاولة ليتلذذوا بالفرُّوج المشوي على الفحم، شغل القائد العام للجيش محطات الإذاعة ومحطة التلفزيون الوحيدة في البلاد، كانت اللحظة عصيبة بحيث كان الرئيس مشدوداً مثل جلد الطبل، فليس من السهل اختيار اللحظة المناسبة لإلقاء عبارة تبقى للأجيال القادمة، وفي هذا اليوم الخالد، يوم الاثنين، كان الرئيس يرتدي ثياباً احتفالية ويتزين بميدالياته الذهبية الثقيلة فيبدو مثل بَطْرَكٍ في خريف عهده، وحيث أنه يرتدي ثياباً احتفالية في هذا الاثنين الخالد، فقد خُيِّلَ لنا أن هذا اليوم هو يوم عيد القربان الذي نحتفل فيه تخليداً لذكرى جدته، وحينذاك تنحنح كي يبعد الارتباك عنه وبدأ بنقد الدول الأوروبية التي خدعتنا بشمس الاستقلال في حين أننا لا نزال مرتبطين بها إذ لا تزال لدينا حتى الآن جادات باسم الجنرال ديغول والجنرال "لوكلير" والرئيس "كوتي"، والرئيس "بومبيدو"، في حين أنه لا وجود لجادات في أوروبا تحمل اسم "موبوتو سيزي سيكو" أو "عيدي أمين دادا" أو "جان بيدل بوكاسا"، ورجالٍ عظامٍ آخرين كان قد عرفهم وأُعجب باستقامتهم ونزعتهم الإنسانية واحترامهم لحقوق الإنسان، إذن نحن

لا نزال مرتبطين بهم لأنهم يستغلون بترولنا ويحجبون أفكارهم عنا، لأنهم يستغلون أخشابنا كي يمرَّ الشتاء على ما يرام لديهم، لأنهم يعدُّون كوادرنا في "البوليتكنيك" والمدرسة الوطنية للإدارة، فيحولونهم إلى عبيدٍ بيض، لقد عادت العبودية إذن بعد أن ظنناها قد غابت في الأدغال، لكنها ما زالت هنا مستعدة للقيام بكل شيء، هكذا تحدث الرئيس بأنفاس متهدِّجة وقبضة مشدودة، وفي هذا الخطاب عن الاستعمار حمل القائد العام للجيش على الرأسمالية بالشتائم والتحدي، فقال إن كل ذلك طوباوي، وحمل بصورة خاصة على خدم الاستعمار المحليين، هؤلاء الذين يسكنون في بلدنا، الذين يأكلون من طعامنا، الذين يرقصون معنا في البارات، الذين يستخدمون وسائط النقل العام معنا، الذين يعملون في الحقول والمكاتب والأسواق معنا، هؤلاء السكاكين ذات الحدَّين الذين يفعلون مع نسائنا أفعالاً تمنعني من وصفها في هذا الدفتر ذكرى أمي التي غرقت في مياه نهر "تشينوكا"، هؤلاء الأشخاص هم في الواقع جواسيس القوى الإمبريالية، وارتفع غضب القائد العام للجيش إلى الحد الأقصى لأنه كان يكره خدم الإمبريالية والاستعمار بقدر ما نكره البراغيثَ والبقَّ والقملَ والعثَّ، وقال القائد العام للجيش إن عليه أن يلاحق هؤلاء الخونة، هؤلاء الدمى، هؤلاء المنافقين، وقد نعتهم صراحةً بأنهم فلاحون حديثو النعمة وأنهم "منافقون" و "مرضى بالوهم" و "متوحشون"[1]، وقال بأن الثورة البروليتارية سوف تنتصر،

١- "المنافق" و "المتوحش" و "المريض بالوهم" عناوين مسرحيات كوميدية لموليير (المترجم).

وأن العدو سوف يُسْحَقُ ويعود من حيث أتى، قال بأن الله معنا وأن بلدنا خالد مثلما هو نفسه خالد، وأوصى بالوحدة الوطنية ونهاية الحروب القبلية، وعرض أخيراً "*لقضية بار الدين المسافر*" التي قسمت البلاد، فأثنى على مبادرة *الحلزون العنيد* ووعد بأن يقلّده وسام الشرف، وختم خطابه بالعبارة التي أراد أن يتركها للأجيال القادمة بأي ثمن، وقد عرفنا هذه العبارة لأنه كررها عدة مرات وهو مفتوح الذراعين كمن علق في شجيرة حراجية، لقد كرر قائلاً "أفهمُكم"، فأصبحت عبارته مشهورة في البلاد، ولذلك، ومن أجل المرح، رحنا نحن العامة نقول غالباً "إن الوزير يتهم والرئيس يفهم".

وكما روى *"الحلزون العنيد"* ، هو نفسه، لي منذ عدة سنوات، فقد جاءته فكرة إنشاء البار بعد أن أقام في "دوالا" ، في الحي الشعبي من مدينة "نيو بيل" حيث رأى باراً كاميرونياً لم يغلق منذ إنشائه ويدعى "الكاتدرائية" وكان *الحلزون العنيد* يجلس فيه كتمثال من الملح، وحين طلب كأساً من بيرة "فلاج" اقترب منه سيدٌ قدَّم نفسه على أنه المسؤول عن المكان منذ الأزل وقال إنهم يدعونه "ذئب البراري" ، وحسب رواية *الحلزون العنيد* فإن صاحب هذا البار يشبه مومياء مصرية أو حيواناً في طور الانقراض، لم يكن أي شيء يعنيه سوى تجارته لدرجة أنه كان يعتبر القيام بفرشاة أرومات أسنانه أو حلاقة أشواك الصبار المتناثرة على ذقنه مجرد مضيعة للوقت، كان يقضم من جوز "الكولا" ويدخن تبغاً عفناً ، وكأنه كان ينتقل على بساط الريح كما في الحكايات، وحينذاك طرح *الحلزون العنيد* عليه ألف سؤال وسؤال أجاب عليها دون أي تردد ، وهكذا أدرك

الحلزون العنيد أن هذا الكاميروني كان يعتمد، كي لا يغلق باره، على كادرٍ أمينٍ وإدارةٍ حازمةٍ ومثابرته هو نفسه، فقد كان يأتي كل صباح ومساء إلى "الكاتدرائية"، وعندما كان عمَّاله يرونه يظهر أمامهم فجأةً كانوا يستنتجون أن بار "الكاتدرائية" هذا مكان حقيقي للعبادة حيث تقام الصلاة في الصباح والمساء، ومثلما كنا نتوقع، كانت مغارة ذئب البراري مقابل البار تماماً بحيث يصح المثل الذي يقول "اذكر الذيب وهيئ القضيب"، كان يغمض عيناً واحدة حين ينام ويستطيع أن يعدَّ الزبائن الذين يشربون والذين لا يشربون، ويستطيع أن يذكر أسماء أولئك الذين يثرثرون عبثاً بدلاً من أن يشتروا شيئاً يشربونه، وبمجرد أن يمدَّ أذنيه من مرقده كان يحزر عدد الزجاجات المباعة، وكان يستيقظ منتصف الليل ويعبر شارع "كاكاس" كي يطرد زبوناً مشاغباً فيقول له إن البار ليس حلبةً زائيرية لأنصار محمد علي[1]، وكان يذكر الحقوق والواجبات الأساسية لزبون "الكاتدرائية"، وهي حقوق وواجبات نقشها على خشبة وردية ووضعها بحيث لا يستطيع القادم أن يدخل دون أن يقع نظره على لائحة القوانين هذه، وأذكر من بين الحقوق، حق اختيار الزجاجة دون أي احتجاجٍ من الخدم، وحق الاحتفاظ بنصف الزجاجة لليوم التالي، وحق الحصول على زجاجة مجانية بعد المثابرة على الحضور إلى البار طوال عشرة أيام متتالية، وهناك الواجبات أيضاً، ومن بينها واجب عدم الشجار، وعدم التقيؤ داخل البار بل في شارع "كاكاس"، وواجب الإقرار بأن "ذئب البراري" لا يحث الزبائن على

١- محمد علي كلاي بطل العالم في الملاكمة (المترجم).

المجيء إلى باره، وواجب عدم شتم الخدم، وواجب دفع القيمة عند تقديم الخدمة فوراً.

طوال إقامته في "نيوبيل"، كان مديرنا يجلس في هذا البار، يراقب تصرف الزبائن والخدم عن كثب، ويتحدث مع "ذئب البراري" الذي سرعان ما أصبح صديقه، وفي ذلك الوقت عاد *"الحلزون العنيد"* إلى بلده بسرعة ولم يكن يحلم سوى بنقل نموذج "نيوبيل"، بيد أنه كان يفتقر إلى المال إذ لا يستطيع المرء أن يحقق أحلامه بالكلام، كان *"الحلزون العنيد"* يمتاز بإرادة حازمة فقد كسر حصّالته وراح يستلف النقود من هنا وهناك، وسخر الناس من هذا المشروع وقالوا بأنه كمن يسافر حاملاً كميةً من سمك السلمون ويتوقع أنه لن يمر على مكتب المراقبة الصحية في الجمارك، ومع ذلك فقد بدأ مشروعه خطوةً فخطوة بأربع طاولاتٍ وبسطةٍ لا تزيد عن مترين، ثم ثماني طاولات لأن الناس كانوا يفدون إليه، ثم عشرين طاولةً لأنهم أصبحوا يفدون إليه أكثر فأكثر، ثم أربعين طاولةً و "تيرّاساً" لأن الزبائن أصبحوا يقفون على الدور بانتظار أن يتم تلبية طلباتهم، وراحت المدينة كلها تتحدث عن ذلك حيث كان الجميع يعلم أن *"الحلزون العنيد"* ملتزم بقواعد الحكومة فهو يدفع ضرائبه في الموعد المحدد دون أن يعترض على كميتها، كما يدفع رسوم المهنة، ويدفع رسم ترخيص هذه الخدمة أو تلك، وقد طلبوا منه جميع الأوراق اللازمة بما في ذلك شهادة ميلاده وبطاقة التلقيح ضد شلل الأطفال والحمى الصفراء والهزال الرزّي والسبات والتصلب اللويحي، كما طلبوا منه رخصة قيادة العربة ورخصة قيادة الدراجة وأخضعوه

لإجـراءات صـارمة لا تخـضع لهـا البـارات الـتي تقفـل منتـصف الليـل، وأخضعوه لإجراءات لا تخضع لها البارات التي تقفل أيام الآحاد وأيام العطل، ولا البارات التي تقفل في يوم دفن الأقرباء والتي تقفل لهذا السبب أو ذاك، وتوعَّدوه بـأنهم سـيغرقونه وأنهـم سـيطلقون علـى بـاره اسـم "التايتانك" وأنه سيصبح جوَّابَ آفاقٍ ومنبوذاً على الأرض، وأنه سينام في الأنفاق مثل فلاسفة الزمن الماضي، ومع ذلك فما زال *"الحلزون العنيد"* موجوداً، ما زال واقفاً على قدميه وصامداً مثل لاعب شطرنج، فقد رأى السنين تتحداه، ورأى الحسَّاد يتعبون من محاولات إزعاجه، واستطاع أن يقاوم مؤامرات الحمقى، ورأى التجار الآخرين يعاملونه على أنه ساحر مشعوذ، على أنه "أوديني" أو "آلكابون" أو "اللبناني المتربص في الزاوية" أو "أنجوليما" القاتل ذو الاثني عشر إصبعاً، أو اليهودي الضال، بل كانوا يعاملونه بصورة خاصة على أنه رأسمالي، وهي شتيمة كبيرة إذا علمنا أنه إذا قيل عنك ها هنا إنك رأسمالي فهذا أسوأ من شتم... أمك أو أختك أو عمتك أو خالتك، وإننا لنكره الرأسماليين بفضل القائد العام للجيش بحيث أننا نقبل أن نُنْعَتَ بأي نعتٍ في بلدنا ما عدا أن يقال عنا إننا رأسماليون، فهذا النعت يبرر اللجوء إلى العنف ويبرر الصراع بين الطبقات الاجتماعية ويبرر تصفية الحسابات بشكل درامي، ذلك أن الرأسمالي هو الشيطان ها هنا، فهو يتمتع بكرشٍ كبير ويدخن السيجار الكوبي ويركب سيارة "المرسيدس"، وهو أصلع وغني جداً وأناني، وهو محتال يعقد جميع الصفقات، وهو يقوم باستغلال الإنسان للإنسان والمرأة للمرأة والرجل للمرأة والمرأة للرجل، حتى أنه يقوم أحياناً باستغلال الحيوان للإنسان ذلك أن كثيراً من الناس ها هنا ممن يحصلون على رزقهم لقاء

قيامهم بالترويج عن حيوانات الرأسمالي والعناية بها، وهكذا إذن فقد نُعِتَ مديرنا بالرأسمالي، فلم يأبه لهذه الشتيمة الكبيرة، وصمد *"الحلزون العنيد"* واختبأ في قوقعته، ومرَّت الرياح والعواصف والأعاصير والزوابع، وانحنى *"الحلزون العنيد"* معها لكنه لم ينكسر، وكان ذلك بفضلنا نحن الآخرين أيضاً، فقد وثقنا به منذ البداية، ورأيناه كيف كان يغفو على بسطته في الأشهر الأولى التي أعقبت افتتاح البار، في وقتٍ لم يكن لديه كادرٌ كافٍ للعمل، فكان يعتمد على مساعدة عدد من أقربائه السيئين الذين كانوا يسرقون دخله القليل مع صياح الديك، حيث كان يستيقظ في الصباح على صندوقٍ شبهِ فارغٍ على الرغم من كومة الزجاجات الفارغة التي شربها الزبائن، مما جعله يدرك بسرعة أنه يجب ألا يخلط القرابة مع المهنة، وأن عليه أن يستخدم كادراً جدياً ومسؤولاً، فوقع لحسن الحظ على شخصين نظيفين طيبين، لنقل إن أحدهما يدعى "موميبرو" وهو حفارُ قبورٍ قديم لا يبتسم وجهه لرغيف الخبز، حتى أنه من العبث أن تروي له أي طرفة، فهو يعتبر أن الضحك ليس من سمات البشر، ولا تستطيع أن تطلب منه أي طلبٍ بالدَّين، إذ سرعان ما يقول "موميبرو" في الحال "إما أن تدفع ها هنا الآن أو تخرج بركلة من رجلي على مؤخرتك"، ولم أره يتحدث إلى أي رجل مطلقاً، وعندما أقول مطلقاً فأنا أعني ما أقول، ذلك أن له وجهاً من حجر وحاجبين مقوَّسين وشفتين ملتصقتين وعضلات مصارع، ويروى أنه حين سيطر الغضب عليه ذات يوم صفع شجرةً مثمرةً لم تفعل له أي شيء فسقطت جميع أوراق هذه الشجرة البريئة دفعةً واحدةً، ويروى أنه حين يغضب، حين يغضب حقاً، يشرب لترين من زيت النخيل ويلتهم وعاءً من

لحم الثعابين وكيلوغراماً من البصل المقلي، ويدرك الجميع أن من الحماقة الشجار معه لأن النتيجة ستكون وخيمة على من يجرؤ على ذلك، أما بالنسبة للشخص الثاني فهو يدعى "دنجاكي"، وكان سابقاً حارسَ مرمى فريق قبيلة "بمبي" ويعرف كيف يستخدم السكين أفضل من جزار ماهر، وهو قادر على التقاط الزجاجة قبل أن تقع على الأرض وتتكسر، وهو لطيف أحياناً لكننا يجب ألا نبالغ في ذلك لأن زميله "مومبيرو" يأتي إليه بين الفينة والأخرى ويعيده إلى مكانه قائلاً له إن عليه ألاّ يحتكَّ بالزبائن وألا يمزح معهم، وعندما تحصل مشكلة ما يأتي "بومبيرو" ليعرض عضلاته في حين يلعب "دنجاكي" دور الدبلوماسي المطلق الصلاحية قبل أن يهدد باستخراج سكينه التي يخفيها في جيب سرواله، إذن يعمل الرجلان ها هنا منذ افتتاح هذا البار ويحبان عملهما وليس هنالك ما يقال من هذه الناحية، وعندما يعمل أحدهما نهاراً يعمل الآخر ليلاً، وهكذا يتناوبان فيعمل "مومبيرو" أسبوعاً بكامله أحياناً في النهار ويعمل "دنجاكي" أسبوعاً بكامله في الليل، فلا يحصل أي عطل في هذا المحرك الذي تم تزييته منذ سنوات، وعليه فإن بار "الدين المسافر" مفتوحٌ ليلاً ونهاراً بصورة دائمة والزبائن مسرورون لأنهم ليس عليهم أن يترقبوا ساعة الافتتاح ولا يخشون إلحاحَ نادلٍ يريد أن يعود إلى بيته، نادلٍ يصرخ أن البار سيغلق خلال بضع دقائق فيقول لهم "أفرغوا أقداحكم وعودوا إلى بيوتكم أيها السكارى، هيا اذهبوا إلى نسائكم وأبنائكم وحاولوا أن تتناولوا حساء السمك البحري كي تتخلصوا من آثار الخمرة التي شربتموها".

كيف يمكنني أن أنسى رب الأسرة الذي طُرد من منزله مثل كلب مسعورٍ والذي حملني على الضحك منذ أكثر من شهرين، لنقل إنه رجل أصبح يلبس طبقات من حفاضات "بامبرز" مثل طفل رضيع، أنا لا أود أن أسخر من وضعه لكنَّ هذا هو واقعه المؤلم، لم أكن قد سألته أي سؤال، ولم أكن لأفعل أي شيء سوى أن أنظر في عينيه مباشرةً مما جعله يقول لي بلهجة من يعلن الحرب "لماذا تنظر إلي هكذا أيها "القدح المشعور" ؟ أتريد أن تلتقط صورة لي أم ماذا؟ اتركني بسلام وانظر لأولئك الذين يثرثرون هناك في تلك الزاوية"، حافظتُ على هدوئي ووقاري إذ يجب ألا يتسرع المرء في الجواب على مثل هؤلاء الناس المحبَطين، لكنني قلت له مع ذلك "أيها الرجل، إنني أنظر إليك كما أنظر إلى جميع الناس، هذا كل ما في الأمر"، "نعم، ولكنك تنظر إليَّ بطريقة غريبة، لا يُنظر للناس هكذا"، فأجبته دون أن أفقد هدوئي "كيف تعلم أنني أنظر إليك إن لم تكن أنت

تنظر إلي، هـه"؟ حينذاك بدا متسمراً فقد وقع في نفس الفخ الذي نصبه هو نفسه ذلك أنه همس بأشياء من قبيل "لن أتكلم، لن أبوح لك بأي شيء عن حياتي، ذلك أن حياتي ليست للبيع في المزاد العلني"، بدا تائهاً إذن، أتراني كنت أود أن أسمعه، ثمة أناس مثله، عندما يريدون أن يبصقوا شيئاً ما، يتوجب عليهم أن يزعجوك وأن يحرّضوك كي يوهموا أنفسهم بأنهم تكلموا قسراً في ظرفٍ غيرِ طبيعي، فأنا قد قمت بتحليلٍ نفسيٍ لزبائن "الدين المسافر" منذ سنوات وسنوات وأعرف مثل هذا السلوك، "أنا لا أطلب منك أن تتكلم يا رجل، بإمكانك أن تستفسر عني فأنت لا تعرفني، فهل طلبتُ أنا، القدح المشعور، من أي إنسانٍ كان أن يقدم لي طريقته في العيش، وأن يبيعني حياته في المزاد العلني، هـه"؟ انتهى بأن قال لي "أيها القدح المشعور، إن الحياة معقدة حقاً، لقد بدأ كل شيء في اليوم الذي عدت فيه إلى منزلي نحو الساعة الخامسة فجراً، أقسم لك على ذلك، وفي ذلك اليوم أدركت أن قفل الباب قد تم تغييره لأنني لم أستطع إدخال المفتاح فيه، وبالنتيجة لم أستطع دخول منزلي، ذلك المنزل الذي استأجرته، زد على ذلك أنني أنا الذي بحثت عنه ووجدته، وأنا من دفعت عربونه، وأقسم على ذلك بأبي وأمي وأبنائي الستة، وأنا الذي دفعت أجرة اثني عشر شهراً والشهر الجاري قبل أن أضع فيه أي قطعة من الأثاث، ومن جهة أخرى فلا أحد يعمل من العائلة سواي، هذا ما أقوله لك، أما بالنسبة إلى زوجتي، فيجب ألا نتكلم عنها، وإلا لَقُضِيَ عليَّ هنا وفي الحال، فهي ليست امرأة حقيقية، إنها أصيصٌ لورود ذابلة، إنها شجرةٌ غير مثمرة، أقول لك إنها ليست امرأة

بل رزمة من المشاكل، أقول لك إنها كانت هناك ساهيةً لاهيةً مثل امرأةٍ رأسماليةٍ، كانت تنتظر مني أن أعود إلى المنزل بالمال الحي، كانت تسير في حركة دائرية وتثرثر في الصباح والظهيرة والمساء مع النساء المطلّقات البدينات المضحكات ومع الأرامل في حارة "ترواسان"، تلك المشعوذات اللواتي تفوح من تنانيرهن رائحة كريهة، تلك السافلات اللواتي يبيِّضن بشراتهن، تلك المنحطات اللواتي يسبلن شعرهنَّ الأجعدَ كي يشبهن البيضاوات من الأوروبيات، في حين أن البيضاوات يجدلن شعرهنَّ الآن كي يشبهن الزنجيات، أتدرك ذلك أيها القدح المشعور، كانت زوجتي هناك إذن تتسكع مع الفتيات الخفيفات اللواتي يزعمن أنهن يذهبن إلى الكنيسة للصلاة في حين أنهن يذهبن للقاء عشاقهن السافلين، وأقسم لك على أن الزنى يتم على أبهى صوره في الكنائس، لم يعد هنالك من احترام لبيوت الله، وأنا لا أعلم أين هو الله من كل ذلك، لكنه ليس موجوداً في تلك الكنائس على أي حال، وواقع الأمر أن تلك النسوة السافلات والفاجرات يعتبرن أن الله يغفر كل شيء إذا كان موجوداً مهما تكن الخطيئة وكائناً من كان الشخص الذي يقترف هذه الحماقات التي حرَّمها العهد القديم، أقول لك بأن الزنى يتم على أشده في كنائس الحارة فليس هناك من مكان أفضل منها لمثل هذه العربدة والدعارة الجماعية، ليس هناك من مكان أفضل من هذه البيوت الملوَّثة التي يُزعَمُ أنها بيوت الله، وجميع الناس يعرفون ذلك، حتى الحكومة التي يموِّل بعض أعضائها بيوت الزنى المقدسة هذه، لكنها ليست كنائس حقيقية فهي تدار على أيدي متدينين حليقي الرؤوس، متدينين

يستخدمون ويحرِّفون ويراجعون وينجِّسون ويلطخون ويدنسون الكتاب المقدس، وينظِّمون سهرات دعارة حقيقية للمؤمنين من الرجال والنساء، نعم هناك في هذه الكنائس أيضاً لوطيون وسحاقياتٌ وشاذون ممن يمارسون الجنس مع الأطفال أو الحيوانات، ويتم الزنى ما بين صلاتين أو ترتيلتين، كما يتم ذلك أثناء الحج إلى أعالي جبال "لوانجو"و "نجيلي"و "ديوسو" زاعمين أنهم هناك يستطيعون أن يتأملوا بصفاء بعيداً عنا نحن الكفار، الجهلة، قليلي الإيمان، الخراف الضالة، المنافقين، أتفهم؟ إنهم يذهبون هناك من أجل الزنى الخالص، أما أنا فأصرخ بأعلى صوتي "فلتنزل يا موسى"، لقد أصبح هؤلاء الناس مجانين، فهم يفعلون ذلك أثناء حجهم إلى الجبال الثلاثة، وقد دخلتْ زوجتي في هذه الحماقات مع شيخها الروحي الذي تمدحه وتتملقه وتموت فيه، أقول لك إن هذا الشيخ الروحي يزرع الأجنة هنا وهناك، في أرحام فتياتٍ يافعاتٍ وهنَّ لا يزلن في عمرٍ لا يعرفن فيه تغيير مناديلهن الصحية عندما تأتيهنَّ أمواجُ البحر الأحمر، أقول لك إن هذا الشيخ يملك المال، الكثير من المال بحيث يستطيع أن يطعم الحارة بأكملها خلال قرنٍ من حصارٍ أمريكي، ويحصل على هذا المال منك، ويحصل على هذا المال مني، ويحصل على هذا المال من جميع السكان في هذا البلد، أقول لك إن هذا الوغد غني جداً جداً ويعرف جميع الشخصيات الهامة في الحكومة، ويبدو أنه قد تصوَّر مع رئيس الوزراء ومع القائد العام للجيش ومع جنرالات جيشنا، ويبدو أنه هو أيضاً من يعطي نصف الذبائح التي توزع على الفقراء في عيد القربان المقدس، ولديه برنامج تلفزيوني كل يوم أحد، فيظهر

كرجل جدي ويتكلم مثل المبشِّرين من الزنوج الأمريكيين، وعندما يتكلم على التلفزيون يهدد الكفار ويعدهم بلهيب جهنم وعذاب القيامة، وهكذا يجنِّد المؤمنين، وهكذا يجمع الثروات الخرافية، ولديه رقم هاتف يظهر على الشاشة حين يتكلم، ويظهر أطفالٌ حوله يرتدون الملابس البيضاء ويسبِّحون بحمده بدلاً من أن يسبِّحوا بحمد الخالق، ويتبارى الناس في تقديم الهبات لهذا النصَّاب معتقدين أنهم يقتربون من باب الجنة كلما زاد عطاؤهم له، بيد أنني لا أحب رأس هذا الرجل فهو يشبه رأس تمثالٍ بوذيٍ لَزِجٍ وماكرٍ بل ورذيل، وكيف لك أن تهاجم هذا اللص عندما يقوم الجيش النظامي بتزويده بعساكر يقومون على تأمين الحماية له، هه، حتى إذا أردت مقابلته فعليك أن تحصل على موعد قبل أسابيع من المقابلة، ولا يسمح سكرتاريوه لأيٍ كان بأن يقترب منه، أترى إذن أن هذه القصة ليست مجرد قصة الأب الرب بل هي قصة إدارةٍ أعمالٍ بحتةٍ بكل بساطة، بل لنقل إنها تجارة رائجة، وهل تعرف أيضاً أن لهذا الشيخ حريماً كاملاً في جبال "لوانجو" و "نجيلي" و "ديوسو"، حيث يطوف طوافاً جنسياً بالسيقان المشرعة في الهواء، وأن زوجتي قد تركت منزل الزوجية لأسبوعٍ كامل، وأن زوجتي قد ذهبت هناك إلى تلك الجبال غير المقدسة التي تسمِّيها جبال الروح".

بدا رجل "البامبرز" كأنه يبحث عن الكلمات التي سيقولها، ثم فاضت قريحته فجأةً فتابع روايته دون أن يتأكد أنني أتابعه، "أترى إذن أيها القدح المشعور، كانت زوجتي تتجرأ على منعي من

الخروج، أقول لك إنها ليست هي من يحق لها أن تأمرني هكذا ، فأنا من كنت أصرف على المنزل، ومع ذلك فهي من كانت تسمح لنفسها بفرض القوانين فيه، أرأيت مثل هذا في عالمنا المتداعي، هه؟ أبداً لم تر مثله، كما كانت تمنعني من الذهاب للاستمتاع ببعض المداعبات المشروعة لدى الفتيات الشبقات في حارة "ريكس" ، وأنا ماذا كان بمقدوري أن أفعل بينما كان الشيخ الروحي يشتغل على زوجتي هناك في أعالي جبال "لوانجو"و "جيلي"و "ديوسو" ، هه؟ هل أشبك ذراعيَّ مثل مشاهد المسرح، هه؟ هل أقرأ الكتاب المقدس، هه؟ هل ألاعب الأطفال في المنزل، هه؟ هل أعد الطعام، هه؟ أنا أوافق على أن تخونني، ولكن أن تخونني بعد وفاتي، أوافق على أن تخونني، ولكن ليس بالتواطؤ مع رجال الدين، بالتواطؤ مع الناس الذين ينبغي عليهم بالطبع أن يرشدونا إلى طريق الجنة، أتدرك أنني قلت أحياناً في نفسي إن بعض أطفالي، ما عدا الفتاة التي تشبهني، هم في الواقع أبناء هذا الشيخ الروحي، وأنا ماذا كان بمقدوري أن أفعل في هذا الوقت، هه، صحيح أنني أحب الفتيات الشبقات في حارة "ريكس"، نعم أحب طعم الفتيات اليافعات، وبخاصة فتيات "ريكس" ، تلك الحسناوات اللواتي خلقهن الله البديع، فهنَّ يعرفن كيف يحرِّكن الكامنَ في داخلي، فقد خلقن على هذه الفطرة، ولا يستطيع المرء أن يشعر تحت سقف الزوجية بمثل تلك الرعشة والرجفة اللتين يشعر بهما معهن، ثم إن تلك الصغيرات مهولاتٌ أيها القدح المشعور، إنهنَّ براكين، يعدنك بالسماء ويقدمنها لك ملفوفةً في ورق الهدايا بينما لا تنفِّذ زوجاتنا أيَّ وعدٍ على الإطلاق، إن فتيات حارة "ريكس" شبقات جداً، إنهن من

الكاوتشوك والمطاط بآن واحد، إنهن مثيراتٌ ومعسولاتٌ وشبقات، يهمسن في أذنك، ويرافقن انتصابك ميلمتراً فآخر، يعرفن أين يلامسنك كي يستيقظ محركك النائم، ويعرفن كيف لا يستوقفنك على الدوَّار، يعرفن كيف يدرن العنفة، ويغيِّرن التسارع والسرعات، فتصبحُ سعيداً وتصبح الحياة أمامك، ثم ماذا تريد مني أيها القدح المشعور، إنها نقودي أنا ويحق لي أن أستخدمها كيف أشاء، أليس كذلك، ثم إنني أعترف لك بأن زوجتي لم تكن تحسن القيام بالأمر، وإلا لكنت بقيت في منزلي مثل الحمقى الآخرين في حارتنا، كانت زوجتي تنظر إلى الأرض إذن وتجبرني على أن أنظف أظافري وعلى أن أتخيَّل فتيات حارة "ريكس" المشوقات، بينما كان من المفروض أن تتظاهر بالانتظار عندما كنت أمتطيها مثل راكب دراجة بسيط من حارة "ترواسان"، وأريد أن أبوح لك بسرٍ مثيرٍ للضحك أيها القدح المشعور، فقد أجبرتني ذات يوم صراحةً على الانتهاء من الممارسة بسرعة لأنها تريد أن تتابع مشاهدة حلقة من مسلسل *"القديسة بربارة"*، فتعطَّلتْ آلاتي ولم يعد أي شيء يقلع منها، فقد جفَّت البطاريات ولم يعد يعمل أي شيء، أقول لك إنني كنت عاجزاً عندما رأيت عضوي يقل ارتفاعه فيصبح مثل عَلَمٍ منكَّسٍ قبل أن يأخذ الأبعاد المضحكة لعضو طفلٍ رضيعٍ ولد قبل أوانه، كل ذلك لأقول لك إنني أصبحت حائراً مرتبكاً مضطرباً ضائعاً هائماً على وجهي، وأقسم لك أنني سرعان ما عاودت ارتداء ملابسي ورحت أصرخ بقوة اللعنة اللعنة اللعنة، وتوعدت بألا أصرف أي شيء على المنزل طالما أن زوجتي لا تحرك مؤخرتها أثناء الممارسة، وأضفت أنه يجب ألا تعتمد

عليَّ بعد الآن وأنني لست ساذجاً وأحمقَ وأبلهَ، وأن لي كرامتي التي يجب أن أدافع عنها ضد الرياح والأنواء، وقد أزعجتها عندما قلت إنني تزوجت من خشبةٍ حقيقية وإنها لا تعرف كيف تبعث المتعة في الرجل، وقلت بأن الأمر الوحيد الذي تفعله بنجاح هو الإنجاب الذي يمكن لأي حيوان بري أن يقوم به، نعم، قلت كل ذلك تحت تأثير سورة من الغضب بينما كنت أعاود ارتداء ملابسي بسرعة، وخرجت من المنزل ضارباً الباب بقوة، وما إن أصبحت في الخارج حتى ركضتُ للتبول مثل مجنونٍ فرَّ من مستشفى المجانين عندما ذهب المراقب، وقفزت إلى سيارة أجرة، فأراد السائق أن يكلمني لكنني زجرته لأنني لم أرَ ما يمكننا أن نتحدث به، قال لي إن لدي مشكلة تزعجني وإن ذلك واضحٌ وضوحَ الشمس، فطلبت منه أن يعفيني من تخميناته وأن يقفل عداد السرعة ويقودني بسرعة إلى حارة "ريكس"، لكنه استمر في ثرثرته فهو يريد أن يعرف سبب إحباطي بيد أنني لم أبح له بأي شيء بل قلت له إنه إذا فتح فمه كرَّةً أخرى فسأنزل من عربته القديمة، وتنهد هامساً بأن القصة لا بد من أن تكون قصة امرأة، وأنه يبدو عليَّ مظهر المنزعج من منزله، فصرخت فيه "كيف تعرف ذلك أنت، هه"؟ فاستدار وغمغم قائلاً "إن كل الرجال الذين يبدو عليهم مظهرك والذين يذهبون إلى حارة "ريكس" هم في الغالب أزواج مغبونون أو رجال زوجاتهم مثل خشبة شجرة "الأوكوما"، فأمرته أن يغلق فمه فقال "إن فتيات حارة "ريكس" حاميات أليس كذلك"، فاستشطت غضباً وصرخت فيه "اصمت وتابع قيادتك"، لكن هذا الأحمق لم يتوقف لأنه قال "إن الحياة جميلة يا صديقي، استمتع بوقت المرح فعما

قريب ستحلق في الهواء، افرح وكن رائعاً، وتمتّع"، وبما أنني لم أعد أتكلم، تابع مازحاً "كما تريد يا صديقي، إنما أردت الحديث فحسب، وإن من المستغرب أنه لم تعد لدى الزبائن روح الدعابة في أيامنا، سوف أوصلك إلى حارة "ريكس" ولكن فكّر بي عندما تمتطي فتاة شابة عما قريب"، ولم يضف أي كلمة على ذلك، بل كان يرسم ابتسامةً ساخرةً على فمه طوال الطريق، وأخيراً وصلنا إلى حارة "ريكس" فدفعت الأجرة إلى هذا السائق الأحمق لكنني رميت له النقود رمياً من النافذة، فانطلق وأومأ لي بإصبعه الوسطى، صرخت فيه "يا غبي" فأجابني "يا مخدوع" ثم لم أعد أبالي فقد أصبحت في حارة "ريكس"، وكانت الفتيات اليافعات طريات، جاهزات، منفتحات على جميع الجمل القصيرة والطويلة، لقد وجدت نفسي إذن في محيطي الطبيعي، في مدرسة الرغبة، والفتيات اليافعات يعرفنني جميعهن لأنني كنت أعرف كيف أحترم أجسادهن وجمالهن، لأنني لم أكن أعاملهن على أنهن عاهرات، إنما كنت أقوم بكل ما يمكنني القيام به مع امرأة عادية موهوبة بقدرة جنسية كبيرة وليست جليداً مثل زوجتي، وسألتني إحدى الفتيات في ذلك المساء عما إذا كنت أريد تدليكاً خاصاً يدعى *"شهوة المعلم"*، فقلت في الحال نعم *"لشهوة المعلم"*، ذلك أن أحد أصدقائي من "هايتي" كان قد امتدحه لي، حتى لو كان هذا التدليك يكلف ضعفي الأجر العادي، فقلت نعم ونعم *"لشهوة المعلم"*، أؤكد لك أنني استمتعت تماماً، وعندما عدت إلى المنزل فجراً لاحظت أن زوجتي قد غيّرت قفل البيت، نعم أتسمعني جيداً أيها القدح المشعور، بعد أكثر من أربعة

عشر عاماً ونصف من الزواج، أربعة عشر عاماً من الملل المميت، أربعة عشر عاماً من الحب القاحل، من التمثيل والتظاهر والزيف، أربعة عشر عاماً من محنة الأنبياء، ها هيَّ ذي تغيِّر قفل المنزل، وأنت تدرك أنني لا أستطيع أن أنام في الخارج بسبب القفل الذي غيَّرته بالتواطؤ مع أخيها وهو نجار مشهور، لا أستطيع أن أنام في الخارج كالمتشرِّد لأنني لم أكن كذلك في حياتي مطلقاً، حينذاك طرقت الباب عبثاً، صرخت باسم زوجتي بصوتٍ عالٍ مما أزعج الجيران، لم تفتح، هدَّدْتُ بأنني سأخلع الباب وأنني سأعد إلى خمسة، ورحت أعدُّ ببطء، لم تأتي لتفتح لي، حينذاك اتصلتُ بالإطفاء لأنني لا أريد أن أكسر باب المنزل، وعندما وصل رجال الإطفاء بكامل عدتهم معتقدين أنهم بمواجهة حريق في الغابة، شرحت لهم أنه لا حريقَ في منزلي بيد أنه كان من الواجب عليَّ أن أجد حجةً دامغةً لأن هؤلاء الرجال يسأمون عندما لا يكون هناك حريق في الحارة، وقد أكثروا من التظاهر بأنهم قد أطفؤوا الكثير من الحرائق في حين أن بعضهم قد تقاعد دون أن يطفئ ولو عود ثقاب، فكذبتُ زاعماً أن أطفالي محبوسون في المنزل وأن زوجتي قد أغمي عليها، فسألني رجال الإطفاء الخائبون بسبب عدم وجود حريق في المنزل عن سبب عدم وجود المفتاح معي، فزعمت أنني نسيت المفتاح في المنزل قبل أن أغادره للعمل ليلاً، إذن المفتاح في الداخل وليس معي، وأشار أحدهم إلى أنني مغفل كبير، واندفع رجال الإطفاء على الباب كمجانين يريدون أن يدخلوا جميعهم من خرم إبرة، وخلعوا ذلك الباب الخرا الذي جعلهم يريلون ويتغوطون، فخرجت زوجتي من الغرفة مزمجرة، وأنشبت مخالبها، ووثبت عليَّ

مثل لبوةٍ تدافع عن صغارها الوليدين للتو، وثبتتني على الأرض لأنها كانت أضخم مني وحتى منك أنت أيها القدح المشعور، إن زوجتي شريرةٌ حقيقية، صدقني، فرحت أصرخ مستغيثاً إلى أن فصل رجال الإطفاء ما بيننا وسألونا عما يحصل في منزلنا، فأردت أن أتكلم أنا أولاً لأنني أنا الرجل، فصفعتني زوجتي وقالت لي أن أغلق فمي الذي يقضم فتيات حارة "ريكس"، وكذبتْ زاعمةً أنني لم يعد يحق لي أن أمر بجانب بيت الزوجية لأن قاضي الأحوال الشخصية في حارة "ترواسان" قد طردني من المنزل منذ أشهر، فعاملني رجال الإطفاء على أنني كاذبٌ بل مهووسٌ بالكذب ومثيرٌ للشغب وشخصيةٌ تافهة، وطلبوا مني أن أغادر منزل الزوجية بسرعة، "القانونُ قاسٍ لكنه القانون"، قالوا ذلك، وأنا رفضت الخروج لأنني لم أكن أرى أي وجود للقانون ليكون قاسياً معي، وقلت إذن إنني أنا من أدفع نفقة المنزل، وأنا من اشتريت جهاز التلفزيون وطقم صحون "دورالكس"، وأنني أدفع ثمن الطعام، وأنني أدفع اللوازم المدرسية لأبنائي، وأنني أدفع فاتورة الماء، وأنني أدفع فاتورة الكهرباء وكل شيء كل شيء، ثم استدعوا الشرطة لأن رجال الإطفاء لا يحملون بالطبع قيوداً معهم، فهم يجيئون دائماً مع خراطيمهم ونقالاتهم وشاحناتهم الكبيرة التي تزعج الجميع لمجرد عود ثقاب سويدي اشتعل هنا أو هناك، كما أنه ليس من مهمتهم اقتياد الناس إلى السجن، إنهم يجيئون لإطفاء الحرائق أو إنعاش ضعاف النفوس والمنتحرين والناس الذين يغمى عليهم، جاءت الشرطة في الحال إذن لأنها لا تبعد أكثر من مائتي متر عن المنزل الذي استأجرته بنقودي، وأخبرك أن زوجتي قد شرحت لهم

أنني خطير بل أخطر من القاتل الشهير "أنجوليما" الذي يقطع رؤوس البشر ويرميها في البراري المرتفعة، وقالت زوجتي إنني مجرمٌ محكومٌ سابقاً وميالٌ لارتكاب الجريمة لاحقاً، وإنني لصٌ وبائعٌ للمخدرات من الكوكايين والقنّب الهندي[1]، وقالت أيضاً إنني لم أعد أنام في المنزل ولم أعد أغتسل وإنني أضرب أطفالي ضرباً مبرِّحاً، وإنني لم أعد أدفع إيجار البيت، وإن صاحبه سيطردها منه، وإنني أنام لدى عاهرات حارة "ريكس"، وإنني أعاشرهن دون أن أستخدم الواقي الذكري الصحي المستورد من وسط أوروبا، ذلك أن الواقيات المستوردة من نيجيريا ليست جيدة برأيها، فهي مثقوبة من الأمام وتتيح للرجل أن يخدع المرأة فيستمتع كما لو أنه لا يضع واقياً ذكرياً، فتتصور المرأة المسكينة أن الرجل الذي يمطتيها يضع واقياً في حين أنه يضع شيئاً مثقوباً من الأمام، أتتابعني فيما أقول أيها القدح المشعور، لقد قالت زوجتي إن من المحتمل جداً جداً أن أكون حاملاً إيجابياً للفيروس دون أن أعرف، وإن حالتي خطيرة لأنني كنت في نحولٍ مطّردٍ بصورة غريبة، وإن وجهي مليءٌ بالحراشف مثل السمكة، وإن جمجمتي مخيفة، وإنني أعاني من الإسهال دوماً، وإنني أئن عندما أتبول، وإنني أتقيأ، وإن فتيات حارة "ريكس" ينفقن مرتَّبي، وإن لدي عشيقتين من عمر أحفادي أو أحفاد رجال الإطفاء والشرطة الحاضرين، يا إلهي، هكذا تدهور الوضع، وتدهور أكثر عندما أكدت زوجتي أنني أرتكب الموبقات مع ابنتي "آميلي"، وإنني أصبحت مشعوذاً وهمجياً كالرجل الذي يعيش في الكهوف، قالت

١- القنب الهندي هو حشيشة الكيف (المترجم).

لأولئك الناس إنني أنهض في الليل لأتحسس ابنتي وأفعل الموبقات والقذارات معها، وإنني من أجل ذلك كنت أسقيها منوِّماً كي لا تنتبه لنجاستي وآثامي، ولكن بالله عليك قل لي أيها القدح المشعور، أتراني أرتكب مثل هذه الحماقات، هه، أتراني أدنِّسُ براءة الطفولة، هه، أتراني أُطْلِقُ على الأطفال أنا، أتراني أجتث البراعم أنا، إن ذلك مستحيل، ومع ذلك فإن "آميلي" هي ابنتي، أتسمع، لقد صُدِمتُ لدرجة أنني لم أجب بأي شيء على هذه الاتهامات الباطلة، وكان من بين رجال الشرطة شرطيةٌ أنثى بعضلات صياد وشعرٍ قصيرٍ مثل شعر الشرطي العادي، أقصد الشرطي الرجل، هذه الشرطية الأنثى دفعتني إلى الجدار، ونعتتني بالوغد والسادي والشاذ جنسياً الذي يمارس الجنس مع الأطفال، وقالت إنني حتى لو متُّ فستدوس عليَّ بقدميها وستبصق على قبري، وقالت إنني أشبه بحّاراً لفظه البحر، وإن عليَّ أن أعلم أن هناك عقاباً لكل جريمة، وأقسمت هذه الشرطية على أن تسجنني، وتعهدت بأن تفعل المستطاع كي لا يكون هناك دعوى، ذلك أنه شرفٌ كبيرٌ لي إذا أقيمت دعوى ضدي، كما أن إجراءات الدعوى طويلة ومعقدة، ثم وضعت الأصفاد حول يدي، وراح زملاؤها يركلوني بأقدامهم ركلاتٍ قويةً كركلات الحمير، ويضربوني بجزماتهم على خصيتيَّ بينما كنت أحتضر أمام هؤلاء المتطفلين، حتى أنني أستطيع أن أريك آثار ضرباتهم، الآثار التي لم تندمل عبر الزمن، بدأت إذن أتقيَّأ بصقاتٍ من الدم، بصقاتٍ كبيرةٌ مثل بطاطا "بوبو ديولاسو"، بصقاتِ دمٍ كبيرةً مثل غائط الديناصور، واقتادوني إلى أكبر قسم للشرطة في منطقتنا، وعندما ذُكر هناك إنني أمارس

الجنس مع الأطفال، صرخ رجال الشرطة الآخرون صرخةً واحدةً إنه يجب إرسالي إلى سجن "ماكالا" حيث سيجعلونني أدفع نصف عمري، و "ماكالا" هو المكان الذي يخشاه مجرمو المدينة أكثر من أي مكان آخر، واقتادوني إلى هناك، وأقسم لك أيها القدح المشعور أن الموقف كان صعباً جداً، سوف لن تصدقني إذا قلت لك إنني أمضيت سنتين ونصفاً هناك، وإنَّ سنتين ونصفاً في سجن "ماكالا" ليست مزحة على الإطلاق".

كنت أصغي إليه دون تذمر، ثم شرب كأساً قبل أن يستأنف حكايته، "إن سنتين ونصفاً في سجن "ماكالا" فترة طويلة كالأبد، وبخاصة حين يعلم السجناء الآخرون إنك ارتكبت الموبقات مع ابنتك مما لم يكن صحيحاً بالنسبة لي، لأنني بكل بساطة غير قادر على تدنيس براءة الطفولة، واجتثاث البراعم، والإطلاق على الأطفال، أقسم لك على ذلك، ولسوء الحظ أنني عانيت محنةً حقيقيةً هناك، فإن ما عشته هناك أصعب من عيشة أولئك الذين يذهبون إلى الجحيم، كان الأمر مفزعاً لا يطاق، ولا أعلم أيها القدح المشعور ماذا فعلت كي أصمد، تخيَّلْ حرَّاسَ السجن الذين كانوا يتركون زعماء العنابر الأخرى يحشون مؤخرتي، ويفعلون بي ما يدعونه "*خوزقة الوسط*"، أقسم لك أنني أروي لك ما حصل فعلاً وأنني كنت أداتهم ولعبتهم ودميتهم القابلة للنفخ، وكنت أترك لهم جسدي النحيل الذي تراه أمامك، فماذا كان بإمكاني أن أفعل أنا، لم يكن بإمكاني أن أفعل أي شيء، كانوا عديدين، ويتقاتلون على الدور،

وعندما كنت أصرخ بسبب *خوزقة الوسط* تلك، كان حرّاس سجن "ماكالا" يهزؤون ويطلبون مني أن أفكر بالأذى الذي سببته إلى "آميلي" في حين أن ذلك ليس صحيحاً لأنني غير قادر على تدنيس براءة الطفولة واجتثاث البراعم والإطلاق على الأطفال. وفي كل يوم كانوا يخوزقون وسطي، ولم أعد أغمض عيني، ذلك أن أحداً ما موجود خلفي بصورة دائمة ليجلدني وينعتني بالقحبة القذرة والكلبة والقمامة المنزلية التي لم تُدْفَعْ ضريبتُها وبنت وردان والبزاقة والدودة والخضار والفواكه المتعفنة، كانوا ينعتونني بكل هذه النعوت، حتى أن أحد حرّاس سجن "ماكالا" كان يأخذ على عاتقه أحياناً القيام شخصياً *بخوزقة الوسط*، وهو شاب عصابي قال لي إنه لم يحصل له أن فعل ذلك لأيٍ كانَ سابقاً، ولا لأي رجل، وإنه ليس لوطياً، بل يفعل ذلك كي يجعلني أدفع ثمن الحماقات التي ارتكبتها مع "آميلي" في حين أن ذلك ليس صحيحاً، كان يجلدني بينما كان يدق مؤخرتي بضربات فتىً كشّافٍ قويٍّ العضلات، أتدرك إذن أن رجال سجن "ماكالا" قد خرّبوا كلَّ شيء فيَّ، أقسم لك على ذلك وبإمكاني أن أريك مؤخرتي، إذ يمكن لك أن تدخل فيها كلتا يديك معاً بسهولة تامة، أنا لا أكذب عليك، والمشكلة أنه ليس لدي الحق في أن أقيم الدعوى في هذا البلد الخرا".

بعد أن انتهى من رواية قصة حياته، رفع رجل "البامبرز" كأسه وهو يقول لي "تشاو" وشربه دفعةً واحدةً، ثم سكب كأساً آخر فوراً وشربه دفعةً واحدةً أيضاً ونهض قائلاً "حسناً، حسناً، حسناً"،

حينذاك تبيَّنتُ عن كثب مؤخرته المقببة بسبب أربع طبقات سميكة من حفاضات "البامبرز" التي وضعها الواحدة فوق الأخرى، كانت مؤخرةً رطبةً يطنُّ الذباب حولها، ثم اعتقدَ أنه من المناسب أن يوضح لي فقال "لا تبالِ بالذباب فهي دوماً هكذا أيها القدح المشعور فقد أصبح الذباب من أوفى الأصدقاء، حتى أنني لا أبعدهم لأنهم سيجدونني أينما أكون، لدي انطباع أن الذباب نفسه يطاردني"، وقال لي برأسه مرةً أخرى "تشاو"، فأجبته برأسي أيضاً "تشاو"، وغاص في طرقات الحارة بينما كنت أراه يغيب عن نظري، فقلت في نفسي إنه سيأتيني ذات يوم ليقول لي "قل لي من أقتل"، مما لا شك فيه أنني لا أؤيد مثل هذا الفعل، فلن أكون أبداً متواطئاً مع أي قاتل، فالقتل فعلٌ منافٍ للحياة، وأنا لا أدري كيف يفعل الناس ليقتلوا، فالحياة شيءٌ جوهري، وهذا ما كانت تكرره عليَّ أمي، ومع أنها قد توفيت فأنا لن أحيد عن هذه الرؤية السلوكية، فإذا كانت فكرة القتل قد خطرت في بال رجل "البامبرز" إذن، فإن عليه أن يقوم به هو نفسه.

صادفتُ "موظف المطبعة" كما أصادف معظم القادمين الجدد إلى هذا البار، لا أدري من أين يأتون فلا أراهم إلا أمامي دامعي العيون متهدِّجي الصوت، وهذا الشخص، أقصد موظف المطبعة، كان يبحث عني كي يكلمني منذ أول يوم وطأتْ فيه قدماه بار الدين المسافر، كان يرغب كثيراً في الحديث، بل في الحديث إليَّ وليس إلى أي شخصٍ آخر، فصرخ قائلاً "أريد أن أتكلم، أريد أن أكلمك، ألست أنت من يلقبونه بالقدح المشعور ها هنا، هه، أريد أن أكلمك، لدي أشياءٌ كثيرة أقولها، دعني أجلس على طاولة وأطلب زجاجة"، تظاهرتُ بأنني لا أهتم بقصته، فقد سمعت الكثير من القصص، ولا يكفيني دفترٌ واحدٌ كي أرويها، بل قد تلزمني مجلّداتٌ بأكملها كي أتحدث عن هؤلاء الملوك الملعونين، لقد عبَّر موظف المطبعة عن نفاذ صبره إذن، بقيتُ شاخصاً بنظري على كأسي الأحمر مثل فيلسوف يتساءل عما يمكن للخمر أن يفعله في أعماقه الغامضة، وإذا كان هنالك من سرٍ أستطيع أن

أكشفه هنا هو أنه كي تدفع الناس على الكلام يجب أن تتظاهر بوجود مسافةٍ ما بينك وبينهم، وأن تتظاهر باللامبالاة وعدم الاهتمام، لا أفضل من هذه الحيلة القديمة قدم العالم كي تجعل الأشياء تتجلى، حينذاك يشعر الأشخاص الذين يسعون للاعتراف بشيءٍ من المهانة، هم الذين كانوا مقتنعين أن قصتهم هي الأكثر فرادةً وغرابةً وإثارةً للدهشة من أي قصة أخرى، فيرغبون في أن يبرهنوا لك على أن قصتهم التي يريدون أن يرووها هي بخطورة وجسامة الحكم بالإعدام، "لماذا تريد أن تتحدث لي أنا"، تظاهرتُ بالدهشة بينما كنت أريد أن أسمعه فأجاب "لأنني سمعت أنك شخص طيِّب"، وضحكت ثم رفعت كأسي من النبيذ الأحمر وشربت جرعةً، "وماذا قيل لك عني"، سألت موظف المطبعة، "إنك عميد هؤلاء الناس هنا"، فضحكت أيضاً قبل أن أؤكد له "لو كانت الحكمة تقاس بطول اللحية لكان الفلاسفة تيوساً"، نظر موظف المطبعة إليَّ بعينين جاحظتين وانكمش تقريباً وقال لي "لماذا تكلمني هكذا أيها القدح المشعور، أنا أبحث عمَّن يمكنه أن يفهمني، فما علاقة التيوس والفلاسفة هنا، إنهم لا يعنون لي شيئاً"، قلت له بأن يهدأ وإنني لا أستهزئ به وأضفتُ "لا بد أنهم قالوا لك شيئاً آخر أولئك الناس الذين كلموك عني، أليس كذلك"، وافق برأسه قائلاً "نعم قالوا لي بأنك كنت شاهداً على أول لَبِنَةٍ بُنيتْ من هذا البار، وقالوا لي أيضاً بأن *"الحلزون العنيد"* هو صديقك الشخصي وأنه يسمعك"، ابتسمتُ مفتوناً بهذه العبارات فقد كنت أحب أن أسمعها، وبذلك أصبح هذا الرجل مثيراً للاهتمام، "وماذا قالوا أيضاً، يبدو أنهم قالوا أشياء أخرى"، طفق يفكر ثم نظر إلى السماء قائلاً "يبدو أنك تكتب شيئاً

ما عن روّاد هذا البار الطيّبين، تكتب ذلك في دفتر، ولا بد أن هذا الدفتر هو الموجود إلى جانبك، أليس كذلك"، لم أجب بل وضعت يدي على صفحة من الدفتر لأنه كان يحاول أن يقرأ خربشاتي، وهذا ما لا أحبه، ثم سكبت لنفسي كأساً أخرى من النبيذ الأحمر بعد أن رجرجت الزجاجة جيداً، شربت الكأس دفعة واحدة وسألته "إذن ماذا تريد أنت"، فرفع صوته فجأةً "أريد أن يكون لي مكانٌ في دفترك لأنك ستجعل بعض الحمقى مشهورين في حين أنني أكثر الناس الموجودين هنا إثارةً للاهتمام"، كم هو متبجحٌ هذا الشخص، فمن يظن نفسه، "على رسلك، على رسلك يا صديقي، فماذا يثبت أنك الأكثر إثارةً للاهتمام ها هنا، بصراحة إنه قولٌ اعتباطي، أعطني سبباً، سبباً واحداً يحمل على الاعتقاد أنك الأكثر إثارةً للاهتمام من كل هؤلاء الناس الذين يحيطون بنا"، فأجاب دون أن يأخذ الوقت الكافي للتفكير "أنا الأكثر إثارةً للاهتمام لأنني عشت في فرنسا، وهذا ما لا يتاح لجميع الناس، صدقني"، قال ذلك بلهجة طبيعية لا تدع مجالاً للاعتراض، ففرنسا بالنسبة إليه هي المعيار الذي يقاس به الناس وهي قمة الاعتراف بالأهمية، فأن تضع قدميك فيها يعني أنك ترتقع إلى مستوى أولئك الذين هم دوماً على حق، فبماذا يمكنني أن أجيبه على مثل هذا القول، حاولت عبثاً أن أجد حجةً مضادةً لكنني لم أجد شيئاً فانتهيت بأن استسلمت له "إذن فلتجلس يا صديقي ولننظر في ذلك عن كثب"، وجلس إلى طاولتي وملأ الكأس الفارغة التي تناولها من الطاولة المجاورة وتنحنح ثلاث مرات قبل أن يهاجمني قائلاً "أقول لك أيها القدح المشعور إنك إن لم تضعني في دفترك فلن يكون له أي قيمة، أي قيمة على الإطلاق، أؤكد لك أنه

يمكن أن يُصنعَ فيلمٌ من قصة حياتي"، وهدأ أخيراً، وتبع ذلك فترة طويلة من الصمت حيث كنا نسمع الملائكة المتوارين يحلِّقون فوق رأسينا، وأنا كنت أثبت نظري فيه، سألني بلهجة إذعان "حسناً، من أين أبدأ وبماذا، هه"، لم أجبه بشيء فتابع قائلاً "في حقيقة الأمر أنني لا أكره الفرنسيين والفرنسيات، ولكني أكره فرنسيةً واحدة، واحدةً فقط، وأقسم لك على ذلك"، هذه بداية جيدة مع هذا النوع من التصريحات، بقيت هادئاً أكثر من السابق، كنت أريد أن يلد الآن تحت وطأة نظراتي المركزة عليه، فأطلقَ رشقاتٍ من مدفعه "فرنسا، آه فرنسا، لا تحدثني عنها أيها القدح المشعور كي لا أتقيَّأ"، وبصق على الأرض وأصبحت ملامحه شرسةً مثل غوريلا رأى صياداً يقترب من أراضيه، "حسناً، سأبدأ من البداية، ولكن اسمعني جيداً لأنني سأروي لك أشياء هامة، دوِّنْ ملاحظاتك، دوِّنْ ملاحظاتك، أريد أن أراك تكتب بينما أتكلم، وسترى أنه يجب عدم الثقة بالناس، هذه نصيحةُ صديقٍ أيها القدح المشعور"، لاحظتُ أنه يتمتع بفن الإسهاب حقاً، رغبت في أن أطلب منه أن يذهب إلى الهدف مباشرة بدلاً من أن يدور ويدور قبل أن يقول شيئاً؛ وبينما كنت أخط كلماتي الأولى قال لي "في الحقيقة أنني أريد أن أحدثك عن امرأة، وسترى كيف قتلتني وكيف دمَّرتني كيف جعلتني قمامةً مكشوفة، أقسم لك على ذلك أيها القدح المشعور"، اقتربتُ منه فابتعد بضع سنتيمترات كما لو كان يريد أن يحافظ على مسافةٍ لم أرَ أيَّ فائدة منها، قال "أيها القدح المشعور يجب ألا يمزح المرء مع المرأة البيضاء، أقول لك إنه إذا صادفت امرأةً بيضاءَ ذات يوم، فامضِ في طريقك ولا تنظر إليها، وبخاصةٍ لا تنظر إليها، فهي قادرة على أن

تفعل أي شيء، حتى إنني لا أعلم كيف وجدت نفسي فجأةً في بلدي في حين أن مكاني الطبيعي في أوروبا، في فرنسا، وانظر إليَّ كيف أمضي وقتي بين هذا البار ورمال شاطئ "كوت سوفاج"، تناول جرعةً كبيرةً من النبيذ الأحمر، وتمخط بيديه قبل أن يكمل، "في الحقيقة أنني إذا كنت أشرب كما أشرب اليوم فذلك بسبب تلك الساحرة البيضاء، فقد استنزفت دمي كله صدقني أيها القدح المشعور، كنت رجلاً مستقيماً، ولا أعلم إن كنت تدري ما معنى أن يكون الرجل مستقيماً في فرنسا، لكني كنت رجلاً يعمل على كسب رزقه، رجلاً يدفع ضرائبه في وقتها، رجلاً لديه حسابُ ادخارٍ في صندوق توفير البريد، بل رجلاً لديه أسهمٌ في بورصة باريس، رجلاً يريد أن يحصل على تقاعده من فرنسا لأن التقاعد في بلدنا خرا، وهو يعني الضياع والإفلاس، فلا أحد يثق فيه، وهو يأتي حسب الحظ كاليانصيب، ويجب أن تتعرَّف على أشخاص نافذين في الوزارة كي تحصل عليه، حتى أن هناك موظفين في هذا البلد ممن يتاجرون بتقاعد المساكين الذين عملوا طوال حياتهم، ولكني أخبرك بأنني لم أكن شخصاً نكرةً في تجمُّع السود هناك في فرنسا، فقد كنت معروفاً، وكنت ناشطاً، ناشطاً حقيقياً، ولم أكن كسولاً ينتظر في بهو العمارة أن يأتيه الموظف ليعطيه شيك صندوق المعونات الأسرية، فأنا لم أكن بحاجة لمثل هذه السخافات، أنا الذي أحدثك في هذه اللحظة كنت أعمل في مطبعة كبيرة في ضاحية باريس، بل كنت أدير فريق عملٍ فيها، حتى إنني كنت أوظِّفُ العاملين لأنني كنت أعرف كيف أميِّز الكسالى من المجدِّين الحقيقيين، حتى إنني لم أكن أحصر التعيين بالزنوج، لأنه لو لم يكن هناك سوى الزنوج في

الحياة لكان الأمر سيئاً، فهناك الأعراق الأخرى، والزنوج لا يحتكرون لوحدهم البؤس والبطالة، كنت أوظف إذن من البيض والصفر البؤساء والعاطلين عن العمل أيضاً، ومن كل عِرقٍ وعرق، كنت أخلطهم، هذا لأقول لك إنني لم أكن أيَّ شخصٍ كان، وليس بإمكان أي شخص زنجي أن يوظف البيض مثلما كنت أفعل، البيض الذين استعمرونا ونصَّرونا وحملونا على المراكب مجلودين مهانين، البيض الذين حرقوا آلهتهم، البيض الذين تخلصوا من الثورات وحطّموا إمبراطورياتهم، إذن كنت أعيِّن البيض والصفر وجميع الأعراق، وكنت أخلطهم مع المحكومين الآخرين من كافة أصقاع الأرض، أي مع زنوج مثلي، ويُذكر من بينهم رجالٌ كانوا ضحايا الفتوى، بإمكانك أن تتحقق من ذلك، إذن كان لدي عملٌ رائع، عملٌ ذو أجرٍ جيد، فقد كنا نطبع مجلات "باري ماتش"و "في أس دي"و "فواسي"و "لوفيجارو" و "ليزيكو"، كنت رجلاً مستقيماً إذن، وقد تزوجت من فتاةٍ تدعى "سيلين"، وهي من منطقة "فانديه"، ولها مؤخرة رائعة مثل زنجية حقيقية من بلدنا، وكانت "سيلين" سكرتيرة إدارية في مختبر أدوية في منطقة "كولومب"، في تلك اللحظة من اعترافاته كنت أتساءل عما إذا كان يخدعني، لكنني لم أستطع سوى أن أصدقه نظراً للطريقة الواثقة التي يحدثني بها، تابع قائلاً "لنقل إنني صادفت "سيلين" في "تيميس"، وهو ملهى ليلي زنجي مشهور يقع بالقرب من ساحة "بيجال"[1] في الدائرة الثامنة عشرة من باريس، ولا أدري ماذا كانت تفعل وسط هذه الغابة من الزنوج الشبقين وغير اللبقين حتى لو كان بإمكاننا أن نجد بعض البيضاوات هناك، لكنَّ

١- ساحة "بيجال" هي المكان الذي يوجد فيه سوق العاهرات في باريس (المترجم).

لتلك البيضاوات الأخريات، على العكس من "سيلين"، مؤخراتٍ ملساءَ تستطيع أن تكوي قميصك فوقها، لقد بهرتني "سيلين" إذن بمؤخرتها وقامتها وتفاحتيها الكبيرتين اللتين تزيّنان صدرها بحيث كان أنبل الفوارس يخشى أن يتقدم منها، وأنا تقدمت منها مباشرةً مثل عسكريٍ تمّتْ ترقيته للتو، ودون أي تردد اندفعتُ مبتهلاً إلى الله أن تسير الأمور على ما يرام لأن أصعب ما يكون على الفارس الذي يبحث عن فارسة أن ترفضه وسط حلبة الرقص أمام المنافسين الذين سيتلوُّون من الضحك، والحمد لله أنني كنت حسن الثياب، فقد كنت أرتدي قميصاً من "كريستيان ديور" كنت قد اشتريته من شارع "فوبور سانتونوريه" وبلوزة "إيف سان لوران" كنت قد اشتريتها من شارع "ماتتيون" وحذاء "وستون" كنت قد اشتريته من ساحة "مادلين"، وكنت قد تعطّرت بعطر "لومال" من صنع "جان بول جوتييه" بعد أن مزجته بعطر "لوليتا لومبيكا" للرجال، ولن أقول لك كيف كانت قصّة شعري، كما لو كنت ممثلاً أمريكياً زنجياً في قمة مجده على شاكلة "سيدني بواتييه"، وهذا يعني أنني كنت رائعاً ونظيفاً، ومددت يدي باتجاه الفارسة الجالسة على وسادة مخملية والتي كانت تدخن سيجارةً رفيعةً وطويلةً مثل شعرة المكنسة، فنهضت الفتاة في الحال كما لو كانت تنتظر هذه اللحظة، وبدأ قلبي ينبض، لم أكن أصدق ما يحصل، ورأيت الخيبة في عيون المنافسين الآخرين الذين فقدوا فجأةً فرصة الضحك، فهم لا يعرفون معنى التنافس الشريف، فقلت في نفسي إنَّ عليَّ أن أقدم كلَّ ما بوسعي، وأن أرقص مثلما لم أرقص من قبل، وأن أترك لدى هذه الفتاة انطباعاً لا ينسى بحيث تطلب مني هي الرقصات التالية، ورقصنا جيداً في تلك السهرة، ثم صدقني أيها

القدح المشعور أن هذه الفتاة قد جاءت إلى المنزل معي دون أي نقاش، ودون أي جدالٍ من قبيل "أنت تدرك أننا بالكاد قد تعرفنا على بعضنا فأنا بحاجة للوقت، يجب أن نتعرف أكثر، أنا لست من تلك الفتيات اللواتي يفتحن سيقانهن منذ الليلة الأولى، أود أن نتحادث، أن نشرب فنجاناً من القهوة، وأن نتآلف أولاً، ثم بعد ذلك نرى"، لا، لم تقل لي ذاك، بل قبلت أن تأتي معي إلى المنزل دون أن تتفوه بالعبارات الرسمية التي تعتمدها جامعة "السوربون"، كنت أسير في سيارتي من طراز "رينو ١٩" وهي كانت تتبعني بسيارتها من طراز "تويوتا"، وعندما وصلنا ركنّا سيارتينا أمام العمارة، ورحنا نتعانق في الممر والمصعد وقرص الدرج وأمام الباب الذي لم أستطع أن أفتحه لأنني كنت ثملاً حتى الموت، ودون موارية سقطنا على سجادة "الموكيت"، وقمت بما عليَّ كما تستطيع أن تتصور، ومارسنا في جميع الاتجاهات والوضعيات، وفاجأنا الفجر ونحن متشابكان وكنا مضطربين نوعاً ما لأن الأمور سارت بسرعة، ولكن ما الذي تريده، كان الأمر جميلاً بحيث اضمحلَّ الاضطراب من تلقاء نفسه، وغادرت "سيلين" مكررة أنها أمضت سهرة جميلة، أجمل سهرة في حياتها، وأنني شخص جيد، فأخذتْ رقم تلفوني وأخذتُ رقمها، ورحنا نتهاتف لساعاتٍ وساعاتٍ بانتظام، وكنا نتبادل آخر أخبار الليل، ونتبادل الترهات، تلك الترهات الحمقاء التي تخرج من أفواه العشاق عندما يكون الحب لا يزال في بداياته، إذن توجب عليَّ أن أصرح لها بحبي، توجب عليَّ ألا أخفي مشاعري، وتوجب عليَّ أن أعبِّر عن تلك المشاعر دون أيِّ محظورات كما كانت تقول لي، وهكذا تعلمت لأول مرة حقاً أن أقول لامرأة إني أحبها، وتعلم أنه لا يمكن قول مثل هذه

الأشياء في بلدنا كي لا يبدو الرجل ضعيفاً، فها هنا يمارس الرجل في الليل ويعفي نفسه من الإطراءات مع بزوغ الفجر، في حين أن الأمر مختلف في فرنسا إذ يجب ألا تتستر على مشاعرك، ذلك أن الحب ليس طرفة، وبسرعة تقدمت بطلب يدها للزواج، وذاك ما كانت تنتظره منذ الليلة الأولى، زعمَتْ أنني أثرت غريزتها وأنني الرجل الذي ستمضي معه بقية عمرها، كان ذلك كما لو أن الله قد أمرنا بالزواج، وسرعان ما أقنعت "سيلين" والديها، وهما ليسا من أنصار التمييز العنصري لأنهما يصوتان للحزب الشيوعي في الانتخابات البلدية دوماً، وذهبنا للقائهما في مكان يدعى "نوارموتييه" في منطقة "فانديه"، وهي جزيرة ترتبط بجسر مع اليابسة، وقال والدا "سيلين" إنني رجل متميز وذكي ولطيف وطموح ويحترم قيم الجمهورية، وأنا كنت سعيداً بسماعهما يطلقان عليَّ كل تلك الأوصاف النبيلة، وقد أعجبا بملابسي، وهذا أمر طبيعي لأنني كنت أرتدي طقماً على مقاسي من طراز "فرانشيسكو سمالتو"، وقالا بأنهما يحبان أفريقيا، أفريقيا الحقيقية، أفريقيا الغامضة، أفريقيا الأدغال والتربة الحمراء والحيوانات البرية التي تعدو في المساحات الشاسعة، وقالا بأن الحمقى هم من يزعمون أن أفريقيا السوداء تخطو خطوات سيئة، أو أن أفريقيا ترفض التنمية، واعتذرا عن أخطاء التاريخ ولاسيما الاستعمار ومعارضة الاستقلال وتعذيب الزنوج، وكل هذا النوع من التفاهات التي يَصنعُ منها بعضُ الزنوج الأصوليين مالهم ورأسمالهم، وأنا لم أرغب في أن أتورَّط في هذه الأحاديث القديمة، فأفهمتهما أن الماضي لا يعنيني وأنني رجلٌ أسدِّد نظري على الأفق وأن هذا الأفق لم يحترق، قلت لهما إنني أنظر إلى المستقبل، ورحت أحدثهما عن الكونغو

فسألاني من أي كونغو أنا ، سألني الأب عما إذا كنت من الكونغو البلجيكية وسألتني الأم عما إذا كنت من الكونغو الفرنسية ، فقلت لهما إنه لم يعد هنالك اليوم من كونغو بلجيكية ، وقلت لهما إنه لم يعد هنالك اليوم من كونغو فرنسية، وشرحت لهما أنني من جمهورية الكونغو ، أي من الكونغو الصغرى، فصرخ الأب قائلاً "بالطبع إنه من الكونغو الصغرى، مستعمرتنا القديمة الرائعة ، حتى أن الجنرال "ديغول" قد أصدر مرسوماً اعتبر فيه "برازافيل" عاصمة فرنسا الحرة أثناء الاحتلال، آه الكونغو، نعم، إنها أرض الأحلام والحرية ، ومن جهة أخرى ففي هذا البلد يتحدثون الفرنسية بصورة فضلى، حتى أفضل مما نتحدث بها في فرنسا ، أؤكد لك على ذلك" ، وانزعجت أم "سيلين" قليلاً، وعابت على زوجها أنه استخدم كلمة "مستعمرة" حين تكلم عن بلدي، قالت له "انتبه يا "جوزيف" إن كلمة "مستعمرة" غير مناسبة ، أعتقد أنك تعلم ذلك" ، فقال الأب إنه قد قال تلك الكلمة عفو الخاطر وإنه أراد أن يقول "مقاطعة" ، فقالت الأم إنك إذا قلت "مستعمرتنا" أو "مقاطعتنا" فكأنك تقول "قلنسوة بيضاء" أو "قلنسوة ذات لون أبيض" ، فغضبت "سيلين" وقالت إننا لسنا هنا كي نناقش لون القلنسوات أو التاريخ أو الجغرافيا ، وقال "جوزيف" الأب "حسناً، إن هذا يستحق زجاجة من نبيذ "بوردو" ، أليس كذلك" ، وفتح زجاجة من نبيذ "بوردو" ، وشربنا ، واغتنمنا أنا و "سيلين" هذا الجو الهادئ لنعلن زواجنا الوشيك، فتفاجأ الأب وغصَّ بنبيذه قائلاً "أنتم شباب اليوم، تتعاملون بصرامة ، أليس كذلك، نحن في أيامنا كنا نعاني الكثير وندور حول العائلة ، أتريدان زواجاً يحصل بسرعة القطار السريع، فقالت أم "سيلين" لزوجها "عندما

يكون هناك حب فهذا يعني أنه حب، وأنت تعلم ذلك يا جوزيف"، وأعلنا مباركتهما على الرغم من كل ذلك، لأن "سيلين" لم تترك لهما خيار الرفض، وجاء والداها إلى باريس من أجل هذا الحدث، وكنا أقل من خمسين شخصاً في صالة صغيرة للأعراس في "شاتني مالابري"، وكان هناك أصدقاء "سيلين"، وكان هناك زملائي في العمل وبعض معارفي، وكان هناك أعضاء من رابطة زنجية للأشخاص المحترمين ومن بينهم رجال مؤثّرون مثل "جو بالار" والدكتور "ليمان"، و "ميشيل ماكابيه"، و "مولي مولي"، و "بينوس"، و "بريفيه"، وآخرين".

"آمل أن تتذكر ما رويته لك جيداً، إذن قلت لك بأننا تزوجنا، وأصبحت الحياة أمامنا، وكان علينا أن نخط طريقنا فيها، وأن نحدد وجهتنا، وبما أننا كنا نعمل كلانا بأجر جيد، حصلنا على قرضٍ واشترينا منزلاً كبيراً، وعشنا حياةً هانئةً في الضاحية على بعد نصف ساعة من باريس، لأننا أردنا أن نعيش سعيدين، لأننا أردنا أن نعيش بعيداً عن الزنوج بصورة خاصة، لست عنصرياً، ولكن اعلم مع ذلك أن العدو اللدود لزواج المختلفين باللون ليس الأبيض دائماً بل هو الزنجي في الغالب، أكرر لك أنني لست عنصرياً أيها القدح المشعور، لكنني أقول لك الأشياء كما هي: ولا أهتم بالأحكام الأخلاقية التي يتفوه بها من لا يتفقون معي، وفي حقيقة الأمر أن الزنوج الذين يرونك مع امرأة بيضاء يعتقدون أن باستطاعتهم أن يوقعوا بها، لأنهم يقولون إنه إذا مارستْ امرأةٌ بيضاءُ الجنسَ مع غوريلا من الكونغو فهذا يعني أنها قد تمارسه مع جميع من في حديقة

الحيوانات، أتفهم ما أقول لك، حسناً فلنتابع، فأنا لست هنا كي أدين العِرْقَ الذي لم ينتهِ من تضميد جراحه، الواقع أننا أنا و "سيلين" أردنا أن نعيش بعيداً عن جلبة باريس وحسد الزنوج ومسرحياتهم التقليدية، قلنا أننا إذا أردنا أن نعيش سعيدين فيجب أن نعيش في الظل، وأخبرك أنها كانت حياةً جميلةً، حياةً بهيجةً مع ابنتينا، وهما توأمان ولدتا بعد سنتين من زواجنا، هجينتان بعيونٍ صافية، أؤكد لك إنه لم يكن هناك أفضل من حياتنا، زوجان نموذجيان في حين أن الألسنة الشريرة السوداء في باريس تؤكد أن زواج الأبيض والأسود لا يستمر طويلاً، وأنه من المستحيل على الزوج والزوجة المختلفين في اللون أن يستمرا معاً إلى أن يصلا إلى سن الشيخوخة، وأنه كي يستمر هذا الزواج فعلى الزنجي أن يكف عن أن يكون زنجياً، وأن ينقلب ويقدم التنازلات، وأن يطلّقَ أبويه ثلاثاً قبل صياح الديك فجراً، وأن يهرب من عائلته التي ترتبط به جداً، وبالاختصار أن يكون ذا بشرةٍ سوداءَ وقناعٍ أبيضَ، إذن لقد صمد زواجنا أيها القدح المشعور ولم أرَ ما يمكن أن يعكر صفونا، لم أكن بحاجة لأن أرتدي قناعاً أبيضَ كي أخفي بشرتي السوداء، بل بقيت كما أنا فخوراً بكوني أسود، كنت كذلك وسأبقى كذلك حتى موتي، أنا فخور بثقافتي الزنجية، أتدرك ما أقول، هه، وقد احترمتني "سيلين" لهذا السبب، فسار كل شيء على ما يرام، كنت ربَّ أسرةٍ ناجحاً، وهذا يعني أن السماء كانت زرقاء بطيورها المتعددة الألوان التي كانت تأتي لتحطَّ على الأشجار المحاذية لبيتنا الذي طليته باللون الأخضر، وهو لون أحبه كثيراً، ولذلك كان الجيران يطلقون على بيتنا اسم "البيت الأخضر"،

كان كل شيء من أجلنا أيها القدح المشعور ، وعندما أقول لك إن السماء كانت شديدة الزرقة فلا بد من أن أعترف لك بأنها ستكفهرُّ ذات يوم، فالكثير من الألق يقتل الحب، وهذا ما تعلمته فيما بعد وعلى حسابي الشخصي".

"ثم اكفهرَّ سماؤنا الأزرق الجميل ذات يوم، ورحلت الطيور ذات الألوان المتعددة دون أن تودِّعنا، ولم تعد في اليوم التالي لتعلن كالعادة عن بزوغ فجرٍ جديد، وحلّت محلها طيور النحس بأجنحتها الثقيلة، فنعقت ونقدت بمنقارها القاسي جذع شجرة زواجنا المتجذِّرة، ففي ذلك الوقت ظهرت من جديد قصتي مع ابني الأول الذي ولدته من امرأة من الكاريبي تعرفتُ عليها لدى قدومي إلى فرنسا عندما كنت لا أزال طالباً في المركز الوطني للفنون والمهن، وهذه المرأة تهددني الآن برفع دعوى ضدي بحجة أنني لم أدفع النفقة خلال أربع سنوات، فقمت بهجوم مضاد باندفاع ثورٍ يريد أن يختصر المشهد الذي ينتظره منه هواة مصارعة الثيران، فعيَّنتُ محاميةً لامعةً أثبتت أن هذه المرأة الكاريبية كانت تحول دون قيامي بواجبي كأب، وحصلت على حكمٍ يقضي بأن يأتي ابني ليعيش معنا لأنني كنت أريد أن أشرف على تعليمه وأؤمن له مستقبلاً كريماً، وكان بيتنا يتسع له، وقد وافقتني "سيلين" على ذلك، وشجعتني كثيراً وقالت إن دمي هو دمي، وإن من الواجب عليَّ ألا أترك ذرِّيتي مثلما يفعل الأب غير المسؤول، فذهبتُ في هذا الاتجاه، وجاء ابني ليسكن معنا، ولكنه لسوء الحظ بدأ يعاشر أوباش الحارة، فعلتُ كلَّ ما بوسعي كي أضعه على

الطريق الصحيح، مستحيل، راح يرفع صوته عليَّ ويستهزئ بالمستقبل العظيم الذي كنت أعده به، حتى أنه أراد أن يرفع يده عليَّ، أتفهم، أنا لم أعد أفهم العالم الذي أصبحنا نعيش فيه، كنت أتساءل منذ متى يمكن لولد أن يتقاتل مع أبيه، لكنني كنت أعلم أنه يحتقرني، وكنت أشعر بذلك لأنه لم يستطع مطلقاً أن يتقبل انفصالي عن أمه وزواجي من "سيلين" البيضاء فضلاً عن ذلك، ولهذا السبب راح يعاملني على أنني خائنٌ ومنبطحٌ ومعقّدٌ وعبدٌ للحم الأبيض ولحم الخنزير، كان ذلك جحيماً، لكنه ابني، وقد أزعجني جداً حين روى لي أنه صادف "سيلين" مع أفارقة من المنطقة، وأن أحدهم ويدعى "فردينان" هو عشيق زوجتي، لم أكن مسروراً بذلك، لم أكن مسروراً أبداً، لكنني اعتبرت ذلك تحريضاً من قبله لأنَّ "سيلين" لا تجرؤ على أن تقوم بمثل هذه الأشياء، فهي تعلم رأيي بالزنوج الآخرين على الرغم من أنني لست عنصرياً، أصرُّ على تأكيد ذلك، ولم يكن ابني إذن سوى كذّابٍ من الدرجة الأولى، قلت ذلك في نفسي، ولم أعر الأمر أيّ أهمية، واعتبرت ما حصل مجرد واحدة من المضايقات التي يقوم بها في العادة، ولم أسعَ للتحقق مما كنت أعتبره كذباً، صحيح أنني لم أعامل "سيلين" معاملةً قاسيةً، فكنت أتركها تتفرَّغ لمشاغلها، ذلك أنه بالنسبة للمرأة البيضاء يجب ألا تتدخل في حريتها بخصوص الخروج والدخول، فهذا مهم جداً بالنسبة إليها، لم أعد أصرُّ كما في الأيام الأولى لزواجنا، فكنت أدعها ترى صديقاتها، حتى أنني كنت أنا من أعتني بالأطفال إذا كنت في إجازة، كنا نتدبر أمرنا هكذا، تابعني جيداً أيها القدح المشعور، لأن القصة ستصبح أكثر إثارةً،

وذات يوم بينما كان ابني يقوم بنزهة صغيرة اكتشفتُ واقياً ذكرياً عائماً على سطح الماء في الحمام، واقياً كبيراً أكبر من ضعفي عضوي مع أن عضوي كبيرٌ هو أيضاً، وأستطيع أن أريك إياه إن شئت، فقلت في نفسي إن ابني قد جلب إلى المنزل مومساً بيضاء أو سوداء على الرغم من أنني قد حذرته من ذلك حتى لو أنه بلغ الثامنة عشرة، قل لي كيف ستصبح الأمور لو أن فتاةً حملت منه، هه، خطرت هذه الأشياء في بالي، لم أستطع تصور ابني يمتطي عشيقةً، فهذا غير ممكن، فأنا لم أره أبداً يدور حول فتاة، حتى أنني كنت أتساءل عما إذا كان متأخراً من الناحية الجنسية، ولكن يجب على المرء ألا يجزم بأي شيء، يجب عليك ألا تعتقد بأن ولداً هادئاً ليس قادراً على فعل الأسوأ، ثم قلت في نفسي إن من قلة احترامه لي أن يقوم بترهاته في المنزل، أترى المشكلة أيها القدح المشعور، ثم وأنا أتصور حجم هذا الواقي الضخم الشبيه بصور اللوحات السريالية، بدأت تستحوذ عليَّ أفكارٌ غريبةٌ منعتني من النوم في الليل، قلت في نفسي ربما يكون أحدٌ غيره قد ولج المنزل، ولِمَ لا يكون عشيق "سيلين"، ولِمَ لا يكون هذا العشيق هو الأفريقي "فردينان" الذي حدثني ابني عنه، وسيطر عليَّ غضبٌ شديد إذ رأيت كل شيء ينهار على قدميَّ والسعادة تفر مني فجأةً، ولم أفهم أن شيطاناً جاء يثير الاضطراب في فردوسي، كنت قادراً على كل شيء وفكرت بقتله بالسكين أو مفك البراغي أو بلطة أو مطرقة، ولم أعد أنظر إلى "سيلين" بنفس الطريقة، فبدت لي وسخةً قذرةً خسيسةً وتافهة، لا بد لي من قتلها مع عشيقها، ومما لا شك فيه أنها هي من أثارت

"فرديتان" إذ هزّت له مؤخرتها بطريقة داعرة، لا بد لي من أن أنصب كميناً لهما وأقتلهما معاً، وإن من السهل عليك أن تضبط امرأةً بيضاءَ تخونك مع رجلٍ زنجي، إذ يكفي أن تتحدث أمامها بالسوء عن أفريقيا والزنوج، يكفي أن تقول لها إن الزنوج يموتون جوعاً، وإنهم كسالى يشعلون حروباً إثنية ويتفاهمون بالسواطير ويعيشون في الأكواخ حتى تميط القناع عن وجهها، لكنني قلت في نفسي إنه ليس من المفيد أن أتناقش معها، ففي هذه الحالة سأبدو عنصرياً مهما تكن مسوغاتي، بيد أنني لا أملك أي دليل على ذلك، فتركت الحادثة تمر هكذا، وعادت الحياة إلى مجاريها، وغضبت من نفسي لأنني كنت ذهانياً لهذه الدرجة، ومع ذلك لم أستطع تفسير وجود واقٍ ذكريٍ في منزلي، وكما أن الله لا يغمض كلتا عينيه عندما ينام، اكتشفت بعد بضعة أسابيع من عودة الهدوء الكاذب إلى المنزل واقياً كبيراً من ماركة "مانيكس" يعوم في كرسي الحمام ذلك أن المشكلة مع الواقيات أننا نعتقد أننا أرسلناها مع مياه المجاري عندما نسحب زلاجة الماء في حين أنها تعود لتطفو بعد ذلك، فقلت في نفسي إنني لن أدع الأمر يمر هكذا هذه المرة فأنا لست مغفلاً ولن أعطي لهما الإشارة الضوئية الخضراء كي يستمرا، ولن أتنازل عن مركزي للأفارقة كي يأتوا ليحرثوا زوجتي في سريري، قررت أن أنتقل إلى الفعل المباشر مع احتمال التضحية بكل شيء، وعليه سوف أقوم بالتحقيق مثل رجل المخابرات الحقيقي، ولن أسمح لواقي "مانيكس" أن يدمر حياتي، لقد توجب عليَّ أن أقوم بالتحقيق إذن لأفهم ما يتم في منزلي أثناء غيابي، هذا ما قلته في نفسي، وذات يوم، وكان يوم

اثنين، اثنين قاتم، قلت إلى "سيلين" إنني ذاهب إلى العمل، وإنني سأعود في الليل متأخراً جداً بسبب مجلةٍ لا بد من طباعتها خلال أربعٍ وعشرين ساعة، فشربتْ قصتي كوني لم أكن قد كذبت عليها مطلقاً، مطلقاً تماماً، فقد كنت دائماً صريحاً معها، وخرجتُ، أخذتُ سيارتي وتجولتُ في مركز المدينة حيث شربتُ فنجاناً من القهوة المرة ودخَّنتُ بكثرة، ثم اتصلتُ بمكان عملي، وتذرَّعتُ بأنني سآخذ يوم إجازة لشأنٍ عائلي خطير، ورحتُ أشرب القهوة كما لو أنها ماء، حتى أنني شربتُ نصف زجاجة من "الجن" لأنني أريد أن أكون في عالم آخر لحظة مباغتة "سيلين" مع "فردينان" الذي تجرأ على أن يأتي ليعكر صفو سكرتي في هذا البار الصغير، ومرَّ فيلم حياتنا في مخيلتي، فاستعدتُ صورة "سيلين" أثناء لقائنا الأول في بار "تيميس"، رأيتها تنضح بالعرق وتقبلني، واستعدتُ صورتنا ونحن نمارس الجنس على سجادة "الموكيت"، وسمعتها وهي تتأوَّه من النشوة، وفجأةً ضربتُ بيدي على مقود السيارة غاضباً فانطلق بوق السيارة، وقلتُ في نفسي وأنا أعض شفتي السفلى "ألا تتأوَّه "سيلين" من النشوة مع "فردينان" أيضاً بينما يمارسان الجنس، هه"، وقلت في نفسي أيضاً "في الحقيقة أنني مغفلٌ مسكين، فقد اعتقدتُ حتى ذلك الوقت أنني الوحيد الذي كان بإمكانه أن يرفعها إلى السماء السابعة، وأنني الوحيد الذي يستطيع أن يجعلها تتأوَّه بهذه الطريقة، واليوم يغلبني ابن عمي الزنجي الوغد، وربما يكون ابن عمي الزنجي الوغد أقوى مني فيستطيع أن يقذفها إلى السماء الثامنة، بل إلى التاسعة، وهذا ما سوف أراه في ذلك المساء"، ووصلتُ إلى حارتنا وكل هذه الأفكار

السوداء تدور في رأسي، ركنتُ السيارة قبل منزلنا ببضعة منازل، ابتهلتُ إلى ربي بضعَ ثوان، كانت الساعة تقارب السادسة، مشيتُ لبضع دقائق، حتى أصبحتُ على مسافة خطواتٍ قليلة من المنزل الأخضر، مررتُ من الفناء الخلفي، وبما أنني شربت كثيراً فقد دخلت بخطوات متثاقلة حتى وصلت بصعوبة أمام غرفة نومنا، كنت أخرقَ، ولكن لا أهمية لذلك، تقدمتُ فرأيت الباب شبه مفتوح، دفعته فلم أجد أحداً في الداخل، وحينذاك ذرعتُ الممر الرئيس الذي يعبر غرفة الطعام، ووصلت إلى غرفة ابني البكر وراح قلبي ينبض بقوة، فأنا أريد أن أعرف الحقيقة من جهة، ومن جهة أخرى كنت خائفاً مما سأكتشفه، وسمعت ضحكاتٍ وطقطقةَ أثاثٍ داخل الغرفة ثم صريرَ السرير ثم تأوُّهاتٍ وضرباتِ سوطٍ عنيفة، واندفعت بقوة فانفتح الباب كما يحصل في أفلام "كولومبو وميجريه"، وهنا لا يمكنك أن تصدقني أيها القدح المشعور، رأيت "سيلين" وابني في السرير متشابكين، وكانت "سيلين" تمتطيه وفي يدها كرباج، كان العرق يرشح منهما والشراشف مرمية على الأرض، فصرخت فجأة مثل طيرٍ مجنون، يااااااااااااه، لم أعد أعرف ما أفعل، كنت أرتجف واقفاً وأرى العالم ينهار تحت قدمي، ثم وثبتُ على ابني وثبّتُّهُ على الأرض كي أخنقه لكنه قلبني وضربني لكمة على بطني حاولت أن أنهض فهبّت "سيلين" التي كانت تصرخ إلى نجدته، ودفعا بي إلى الجدار، وكنت ثملاً جداً بحيث أعجز أن أقاتل خصمين وحّدهما التواطؤ ما بين الرغبة والزنى، وراح ابني يجلدني بالكرباج الذي كانا يستخدمانه في ترهاتهما، ثم يلكمني بقبضته على بطني

وجمجمتي وفي كل مكان، أعترف لك أيها القدح المشعور أنه قد أغمي عليَّ، واستدعيا الشرطة، وقالا للشرطة إنني أصبحت مجنوناً، وكانت ابنتاي اللتان تلعبان في الفناء الخلفي تبكيان، وأقسم لك أيها القدح المشعور أنني لم أفهم أي شيء عندما استيقظت في اليوم التالي، فقد وجدت نفسي في مستشفى المجانين، وهو مأوى، نعم، مأوى يمر الوقت فيه ببطء شديد، حيث يحيط بنا ليل نهار عاملون يلبسون بلوزات بيضاء، كانوا يجولون بي في كرسي متحرك مثل رجل أستراليا القديم، وقد حلقوا رأسي بعد أن قيَّدوني خوفاً من أن أكسر كل شيء، وكان المجانين الآخرون يستهزئون بي قائلين "تعالوا يا شباب لنسمع قصة هذا المجنون، تعالوا لرؤية هذا الشخص الذي يصرخ طوال النهار والذي يعتقد أن ابنه قد ضاجع زوجته، هه هه هه، إنه مجنون حقاً"، ووضعوني في عنبر المجانين الخطيرين الذين يمضون نهاراتهم بالصراخ، ورحت أصرخ أنا أيضاً لأنك إن لم تصرخ في هذا العنبر فسوف يوسعك المجانين الخطيرون ضرباً، وشرحت لهم أنني لست مجنوناً وأن ابني البكر كان يحرث زوجتي، وأنه وطأ البلاد الواطئة التي وطأتها نفسها، وبأنني فاجأت ابني وزوجتي عاريين، عاريين مثل دودة الأرض، أحدهما فوق الآخر، وأنه كان معهما كرباج، وأن زوجتي هي من كانت تحمل الكرباج مثل من يعلّم الفلسفة في صالون صغير، وأنني سمعت ضحكات تنطلق من جميع الجهات، وفي هذه اللحظة جاءت عاملة زنجية ترتدي بلوزة بيضاء لتعطيني كوبَ ماءٍ قلبتُه برأسي مما دفع الكرسي المتحرك حتى صدر القاعة الرئيسة، فجاء رئيس الأطباء راكضاً وخلفه نصف

دزينـة مـن المرضـين، وسمعت رئـيس الأطبـاء يـأمر مـن أعلـى شـهادة دكتوراه الدولة في الطب العقلي، "أوثقوه جيداً، لقد قلت لكم بألا تتركوه لحظة واحدة، لا بد من أن نضاعف جرعة الدواء، أعطوه حقنةً كي يهدأ نهائياً، اللعنة"، حقنوني إبرةً كي أنام لأنهم كانوا يعتبرون أنني أهذي، وأنني أكرر القصة نفسها دوماً، وأنني اختلقت قصة الجماع هذه بين ابني وزوجتي، وراحت "سيلين" تشرح لأيٍ كانَ أنني فقدت عقلي منذ مدة طويلة، وأنني كنت سكيراً مدمناً، وأنني كنت أضرب ابني، وقد وافقها ابني على مزاعمها، لقد أُمرَ لي إذن بحقنة لأنني كنت أهذر، وأعتقد أنني نمت طويلاً، وعندما استيقظت لم أتذكر أي شيء، كنت أعتقد حقاً أنني وصلت إلى السماء ذلك أنني كنت أرى الغيوم في كل مكان من حولي، كما كنت أرى فراشاتٍ من ألف لونٍ ولون تحوم على ارتفاعٍ منخفض، فطلبت حينذاك أن أرى الله بشخصه وليس عبر ملائكته، وقلت إنني لن أتكلم إلا بحضور الأب الرب وإنني لا أبالي بملائكته وأتباعه السماويين الآخرين، فنظروا إليَّ بعيونٍ جاحظة وطلبوا مني أن أهدأ، وقالوا لي بأن الأب الرب بذاته سيستقبلني في الحال، وإنني وصلت إلى فردوس النعيم، ورأيت أمامي زنجياً طويلاً مثل تماثيل الفنان "عثمان سو"، كان عجوزاً قليلاً، ومرتدياً بلوزةً بيضاءَ، أقبل نحوي بطريقة مهيبة مثل من يريد إقامة الصلاة، وقدم نفسه على أنه الله كليُّ القدرة، قفزت مستنكراً، وقلت إن هذه مهانةٌ كبيرةٌ وهرطقةُ لا تُغفر، وقلت إن هذا الشخص ليس الله، وقلت إن الله ليس زنجياً، ونظروا إليَّ بعيون جاحظة أيضاً، وجاؤوا برجلٍ ثانٍ يرتدي بلوزة بيضاء أيضاً،

كان بطول الأول مع شعرٍ أشيبَ ولحيةٍ كثيفةٍ وعينين زرقاوين وبشرةٍ ناصعة البياض، فشعرت بقشعريرةٍ ورعبٍ كما لو أنني أصبحت مسكوناً بالروح القدس، ورحت أتكلم كما لو أنني أتوجه إلى الله شخصياً، وبعد اعترافي خمد صوتي فجأةً، ولم تعد تخرج أي كلمة، لقد أصبحت مجنوناً حقاً، أعترف لك بذلك، فلم أعد أتكلم، وأصبحت أرى الشخص شخصين، وتكون لدي انطباعٌ بوجود ضجيجٍ دائمٍ حولي، وأن الناس يكلمونني بصوت قوي، ولم تأتِ زوجتي لزيارتي، ولا ابني، ولم أعد أعرف زملاء العمل الذين كانوا يزورونني حاملين طاقاتٍ من الورد مع آخر عددٍ من مجلة "باري ماتش"، كنت أشتمهم بحيث لم يعد يزورني أي منهم بعد شهر من ذلك، وطلبت زوجتي الطلاق حسب نصيحة محامٍ أفريقي ولد في بلدنا، ولم تجد من يدافع عنها أفضل من شخصٍ من بلدي، شخصٍ ولد في هذه الحارة، أقول لك ذلك وأنا واثق من أن هذا المحامي الخرا قد فعل الترهات في سرير "سيلين"، ذلك أنها إذا وجدت زنجياً أمامها تريد أن تقضمه في الحال، أقسم لك أنها تعرف كيف تمارس الحب مع الزنجي دون أن تتعب، وحصلتْ على الطلاق، ويبدو أن القانون كان صريحاً من هذه الناحية، سوف لا يفرضون عليها مختلاً خطيراً وزوجاً مخبولاً حسب المادة والبند اللتين لا أعرف رقمهما من القانون المدني لعام ١٨٠٤، وبالتالي فقد عهد إليها بالاحتفاظ بالأطفال، وحصلتْ على قرارٍ بطردي من البلاد على غرار والديَّ اللذين رغبا هما أيضاً في أن أطرد من بلدي عندما اطّلعا على قضيتي الغامضة، ولم أعد أتكلم في الأشهر التي سبقت عودتي ها هنا، والحقيقة أنني لم أعد إلى رشدي

إلا عندما هبطت الطائرة في أرض المطار، عندما رأيت جميع أقاربي، ونظراتهم مليئة بالحزن، والعار أيضاً، كانوا يشعرون بالألم، صدقني، بدأت حينذاك أشرب كي أهرب من الأشباح التي تلاحقني، رفضت أن أعيش في منزل والدي، رفضت هذا الإذلال، ورحت أمشي ليل نهار، وها أنت ذا تراني هنا أحدبَ الظهر مثل رجلٍ عجوز، إنني أمشي بجانب البحر، وأتحدث مع الأشباح التي تطاردني، وبعد الظهر آتي ها هنا، فهل أدركتَ المشكلة، ولكن قل لي بوضوح أيها القدح المشعور، هل تعتقد من داخلك أنني مجنون ومعتوه، هل أحدثك مثلما يتحدث المجنون، قل لي الحقيقة، هه، عدني بأنك ستروي ما قلته لك في دفترك، وأنك لن تمزّق ما دونتَه من ملاحظات، أذكرّكُ أنك إن لم تكتب هذا فلن يساوي دفترك شيئاً، أيَّ شيء على الإطلاق، أتعلم أنني الأكثر أهميةً من بين الناس الذين يأتون ها هنا، هه، نعم أنا الأكثر أهميةً لأنني عشت في فرنسا، وليس بإمكان أي أحمق أن يعيش في فرنسا".

كل يوم كنت أباغت موظف المطبعة وهو يروي ما يسميه قصته المبهمة إلى شخص آخر، مع أنه جعلني أعتقد أنه رواها لي أنا فقط، غير أنني أعتقد بصدق أن قسماً من دماغه لا يعمل جيداً، وأن هناك فترات صفاء في العصر بصورة خاصة، لكنني أصدق بصورةٍ خاصةٍ أيضاً أنّ هذه القصة هي التي جعلته مجنوناً.

أحب أن أتكلم مع صاحب الدين المسافر، إذ يعلم الناس جميعاً أنه لم يتزوج، وبالتالي ليس لديه أبناء، وهو يعتقد أن الزواج يخلق الهموم، وأنه ليس من السهل أن يكون المرء متزوجاً، إذ يكون لديه الكثير من المتاعب والكثير من المشاكل، ولهذا السبب يقال إنه قد تزوج بار الدين المسافر مدى الحياة، زواجاً ما زال مستمراً منذ عدة سنوات، وإذا كان قد شوهد أحياناً يصعد مع امرأةٍ إلى الأعلى فهذا صحيح حقاً، بيد أنه غالباً ما يختار نساءً مكتنزات، فالنسوة النحيلات لا يجذبنه، إذن فقد شوهد أحياناً وهو يختلي بإحداهن ثم يعود إلى البار لاهثاً مبتسماً فيعلم الجميع أن *"الحلزون العنيد"* قد ضرب ضربته، ويبدي سخاءً مفرطاً فجأةً فيقدّم الشراب مجاناً لمن يطلبه، وقد رأيت أحياناً والديه العجوزين يأتيان من قريته الأصلية "نجولوبوندو"، إن *"الحلزون العنيد"* يشبه أباه تماماً، لكنه لم يحدثنا أبداً عن والديه، فهما لا يزالان على قيد الحياة، ومما لا شك فيه

أنهما عجوزان متعبان، وقد فضّلا أن ينعزلا في القرية بعد المشكلة التي تسبب فيها إنشاء البار، ويعتقد كلٌّ من يعيش بجوارهما أنهما يحبان ابنهما الوحيد، وأنهما فعلا كل ما بوسعهما كي يلتحق بالمدرسة، وكي يعمل فيما بعد في مكتبٍ أو عملٍ بدوامٍ كامل، لكنَّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، إذ قرر القدر قراراً آخر، بيد أنني لا أريد أن أقول إن *"الحلزون العنيد"* كان كسولاً في المدرسة مع أن وزير الزراعة الحالي "ألبير زو لوكيا" كان من زملائه في الدراسة، لا، لم يكن صاحب بار الدين المسافر كسولاً في المدرسة، بل على العكس من ذلك يقال بأنه ذكيٌّ، ذكيٌّ جداً، فقد كان يحب الإنشاء والجغرافيا والحساب و "البازار" كله، وما زال باستطاعته حتى الآن أن ينشد قصائد كاملة عن ظهر قلب، دون أن يتردد في أيّ كلمة، وهذا ما كان يغيظني، فكثيراً ما كنت أحاول استظهار بعض القصائد لكنني لم أكن لأصل إلى أن أتذكر أكثر من مقطعين، وصاحب البار يحب كثيراً قصيدة "موت الذئب" للشاعر "ألفريد دو فيني"، فهو يلقي هذه القصيدة باستمرار، فتغرورق عينيَّ بالدموع عندما ينشد البيتين الأخيرين، كما لو أن "ألفريد دوفيني" قد كتب هذه الكلمات من أجله سلفاً، فلا أجمل من أن تسمع *"الحلزون العنيد"* وهو يقول *"إن من الجبن ان تئنَّ وتبكي وتتوسّل، قم بجدارة بمهمتك الصعبة الثقيلة، أينما ناداك القدر للقيام بها، ثم بعد ذلك عليك ان تتألم وتموت بصمت مثلي"*، وهو فخور بأن يذكر أنه حصل على الشهادة الثانوية من أول دورة، وأنه كان بإمكانه أن يتابع دراسته، ولكن هيهات، فقد ترك الدراسة دون أن

يُخْطِرَ والديه، وقد كانت "الموضة" الدارجة في ذلك الوقت أن يبحث المرء عن مستقبله خارج البلاد، كانت تلك الفترة فترة فقرٍ شديد، وكان المتنفذون يوظفون آباءهم حتى لو كانوا عاجزين، وراح *"الحلزون العنيد"* يجوب أنحاء أنغولا والغابون وتشاد ذلك أنه أراد أن يصبح رجل أعمال، وأخيراً دفعه السفر إلى الكاميرون أن يفتتح باره مع كل التداعيات التي ذكرتها في بداية هذا الدفتر، غير أنني لن أعود لذلك، لأنني، ولو كنت ثملاً، فأنا أخاف من التكرار العبثي ومن الإسهاب الذي يشتهر به بعض الكتاب الثرثارين الذين يبيعونك نفس الحساء الموجود في جميع مؤلفاتهم فيوهمونك بأنهم يخلقون عالماً كاملاً، يا عيني.

"وأنت أيها القدح المشعور، هل تسير أمورك على ما يرام"، سألني *"الحلزون العنيد"* قبل بضعة أيام، فأجبته "نعم، قد تسير كذلك"، فقال جاداً "أيها القدح المشعور أعتقد أنك بحاجة إلى الحنان، عليك أن تجد صديقةً لتضرب ضرباً من وقت لآخر، فهذا يريحك، هذا يريحك حقاً"، فأجبته "لا أرى فائدةً من ذلك في مثل هذا العمر"، "أقول لك إن عليك أن تبدأ حياتك من جديد، ولا دخل للعمر في ذلك"، "لا، فمن تلك التي تقبل مستحاثةً مثلي، أعتقد أنك تمزح أيها الحلزون"، "آه، لا، أنا لا أمزح، أنا جاد، ما رأيك بـ "روبينيت"[1] ها، إنها جميلة"، "يا إلهي، إلا "روبينيت" إنها ضخمة جداً بالنسبة لي ولا أستطيع أن أهضمها" أجبته ضاحكاً، وضحكنا

١- أرى من المناسب أن أنوه إلى أن اسم "Robinette" قد يعني بالعربية "حنفية" ذلك أنه صيغ على صورة مؤنث كلمة Robinet التي تعني "صنبور المياه"، وقد ذكرت هذه الملاحظة نظراً لعلاقة هذا الاسم بشخصية من تحمله (المترجم).

نحن الاثنان، وتذكرت آخر مرة ظهرت فيها "روبينيت" في بار الدين المسافر، هذه المرأة الحديدية التي يريد صاحب البار أن يربطني بصداقتها، وأعتقد أنه يمزح لأن "روبينيت" تشرب أكثر مني، تشرب ملء البراميل التي يبيعها اللبنانيون في السوق الكبيرة، تشرب وتشرب دون أن تسكر، وعندما تشرب هكذا تذهب لتبول خلف البار بدلاً من أن تذهب إلى المرحاض كالآخرين، وعندما تبول خلف البار تمضي عشر دقائق على الأقل وهي تبول بلا انقطاع، ينهمر البول وينهمر مثل سبيلٍ جارٍ، هذه ليست كذبة، صحيحٌ أنها لا تُصدَّق لكنها حقيقة، وجميع الشبان الذين حاولوا مباراتها في البول لمدة مفتوحة قد هُزموا وسُحقوا واستهزئ بهم وتلطّخت كرامتهم بالوحل

آخر مرةٍ مرَّت من هنا، أثارت "روبينيت" رجلاً جاء إلى بار الدين المسافر لأول مرة، إذ بدأت "روبينيت" هجوماً مفاجئاً على غرار الضربة غير المرئية التي سددها "محمد علي" إلى "سوني لستون" في سنوات الستينات كي يحتفظ بلقبه بطلاً للعالم، قالت له "هيه، أنت الذي تتبختر مثل الديك في الباحة، إذا استطعتَ أن تبول لمدة أطول مني، سأسمح لك أن تركبني متى شئت وأين شئت، دون أن تدفع أي شيء، هذه كلمة شرف"، فأجابها قائلاً "أيتها المتبجحة أنت لا تعلمين مع من تتعاملين، سأقبل تحديك يا "روبينيت" ذلك أنني أرغب في أن أركبك، فأنا أحب المؤخرات الكبيرة والأثداء المكتنزة"، وضحك الجميع لأن هذا الشخص متبجحٌ من الدرجة الأولى وهو لا يعلم أين وقع، فلو سمع عن هذه المرأة لما تجرَّأ على أن

يتفوه بمثل هذه العبارات المتهوِّرة، ونحن كنا هناك مسرورين جداً، نتصور سلفاً جثة هذا الرجل مطروحةً أرضاً، لنقل أن "روبينيت" كانت غاضبة جداً من كلام هذا المتطفل، فهي لا تُهزَم، وهي ملكة البول في هذه المدينة، بل في هذه المنطقة، فأجابته "أنت مجنون أم ماذا أيها الرجل، اربح معركتك أولاً قبل أن تنعتني بالبدينة، أنت تتكلم عن كل شيء فلا تقول أي شيء، لن تستطيع أن تغلبني أنت"، أجابها "بلى، أستطيع أن أغلبك أيتها البدينة"، فأجابته "لا، أيها المتبجح المسكين الصغير، لا بد أنك مجنون كي تقيس نفسك بي، اسأل هؤلاء الرجال الموجودين حولنا فسيقولون لك من أنا"، قال لها "لست متبجحاً يا حلوتي، فأنا دوماً أنفّذُ ما أقول"، فقالت "روبينيت" "بل أنت متبجحٌ حقاً، فهل بمجرَّد كلامك هذا تعتقد أنك قادر على فعل أي شيء، أقول لك إنك غير قادر"، وأنا كنت أنظر لكل ذلك من بعيد، فأعتقد أن هذه طرفة، وأن كلاً منهما يعرف الآخر، وأنهما يمثّلان علينا مشهداً من كوميديا "*زوج وثلاثة خُطّاب*"، فقلت في نفسي إن كلاً منهما يعرف الآخر مثلما يعرف لصوص هذه المدينة بعضهم بعضاً، لكنها لم تكن كوميديا، وكان هذا الشخص المتبجح يمثّل دوره بشجاعة فيقدِّم نفسه على أنه لا يُقهَر، غيرَ عالمٍ بما ينتظره عند منعطف النهر، كان يرتدي ثياباً جميلة كما لو أنه شخصيةٌ معتبرة، بصدرته السوداء وقميصه الأبيض وربطة العنق الحمراء والحذاء اللامع، ولا بد أنه ينظر إلينا على أننا صعاليك وقوادون مثل فلاّحي جميع البلدان الذين لا يدركون ضرورة وحدتهم، ولا نعلم كيف كان

شعره المنسدل والمسحوب إلى الخلف يلمع في هذا الصيف الجاف حيث كان ضوء شهر أغسطس/آب يعبر الغيوم بصعوبة، لكن المتأنقين لا يحصرون تأنقهم في فترة محددة، فهم يظلون متأنقين حتى أثناء الصيف الجاف، كان شعره لامعاً جداً بحيث يمكننا أن نقول إنه قد يلمع حتى في سواد الليل الدامس، فلا بد أنه أمضى ساعاتٍ كاملةً أمام المرآة وبيده "السيشوار" الساخن، كما أن شعره المنسدل يجعله قريباً من العِرق الأبيض في هذا البلد حيث يُعْتَبَرُ الشعر القصير الأجعد لعنةً كبيرةً، ثم إنه كان يدخن كثيراً على طريقة الكبار، وقد أراد أن يقدِّم نفسه فقال "اسمي "كازيمير"، أقول ذلك لمن لا يعلم، ولا شيء بإمكانه أن يوقفني، فأنا معروف في كل مكان، واعلموا أنني أعيش حياة الكبار، وإذا ما توقفت هنا فلكي أتناول شيئاً من الطعام والشراب، هذا كل ما في الأمر، فأنا لست سكِّيراً مثلكم، بل أبحث عن الحياة العظيمة"، فقلت في نفسي "اللعنة، من هو هذا الرجل الذي يتحدث بهذه الطريقة، فهل يعرف في أي "فيتنام" سوف يتورَّط"، وبدأنا نشعر بعدم التعاطف مع "كازيمير" هذا الذي يزعم أنه يعيش حياة الكبار وينعتنا بأننا سكارى، ولماذا لم يذهب ليتناول الطعام والشراب في مكان غير هذا المكان، عند الناس الآخرين الذين يعيشون حياة الكبار مثله، هه، لماذا جاء ليذكِّرنا أننا بؤساء ومشبوهون، لقد كانت "روبينيت" على حقٍ إذن عندما قالت عنه إنه يتكلم عن جميع المواضيع بيد أنه لا يقول شيئاً، وقلت في نفسي أيضاً إن هذا الرجل يستحق أن يتلقَّى صفعةً قويةً وأن يُلقَّن درساً لا ينساه، وقلت في نفسي أيضاً *"لقد تمت*

الأمور هكذا، وهذا حسن" ، وإلا فماذا جاء يفعل هنا بثيابه التي تشبه ثياب الكاتب بالعدل وحفار القبور و "مايسترو" الأوبرا ، هذه الموسيقى المزعجة التي يسمعها الناس الذين يعيشون حياة الكبار مثل "كازيمير" ، والتي يصفقون لها دون أن يفهموها ، ثم ما معنى الموسيقى إذا لم يستطع الناس أن يهزّوا أردافهم معها ، وإذا لم يستطيعوا أن يقولوا "هيَّا نرقص"، ما معنى الموسيقى إذا لم تعرق وتداعب تضاريس المرأة التي ترافقك كي تجعلها تفكر بالفعل الحتمي، فأنا عندما كنت أرقص، أعني عندما كنت لا أزال رجلاً مثل الرجال، كنت أحب أن أضع نفسي في حالة من يتكوّن لديه انطباعٌ بأنه قد صعد إلى الجنة ، ومن يرى الملائكة الهائمين يحملونه على أجنحتهم، لقد كنت راقصاً ممتازاً، كنت أعرف كيف أجعل الفارسة تترنّح بحيث ترتمي بين ذراعيَّ فتترك لي قرار كيفية إنهاء السهرة، لكنني لا أريد أن أتكلم الآن عن نفسي كي لا يقال إنني مصابٌ بجنون العظمة ، أو إنني رجل لا يفكر سوى بنصفه السفلي، لقد تواعدتْ "روبينيت" وهذا الشخص إذن على أن يخوضا حرب نهاية العالم خلف بار الدين المسافر ، وخلف بار الدين المسافر هناك نوعٌ من طريقٍ مسدودة مناسبة لكل أنواع الهجوم الالتفافي، وعادةً ما يأتي الناس خلف هذا البار ليقضوا حاجاتهم السديمية ، خلف هذا البار ذهب المتنافسان إذن ، أما نحن فقد تبعناهما كشهود عيان، كنا مجرَّد مشاهدين، وكنا ننتظر بفارغ الصبر أن يُهزَم "كازيمير" الذي يعيش عيشة الكبار، وأن يتعلم التواضع، ويعرف كيف يصمت أمام الناس، كنا جميعاً منحازون إلى "روبينيت" وكنا

نشجعها ونصفق لها، خلف بار الدين المسافر إذن، في هذا المكان الذي يفوح برائحة بول القط البري وروث الأبقار المجنونة، خلع "كازيمير" ميداليته وصدرته، ثم نزع ربطة العنق المنتفخة، وطوى ملابسه بعناية ووضعها في زاويةٍ ما على الأرض، ثم تَمَرْأَى بحذائه اللامع، وقد أثارتنا هذه الحركة المتأنقة الأخيرة، فمن يظن نفسه هذا الخرا، هه، ولماذا تَمَرْأَى طالما أن وجهه الشبيه بحبة التين المهروسة سوف يتعرض لصفعة قوية من "روبينيت" عندما ستمرغه في الوحل، لكنه تمرأى، ومرَّر يده على شعره السابل الذي كان يلمع تحت ضوء شهر أغسطس/آب الخافت، لم يحصل لنا أن رأينا شخصاً مدَّعياً مثله، خلعت "روبينيت" صدرتها ثم رفعت تنورتها إلى بداية خاصرتيها فرأينا مؤخرتها، هذين الردفين الممتلئين مثل ردفي صورة امرأةٍ من الفن "التاهيتي" الشعبي، ورأينا ساقيها الشبيهتين بزجاجتين من بيرة "بريموس"، لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً، ربما لأن أي سروال لا يتسع لجبال مؤخرتها، ثم تجشَّأت بحيث أثارت قرفنا، وقالت بصوتٍ عالٍ "بإذن الله ستتجلي الحقيقة تماماً وسنرى من سيكون المنتصر يا أصدقائي"، ثم رأينا هَنَاها عندما باعدت ما بين برجي ردفيها التوأمين، فصفَّق الجميع، وأستغرب أنني شعرت بتوتر كبير على غرار الشهود الآخرين، يجب أن أكون صادقاً وألا أخفي الحقيقة، نعم شعرت بتوتر كبير لأن مؤخرة أي امرأة تبقى مؤخرة امرأة سواءٌ أكانت صغيرةً أم كبيرةً، نحيلةً أم ممتلئةً، مخططةً أم مصبوغةً، وسواءٌ أكان عليها بقعٌ من نبيذ النخيل أم آثارٌ الجدري، إن مؤخرة أي امرأة تبقى مؤخرة امرأة إذن، لقد شعرنا

بالتوتر في البداية إذن قبل أن نقرر إذا ما كنا سنستمر أم لا، ورأينا أيضاً "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار يرفع بنطاله ويكشف عن ساقيه النحيلين، كان يرتدي سروالاً عتيقاً أحمرَ أنزله حتى كعبيه، فبان عضوه الدقيق، وكان من الصغر بحيث رحنا نقهقه ونتساءل كيف يمكن للبول أن ينساب فيه، ومع ذلك فقد عرض أمامنا إذن هذا العضو التافه الذي يغطيه شعرٌ مثل ثمارٍ جَفّتْ على الشجرة في فصل الصيف، ثم راح يفرك عضوه الدقيق ويحدُّثه بصوتٍ منخفضٍ مثلما يتحدث الساحر إلى الأفعى أمام السياح في السوق، لم يكن الأمر سهلاً عليه أمام كل هؤلاء الشهود المنحازين إلى "روبينيت" والذين كانوا لا يكفون عن السخرية منه، لم يكن الأمر سهلاً أمام كل هؤلاء الشهود الذين كانوا يريكونه بكل السبل بسبب عضوه المضحك، لكنه كان يستمر في التركيز ويتصرف كما لو أننا غير موجودين، كان يدرك أنه وحيدٌ في معسكره وأن الآخرين منحازون جميعاً إلى "روبينيت"، لم يكن لذلك أي تأثيرٍ فيه، وبعيداً عن ذلك أظهر هذا الشخص ثقةً عاليةً في النفس وراح يتجاهل خصمه ويقوم بالإحماء على غرار رجل يحترف هذا النوع من التحدي، هزَّ عضوه الدقيق، مطّه، وحرَّكه حركة دائرية بغية تحفيز البول على الخروج، لقد انطلق الرهان إذن وبدأ التحدي حقاً، فباعدت "روبينيت" ساقيها الشبيهتين بقائمتي الفيل وبانت كلُّ بلادها الواطئة أمام أعيننا تماماً، ورأينا حبة البازلاء تبرز خارجاً، واقترينا في الحال عندما أطلقت عواء ضبعٍ[1] تلد، وكادت

١- الضبع في العربية أنثى والذكر منها ضِبعان (المترجم).

تغرقنا بسائلها الأصفر الذي يتصاعد البخار منه وينبجس مثلما ينبجس الماء من قِرْبَةٍ مثقوبة، فتراجعنا إلى الخلف بينما كان في الجانب الآخر "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار يخرج ما بمثانته، لكن بول "روبينيت" كان أكثر غزارةً وسخونةً وهيبةً في تدفقه لا سيما أنه كان يسقط بعيداً في حين كان بول منافسها المتبجح يخرج رشقاتٍ صغيرة مثل بول صغير الكنغر أو ضفدعٍ يزعم أنه بحجم الثور، أو غرابٍ يريد أن يقلد النسر، كان البول يتقطع ويترنح ويخط على الأرض كتابةً هيروغليفية يعجز عن فك رموزها "شامبوليون" الذي كان يرغب على ما يبدو في أن يصمَّ آذاننا في الحديث عن رسوم الفراعنة والمومياء الشبيهة برسوم أطفال الحضانة، وراح هذا البول غير المنتظم يتساقط على مسافة سنتيمترات قليلة من قدميه، وهذا ما أثلج صدر "روبينيت" التي لم تستطع إلا أن تقول له "بُلْ، بُلْ إذن أيها التافه، أهكذا يحق لك أن تركبني أيها التافه"، وراح كلٌّ منهما يبول على طريقته، انقضت دقيقتان لكن الخصمين ظلاّ مصممين على الاستمرار، وعلى الرغم من بوله المتقطع ظلَّ "كازيمير" صامداً، في حين أنني لو كنت محله لكنت انتهيت من البول وأعدت عضوي الصغير هو أيضاً إلى مخبئه، لكن هذا الرجل العنيد ما زال يشرع سلاحه منذ أكثر من خمس دقائق وهو مغمض العينين ورأسه مرفوع إلى السماء مثل رجل يدندن منتشياً بتراتيل دينية، كان غير قابل للإرباك فقد صمَّ أذنيه عن سخرياتنا وعن تحريض "روبينيت" له، وقد سارعت من تدفق بولها تدريجياً وقالت

له "انفجر، انفجر أيها التافه، سوف تنفجر، أنت لا تعرف كيف تبول، انفجر، ما زال لدي لترات في خزّاني، أنا أحذرك فانتبه، يمكنك أن تتوقف إذا كنت لا ترغب في أن تصبح هزواً أمام هؤلاء الناس، توقف الآن وقل وداعاً وشكراً"، هكذا قالت "روبينيت" فأجابها الرجل "اخرسي واستمري في البول أيتها الدجاجة البدينة، السادة الحقيقيون لا يتكلمون، فلماذا أودع وأشكر، لن يحصل لك هذا، لن يحصل هذا في حياتي أبداً، ستنفجرين أنتِ يا "روبينيت" وسوف أركبك"، وضغط على خصيتيه المغطاتين بالشعر فازداد تدفق البول، ورحنا نحملق بأعيننا لأن هذا الشخص المتبجح أصبح الآن يبول بمزيد من الثبات، ورأينا أن عضوه الصغير قد تضاعف ضعفين بل ثلاثة أضعاف لدرجة أننا فركنا أعيننا دلالةً على عدم تصديق ما نرى، وفجأةً تدلت خصيتاه المنتفختان مثل قربتين عتيقتين مليئتين بنبيذ النخيل، وراح يبول مبتهجاً ويصفر بنشيدٍ يعرفه أوباش حارة "ترواسان"، وذلك كي يجذب الانتباه إليه، وخلال هذا الوقت كانت "روبينيت" تنكبُّ على عملها حتى أصابها الإجهاد فضرطت مراراً وتكراراً بحيث اضطررنا لأن نغلق آذاننا وأنوفنا لأن الرائحة كانت قوية والصوت كان يفرقع مثل الألعاب النارية التي نسمعها في عيد القربان المقدس، كان ضراطها يفوح برائحة "النفتالين" المهرَّب إلى نيجيريا، وفي بعض اللحظات كان الصوت يشبه صوت الأبواق في عيد "نيوأورليان"، وبينما كنا نركز أنظارنا على مؤخرة "روبينيت" الشبيهة بمؤخرة الفيل، أعلمنا

شاهدٌ من الجانب الآخر أن "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار ينجز الجولة الحاسمة، ويظهر معجزةً تستحق المباركة البابوية، فاندفعنا جميعنا لنراها عن كثب، إذ يجب ألا نفوِّت فرصة رؤية المعجزات، ويجب أن نكون شهوداً على ما سيظل يروى لعدة قرون لاحقة، وأن نكون شهوداً على ذلك أفضل من أن نصغي إلى ببغاواتٍ تروي لنا قصة حب في زمن الكوليرا، إذن فقد تقدمنا بسرعة نحو "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار كي نرى معجزته التاريخية فذهلنا، ذلك أن أحداً لن يصدق ذلك إلا إذا رآه بأم عينه، فقد لاحظنا أن "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار قد رسم ببوله خارطة فرنسا، وقد تركَّز بوله في قلب مدينة باريس، "أنتم لم تروا شيئاً حتى الآن إذ يمكنني أن أرسم خارطة الصين أيضاً وأبول في شارعٍ معيَّن من مدينة بكين"، أما "روبينيت" فلم تعد تفهم أي شيء بل استدارت وألقت نظرةً علينا قائلةً "عودوا إليَّ، أقول لكم عودوا إليَّ، إلامَ تنظرون هناك، أنتم قوادون أم ماذا"، لكننا كنا مأسورين بالمتنافس المتبجح الذي رحنا نصفق له حتى أننا أطلقنا عليه فجأةً لقب "كازيمير الجغرافي"، كان هذا الشخص يستمتع بهذا التحدي، "أنا عدَّاءُ ماراتون ولست عدَّاءَ مسافاتٍ قصيرة ينطلق بسرعةٍ ثم سرعان ما يهدأ، سوف أغلبها وأركبها، ثقوا بي"، ثم راح يصفر بالنشيد الذي يعرفه رعاع حارة "ترواسان"، ورحنا نصفق له بصورة متزايدة بينما كانت خارطة فرنسا تكبر بجميع أقاليمها، وكان هناك رسمٌ صغيرٌ إلى جانب هذا الخارطة الرائعة، فسأل أحد الشهود المفتونين

بفن "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار "قل لي، ما هو هذا الرسم الصغير إلى جانب خارطة فرنسا، هه"، فأجابه الفنان دون أن يتوقف عن التبول "إنها جزيرة "كورسيكا" أيها الأحمق"، فصفقنا إلى "كورسيكا"، ولو أن البعض قد اكتشفوا اسمها لأول مرة، وازداد الهمس والجدل، ثم سأل أحدهم عن اسم رئيس "كورسيكا" وعن طبيعة هذه الدولة واسم عاصمتها وهل رئيسها أبيض أم أسود فزجرناه قائلين "اصمت أيها الأحمق، أيها البليد"، ومضت أكثر من عشر دقائق والخصمان يتنافسان في سكب البول حتى أن الرغبة في التبول تملكتني أنا أيضاً، ذلك أنه حين يتبول أحدٌ ما فإنه يبعث فيك الرغبة في التبول أنت أيضاً، ولذلك فإن الطبيب في المستشفى يأمر بفتح صنبور المياه كي يحرِّض المريض على التبول، وفي تلك الأثناء فإن شاهداً لم يرفع نظره عن كفل "روبينيت" أخرج شيئه من بنطاله وراح يلامسه بعصبية حتى سمعناه يتأوَّه من النشوة خلفنا مثل خنزيرٍ قُطع رأسُه في عيد القربان، وظل المتنافسان يبولان وهما يركزان ويثابران بقوة، "إذا تمت الأمور على هذا النحو فسوف أتوقف، لا أستطيع أن أعمل في شروط كهذه، إذن سأتوقف، من تعتبروني، هه، أتروني أزعج الناس أثناء قيامهم بعملهم، هه، أقول لكم إنني سأتوقف، العرض انتهى"، استدار الجميع ليروا أن "روبينيت" هي من قالت هذا الكلام، وفي الحقيقة أنها قد توقفت عن التبول وزعمت أننا لم نسمح لها بالتركيز عبر تصرفاتنا الطفلية، لكنها كانت على درجة من اللباقة والروح الرياضية بحيث تقدمت من "كازيمير"

ولامست شيئه لمسةً حنونةً ثم قالت "حسناً يا صديقي، لقد فزتَ اليوم، أنت لاعبُ بولٍ ماهر، والآن سوف نرى إن كنت تستطيع أن تقذف بقدر ما تبول، قل لي متى وأين وسوف أكون لك"، وصفّقنا لأننا رأيناها تنهزم على هذا النحو للمرة الأولى ثم تطلبُ وقفاً لإطلاق النار بصورة غير مباشرة، حينذاك ضربت "روبينيت" و "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار موعداً في غرفةٍ يستأجرها المسافرون قرب "ساحة الأعياد" في حارة "ترواسان"، وقد استأنا من هذا الموعد الذي لن يستطيع الشهود أن يحضروه لأننا كنا نتمنى لو فعل هذا أمامنا هنا، وعدنا إلى البار خائبين قليلاً بينما انطلقت "روبينيت" و "كازيمير" الذي لا يُقهر والذي يعيش حياة الكبار في سيارة أجرة باتجاه الغرفة المخصصة لإيجار المسافرين، ولم يدرِ أحدٌ ما حصل بينهما، وبعد هذا التحدي لم نرَ "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار، أما "روبينيت" فكانت تأتي ها هنا من وقتٍ لآخر، لكنها لم تروِ لنا أي شيء مما حصل، وبرأيي أنها قد هُزمت على السرير أيضاً ولم تكن بالمستوى المطلوب، وإلا لكانت قد صمّت آذاننا وهي تروي لنا كيف هَزمت "كازيمير" المتبجح الذي يعيش حياة الكبار.

حقيقة الأمر أن فكرة ممارسة الجنس مع "روبينيت" كانت تروقني مع ذلك، إذ أنني لم أطلق أي طلقة منذ مدة طويلة، وأنني قد أكتفي بالحصرم عندما لا أطال العنب، ولا أعلم إن كنت أستطيع أن أذهب إلى النهاية معها، إذ أن امرأة مثل "روبينيت"

تستوجب نشوةً مدوِّية مما يعني أنها تحتاج فترة جماعٍ طويلة قبل أن تنتشي، وإذا ما رفضتُ العرض الفاحش الذي اقترحه عليٌّ *الحلزون العنيد*، فذلك رغماً عني، وربما لأنني لا أريد أن أعتدي على اختصاص رب العمل، وسوف أتضايق إذا كنت فوق هذه المرأة وتصورتُ أن *الحلزون العنيد* يرتعش في الأعلى مثل أرنب مذعور، ومن جهة أخرى فقد يغار *الحلزون العنيد* مني ولا أريد أن أفسد علاقتي معه، ولا أريد أن أعكر صفو العلاقة مع من هو بمثابة أخي، ولكن من جهة أخرى هل تقبل "روبينيت" أن أركبها، هه، لا بد لي من أكون واقعياً فأعترف أن عضوي صغير، ونظراً لأن مؤخرة "روبينيت" كبيرة الحجم فأنا واثق من أنني سأمضي يومي باحثاً عن النقطة "هـ" من بلادها الواطئة، فبالكاد أصل إلى النقطة "ب" ويبقى عليٌّ النقطة "جـ" والنقطة "د"، وبناء عليه لن تكون راضيةً قطعاً، سأتوقف عن التفكير، لأقل إنني بحاجة إلى شيء من الراحة في هذه المرحلة من كتابة دفتري، ولن أكتب أي كلمة أخرى لوقتٍ معيَّن، بل سأشرب، سأشرب فحسب، سأتناول جرعاتٍ تكون جرعاتي الأخيرة، وإذا كنت أتقن الحساب الذهني جيداً فسوف أرى أنني أمضيت عدة أسابيع أكتب بشق النفس، وهناك أناس يستهزئون مما يعتبرونه عملي الجديد، حتى أن هناك أناساً أشاعوا أنني أحضِّر امتحاناً لأنضم لسلك التعليم من جديد، ويزعمون أن هذا هو سبب رغبتي في ترك المشروب والإقلاع عن المجيء ها هنا، لكن هذه طرفة، فلن أعود لسلك التعليم وأنا في سن الرابعة والستين عاماً، والحقيقة أنني أريد أن أرتاح على كل

حال، وألا أكتب بعد الآن ولو سطراً واحداً، ولن أعاود قراءة ما كتبت، بيد أنني سوف أتابع فيما بعد، لا أدري متى، لكنني سأتابع، ولن أتشبَّث في تكريس كل طاقتي لذلك، وعندما أنهي الجزء الثاني سأذهب، سأذهب بعيداً، لا أدري أين، سأذهب ولا أبالي بما سيفكر *الحلزون العنيد*، لكنني سأكون قد أصبحت بعيداً، بعيداً عن بار الدين المسافر.

الأوراق الأخيرة

اليـوم يـومٌ آخـر، يـومٌ رمـادي، أحـاول ألا أكـون حزينـاً، كانت أمي المسكينة التي تحوم روحها فوق مياه نهر "تشينوكا" الرمادية تقول دائماً إنه ليس من المستحسن أن أستسلم لسوداوية الحياة، فقد تكون هناك حياةٌ مفرحةٌ تنتظرني في مكانٍ ما، وأنا أيضاً أريد أن ينتظرني أحدٌ ما في مكانٍ ما، ها أنا ذا جالسٌ في زاويتي منذ الساعة الخامسة فجراً، ألاحظ الوقائع وأترك مسافةً فاصلةً بيني وبينها، هكذا حصراً أستطيع أن أسرد تفاصيلها بصورة فُضلى، وها قد مضت أكثر من أربعة أو خمسة أيام على إنهاء الجزء الأول من دفتري، رحت أقرأ ما كتبت وأبتسم عند قراءة بعض الصفحات وأتساءل فيما إذا كان باستطاعتي أن أكون فخوراً بها، أعدت قراءة بعض السطور لكنني شعرت بإحباطٍ كبير، لا شيء يهزُّني بل كان كل شيء يغيظني، غير أنني لا أستطيع أن أتحامل على أي

شخصٍ كان، شعرت بأنني ضعيفٌ قليلاً، كان لساني دبقاً كما لو أنني أكلت بالأمس طبقاً من لحم الخنزير بالموز الأخضر، ومع ذلك فأنا لم أتناول شيئاً منذ البارحة بل استسلمت لمدٌ من الأفكار السوداء حتى أنني تساءلت فيما إذا كان عليَّ أن أسرع في كتابة وصيتي، على أنه لا يحق لي أن أتكلم عن وصيةٍ أكتبها، ذلك أنني لا أملك شيئاً أستطيع أن أورّثه عندما ألفظ أنفاسي، كل ذلك مجرد حلم، لكن الحلم يتيح لنا أن نرتبط من جديدٍ بهذه الحياة الغادرة، أنا ما زلت أحلم بالحياة طالما أنني عشتها كما لو كانت حلماً، لم أكن أبداً في مثل هذا القدر من الوضوح.

مضت الأيام بأسرع مما كنت أعتقد حينما كنت أعيشها جالساً بانتظار شيء ما لا أدري ما هو، وأنا ما زلت أشرب وأشرب حتى أصبحت ثملاً باستمرار فأرى الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس مع أنني لم أصدق مطلقاً تلك النظريات التافهة التي كنت أرددها على طلابي عندما كنت لا أزال رجلاً كالآخرين، إذ من اللازم حقاً أن أكون ذا مخيِّلةٍ واسعة كي أتفوَّه بمثل هذه الفظاعات، ذلك أنني عندما أشرب كأسي، وعندما أجلس قرير العين على مدخل بار الدين المسافر لم أكن لأتبيَّن بكل صدق أن الأرض التي أراها يمكن أن تكون كروية، وأنها يمكنها أن تتسلى في أن تدور حول نفسها وحول الشمس كما لو كان همها الوحيد ينحصر في أن تحلّق كالطائرة الورقية، فليبرهنوا لي إذن

في أيّ لحظة تدور حول نفسها وفي أيّ لحظة تدور حول الشمس، يجب أن أكون واقعياً ولا أستسلم لأن يُحشى دماغي بأفكار أولئك المفكرين القدماء الذين كانوا يحلقون رؤوسهم بحجرٍ من الصوان أو بحجرٍ غير مشذَّب بينما كان المحدَثون منهم يستخدمون حجراً صقيلاً ، ولو توجَّب عليَّ أن أحلل كل ذلك عن كثب لقلت إنه لا بد من تمييز فئتين كبيرتين من أولئك المفكرين، فمن جهة هناك فئة أولئك الذين يصرخون *"وجدتها، وجدتها"* ، ولكن ما الذي وجدوه، ما عليهم سوى أن يحتفظوا باكتشافاتهم لأنفسهم، فكثيراً ما كنت أسبح في مياه نهر "تشينوكا" الذي حمل جثة أمي المسكينة، ولم أجد شيئاً ذا بال في هذه المياه الرمادية التي لا تتعرض الجثةُ التي تُلقى فيها حتى للحركة الشهيرة الصاعدة من الأسفل إلى الأعلى، ولهذا السبب تتكدس محتويات مجاري حارة "ترواسان" في قاع النهر، فليقولوا لي إذن كيف تستطيع هذه المحتويات أن تهرب من دافعة أرخميدس، ثم هناك الفئة الثانية من المفكرين الملهمين الذين كانوا مجرد عاطلين بطّالين، كسالى حقيقيين يجلسون دوماً تحت شجرة التفاح بانتظار أن تسقط تفاحةٌ على رؤوسهم كي يلفّقوا نظرية الجاذبية، أنا ضد هذه الأفكار المسلّم بها وأقول إن الأرض منبسطة مثل جادة "الاستقلال" التي تمر أمام بار الدين المسافر ، لن أزيد على ذلك شيئاً سوى أن أعلن أن الأرض ساكنة وأن الشمس هي التي تجري حولنا لأني أراها بأم عيني تتبختر فوق سطوح باري المفضل، فلا أحد يمكنه أن يروي لي قصصاً تجعلني

أنام واقفاً ، وإنني سوف أقطع في الحال رأس أول رجلٍ يأتي ليقول لي إن الأرض كروية وإنها تدور حول نفسها وحول الشمس حتى لو صرخ قائلاً *"ومع ذلك فهي تدور"*[1].

١- "ومع ذلك فهي تدور" عبارة شهيرة نطق بها العالم الإيطالي غاليليو بعد أن حكمته محكمة التفتيش في الارتداد عن نظريته بخصوص دوران الأرض حول الشمس (المترجم).

لا أدري على سبيل المثال لماذا لم أذكر حتى الآن قصة "موبوكيه"، وهو شاب مرَّ من هذا البار ولم يعد لأسباب نستطيع أن نفهمها بسهولة، لا يمكنني إلا أن أتكلم عن هذا الشخص، ولا أستطيع أن أستبعده من دفتري ولو أنه قد مرَّ في بار الدين المسافر مرور البرق، ذاك أنني أحب مثل هذه الشخصيات التي تمر بحيث لا نكاد نراها، إنها تشبه "الكومبارس" أو الأشباح أو الظلال، فهي تقريباً مثل ذلك الشخص الذي ندعوه "هتشكوك"، والذي يمر في أفلامه مروراً عابراً دون أن يلاحظه المشاهد العادي إلا إذا همس في أذنه جاره العارف بفن السينما "انظر جيداً أيها الغبي في زاوية الشاشة، تماماً على اليسار، إلى هذا الشخص المقنَّع الذي يجتاز المشهد خلف الشخصيات الأخرى"، ولكن لنعترف أن "موبوكيه" ليس بقوة وجبلة "هيتشكوك"، إذ من الواجب عليَّ ألا أبالغ في المقارنة، ذلك أن "هيتشكوك" كان قامة كبرى، وشخصاً موهوباً، رجلاً قادراً على أن يجعلك ترتعد بمجرد ظهور طيور أو نافذة مفتوحة على فناء، كان قادراً على أن يجعلك تمور في

ذهانك باستخدام أشياء تافهة لا يستخدمها أحدٌ غيره، في حين أن قصة "مويوكيه" تحملني على الضحك أكثر مما تحملني على الخوف، وهنا لا أشعر بالتعاطف معه لأنني لا أطيق الحلزونات التي لا مخ لها ولا الأناس الذين لا شخصية لهم، فهو يزعم أن تمائمه وتعويذاته قد أطلقت يده في كل شيء، وإذا كنت أتحدث عن التمائم فلأن "مويوكيه" ينحدر من سلالة كبار السحرة القادرين على وقف المطر وتنظيم درجة حرارة الشمس، وتقديم مواسم الحصاد وقراءة أفكار الآخرين وإيقاظ أرواح الموتى مثل المسيح الذي قال بمهابة لجثة "أليعازر" الهامدة "يا أليعازر قمْ وامشِ"، وبخصوص هذا البعث، لا بد أن نذكر أن جثة "أليعازر" قد خافت من المسيح وبصورة خاصة من الله الذي يستتر منذ غابر الزمن بين غيمتين ناظراً إلينا ونحن نراكم الخطايا في حين أنه كان باستطاعته أن يجعلنا نتفاداها بمجرد جهد بسيط من الروح القدس، لكن الله قد استتر هناك في الأعلى ليستمتع برؤيةٍ "بانورامية" للأعمال الخسيسة التي نقوم بها في عالمنا السفلي، وراح يسجلها في دفتره بدقة بانتظار يوم القيامة، وعندما تكلم يسوع باسم أبيه المستتر في الأعلى، ما كان من "اليعازر" الميت سوى أن يستيقظ قافزاً بسرعة البرق وهو يرتعد خوفاً من سبل الرب التي لا يمكن ولوجها عادةً، والتي حاول مع ذلك أن يلجها خلال إقامته القصيرة لدى الأموات، فما كان منه إلا أن مشى مثل دميةٍ في مسرح العرائس، وتعتبر هذه الحادثة صغيرةً بالنسبة لما يتفوّه به "مويوكيه" هنا وهناك، فهو يزعم أن معجزات المسيح ليست شيئاً بالنظر لما يمكنه هو أن يفعل في رمشة عين، كان يستطيع إذن أن يحوّل بول القط إلى نبيذ أحمر وقد فعل، كان يستطيع أن يمنح المعوقين سيقاناً جديدة وقد فعل، وكان يضيف فوق ذلك أن معجزات المسيح التي تذهلنا

لا يمكن التحقق منها، وأنهم قد حشوا أدمغتنا بها منذ الطفولة، ويبدو أن معجزات المسيح ما زالت تثير الجدل حتى يومنا هذا، وأنها لم تحز على الإجماع حتى عند المؤمنين، ويرى "مويوكيه" أن الأمر كان دائماً في التسليم بهذه المعجزات دون برهان في حين أن معجزاته هو يمكن التحقق منها دون الحاجة إلى العودة إلى العصر التوراتي حيث كان على الناس أن يستقبلوا الوصايا العشر التي همس الله بها بصوت يكاد لا يُسمَعُ مواظباً على أن يختبئ بين طبقتين من الغيوم المكفهرة، ومن جهة أخرى لا يتم احترام أيٍ من هذه الوصايا العشر ويجد الناس إثارةً كبيرةً في انتهاك هذه القواعد بحيث يمضون حياتهم وهم ينظرون إليها في عالمٍ مليءٍ بالمؤخرات التي تناسب جميع الإمكانات المالية، وفي عالمٍ لم يعد للإخلاص أي معنىً فيه، في عالمٍ يغار فيه حتى الرهبان والنسّاك من دعارة الكفّار، في عالمٍ لا أهمية فيه سوى للطمع والحسد، في عالمٍ يتم فيه قتل الناس بالكرسي الكهربائي على الرغم من قول الكتاب المقدس *"لن تقتلَ بعد الآن"*، هكذا كان يتكلم "مويوكيه"، وهو ينتقد التوراة دوماً بأشد العبارات، وهو لا يقدم هدية عيد الميلاد للرب ولا لضباطه، حتى أن "مويوكيه" قد قال ذات يوم "أصدقائي الأعزاء، إخوتي الزنوج، كيف يكون جميع الملائكة في التوراة من البيض، كان بالإمكان وضع ملاكٍ أو اثنين من الزنوج لإرضاء عِرْقِ أولئك السود الموجودين على الأرض والذين يرفضون تغيير شرطهم لأن الأمور قد حسمت منذ البداية، ولأن تصميم بشرتهم قد شابه سوء الحساب من قبل القدرة الكلية، وبناءً عليه لا وجود لملائكةٍ من السود في الكتاب المقدس، وعندما يمر بعض السود في هذا الكتاب فهم يُذكرون دوماً بين إصحاحَيْنِ يتحدثان عن الشياطين والشخصيات الظلامية، كما أنه

لا وجود للسود أيضاً بين حواريي يسوع، وهذا مدهشٌ حقاً ، ولن يقنعنا أحدٌ بأنه لم يكن هنالك في الحقبة التي دارت فيها أحداث التوراة من ممثلين سود يمكن أن يناط بهم دور البطولة ، أليس الأمر كذلك، هه ، إذن أنا أفهم البيض وأعذرهم فهم لم يخطئوا في إعطاء السود دور ماسحي الأحذية في الحياة اليومية من عالمنا السفلي، إذ لا شيء في الحياة العلوية يدل على وجود الزنوج"، هكذا حدثنا "مويوكيه"، فوجدت أن لدى هذا المشعوذ الكثير من الأفكار التي أرى أنها تخص الحداثة وسجالات المفكرين الذين يضعون ربطاتِ عنقٍ ونظاراتٍ دائرية ، بيد أنه لم يُمضِ فترةً طويلةً من عمره في السجن بسبب هذه الأفكار بل بسبب عمليات الاحتيال الكثيرة التي قام بها ، وقد جاء بعد تلك الفترة من السجن ليندب حظه أمام زجاجات النبيذ في بار الدين المسافر ، إنه شخصٌ دميمٌ بجسده الهزيل وعضلاته البارزة وعينيه الداميتين، كما أن ثيابه الرثة تجعلنا نذكر المثل الدارج "الإسكافي حافي والحائك عريان" ، فيما أنه ساحرٌ كان بإمكانه أن يطلب من شياطينه طقماً على مقاسه إن لم يطلب طقماً من طراز "إيف سان لوران" على غرار موظف المطبعة، وكان بإمكانه أن يطلب من شياطينه حذاءً لامعاً مثل حذاء "كازيمير" الذي يعيش حياة الكبار ، غير أن "مويوكيه" كان يحتال في الحقيقة على الناس الشرفاء والبسطاء الذين كانوا يغدقون عليه الأموال، ولذلك فإن قاضي محكمة الجنح العجوز الذي كان يدير الجلسة أراد أن يحشره فقال له "حسناً ، لن نلف وندور في قضية تبدو لي صافية مثل مياه النبع، قل لي يا "مويوكيه" كم كان يدفع لك الضحايا من أموال" ، فأجاب المتهم "لست ساحراً بسيطاً يقف على قارعة الطريق، كانوا يدفعون لي الكثير من المال، الكثير من المال حقاً يا سيادة القاضي،

وأنا أستحق مثل هذه المكافأة التي لا تمنح لأي ساحرٍ آخر"، فأجابه القاضي "ماذا يعني *الكثير من المال*، حددْ بالأرقام، ليس هذا هو المكان الذي بإمكانك أن تعامل الناس فيه كيفما اتفق، أتعلم أنني أستطيع أن أسجنك فوراً إذا لعبت مثل هذه اللعبة معي، هه"، "نعم سيدي القاضي أعلم ذلك"، "إذن أجب على سؤالي دون مراوغة، كم كان يدفع لك أولئك الناس الشرفاء"، فأجابه المتهم متلعثماً "أكثر من مليون فرنك كونغولي على الاستشارة يا سيادة القاضي"، ظل القاضي صامتاً كما لو كان يحسب بذهنه هذا الرقم ثم تابع بلهجة تهديد وكأنه لا يصدق ما يسمع "ولكن ما الذي كنت تفعله لهم مقابل هذا المبلغ، ذلك أن مليون فرنك لا تدفع لأي كان"، "سيدي القاضي كان عليَّ أن أساعدهم، كان عليَّ أن أكتب لهم التمائم كي تمشي تجارتهم على ما يرام، كنت أجعل حياتهم أفضل مما هي عليه، كم من الناس في هذا البلد يجعلون حياة الآخرين سعيدة، هه، لا أحد سواي"، فقال القاضي "إذن كنت تساعد الآخرين، من تعتبرني، ولماذا لا تصنع التمائم لنفسك كي تصبح غنياً، هه، انظر إلى شكلك وكأنك رجلٌ يعيش على قمامة حارة "ترواسان" مع الكلاب"، فقال "موبوكيه" بلهجة جدية لا يتقنها إلا النصابون "سيدي القاضي إن التمائم تصنع لمساعدة الآخرين، وهذا ما كان يفعله أجدادي، وهذا هو الإرث الذي تركوه لي"، "نعم، ولكن الإنسان يبدأ بنفسه، لو كنت محلك لجعلت حياتي أفضل مما هي عليه، ولا يمكنني أن أقول إن حياتك ناجحة"، ففكّر "موبوكيه" وأجاب "أرأيت طبيباً يجري عمليةً لنفسه يا سيادة القاضي، السحرة كالأطباء لا يمكنهم أن يصنعوا التمائم لأنفسهم، فهذا لا يصح"، "إذن اصنعها لأفراد أسرتك وهكذا يكون بإمكانك أن تفيد من ثرائهم على

الأقل"، دوَّت القاعة بالضحك فتابع القاضي "إذن أنت تزعم أنك تجعل أياً كان غنياً، أليس كذلك يا سيد "مويوكيه""، "تماماً سيدي القاضي، فلو أتيت إلى منزلي لاستشارتي لجعلتك غنياً جداً، فتصبح رئيس جميع قضاة هذا البلد في أقل من خمس دقائق وثلاثين ثانية، أقسم لك يا سيادة القاضي أنك لن تحتاج لقراءة الملفات بل سترى الحقيقة ظاهرةً بصورة مباشرة، وستحكم على الناس بالعدل بدلاً من أن تحكم على بريء مثلي"، "لكلٍ عمله يا سيد، ولا أحتاج لخدماتك كي أكون قاضياً عادلاً ونزيهاً، وسوف أُظهر لك في الحال أنني أرسل النصابين من أمثالك إلى الزنازين كي يتناقشوا مع الجرذان في مسائل الفلسفة القديمة، ولن أحول قضيتك إلى المداولة لأن القانون هو أنا"، فدوَّت القاعة بالضحك من جديد لدرجة أن القاضي كاد أن يخليها، ومسح القاضي العجوز جبينه قبل أن ينطق بحكمه السريع بصوت رتيب، فحكم "مويوكيه" بستة أشهر سجناً فعلياً، وغرامة أربعة ملايين فرنك كونغولي، وخمس سنوات تجريد من الحقوق المدنية، صفَّق الحضور ووقف القاضي وقال لرجال الشرطة "أرسلوا هذا النصاب إلى أصدقائه الجرذان الذين ينتظرونه"، إذن بعد إقامته ستة أشهر في السجن أصبحنا نراه يأتي هاهنا، لم يعد يتكلم كثيراً ولا يتناقش مع أحد، لكننا كنا نعلم جميعاً أنه الساحر النصاب الذي أراد أن يجعل قاضيه غنياً بخمس دقائق وثلاثين ثانية، أعترف أنني إذا كنتُ قد حرصتُ على أن أتكلم إلى "مويوكيه"، فلأنني واجهت في حياتي أنا أيضاً ساحراً يدعى "ولا غلطة"، لكنني أعتقد أنه لم يحن الوقت لأروي قصتي معه، سأعود إليها عند اللزوم، إذ لا يزال لديَّ أشياءٌ يتوجب عليَّ أن أكتبها وأخشى ألا تعود لذاكرتي إذا ما أهملتها

قبل بضعة أيام، عندما غادرت بار الدين المسافر مصمماً على أن أتنفس قليلاً وألا أكتب وألا أعيد قراءة هذا الدفتر لفترة ما، ذهبت لأتسكع في حارة "ريكس"، قريباً من الفتيات اليافعات اللواتي كان يحبهن رجل "البامبرز" قبل أن يصبح خرقةً ينز من مؤخرته، إذن كنت أريد أن أستمتع لآخر مرة منذ عدة سنوات، ومما لا شك فيه أنني قلت في نفسي إن الاقتراب من هؤلاء الفتيات سوف يذيب الجليد عني قليلاً، بيد أن أيَّ فتاةٍ منهنَّ لم ترغب فيَّ، لم ترغب أيُّ فتاة في أن أضرب ضربة صغيرة وسريعة، فقد قلن لي جميعهن "أنت عجوز جداً، لم تعد تستطيع أن تقفز، سوف تضيع وقتي، اذهب علك تجد مكاناً آخر، اذهب وشاهد أفلاماً جنسية، اذهب إلى بيت التقاعد، أنت قاربٌ ثمل، أنت تفوح برائحة نتنة، إنك لا تغتسل ولا تحلق ذقنك ولا تستطيع أن تتماسك واقفاً"، فأجبت "إنني لا أكترث لذلك"، ومع ذلك ففي الرابعة والستين من العمر أستطيع أن أقفز مثل جواد النزو

الماجد سابقاً والذي انسحب فيما بعد من ألعاب سباق الخيل لأسباب تتعلق بتراجع سرعته، إن من المرعب أن أرى الناس يجهلون أنه ليس من الواجب الانتقاصُ من الديناصورات القديمة وأنه ليس من الواجب ضربُ أسدٍ عجوزٍ على أنه حمار، لا أدري من قال ذلك، لكن الفتيات أفهمنني أن زمني قد انقضى بينما كنت أؤكد أن لا علاقة للزمن في الأمر، شعرت بنفسي منتقصاً، شعرت كأنني جيفةٌ تتقاذفها أمواج البحر، مع أن جيوبي كانت مليئة بالمال الحي، ومع أنه كان بإمكاني أن أدفع ثمن ضريتي، وأخيراً رحت أتساءل فيما إذا كانت هؤلاء الفتيات يسعين وراء المال أم وراء الشبان القادرين، هذا ما ينبغي أن يعرفنه وإلا فلن نخرج من هذا العالم العفن، لم تعد الدعارة كما كانت في السابق إذن، فقد أصبح بإمكان العاهرات أن يخترن زبائنهن الآن، وعما قريب سيطلبن أن يتم الدفع لهن بالجنيه الإسترليني أو بالفرنك السويسري في حين كان يمكن للمرء في السابق أن يمضي سهرةً ممتعةً مقابل علبة سردين مغربية، لقد انتهى ذلك الزمن وأصبح كل شيء الآن مرهوناً بالمظاهر، فمن الآن فصاعداً سيكون بإمكان المرء أن يصبح راهباً بمجرد ارتدائه لثياب الراهب، وبناء على ذلك فإذا أردت أن تأتي إلى العاهرات ينبغي عليك أن تتضمَّخَ بعطر "لازارو"، وأن ترتدي طقماً من "فرانشيسكو سمالتو" وقميصاً من "فيجاريه"، هذه نهايةُ حقبةٍ حقاً، وبما أن نهار حجي إلى حارة "ريكس" قد انتهى هكذا وبما أنني طردت مثل بائع السجاد فقد بلعت كبريائي وودعت سلاحي قائلاً "أنا لا أكترث لذلك"، ورحت أتسكع في الحارة، وبما أن الكهرباء كانت معطلة في المدينة كلها

لم أكن لأرى أي شيء أمامي، ولم يكن هنالك من سيارات تمر من حولي، وفجأةً، كضربة حظ، وأنا لا أزال في شوارع منطقتنا المعبَّدة، وعلى مستوى شارع "بابا بونور"، لمحت ضوء "بيل" كهربائي وإيماءة من الجانب الآخر من الشارع، فتبيَّنتُ أن هذه الإيماءة إيماءة عاهرة على عتبة التقاعد، ولربما أنها تعيش بقدمٍ في الحياة وقدمٍ في القبر، ومع ذلك فقد ترددتُ متسائلاً عما إذا كانت النتيجة تستحق مثل هذا العناء، لكنني توقفت على الرغم من ذلك دون اهتمامٍ كبير وسألتها بلا تمهيد "بكم الضرب"، نظرت إليَّ هذه العجوز ذات الوجه المليء بالتجاعيد بنوعٍ من الشفقة وأجابتني "من أين أنت حتى لا تعلم ثمن الضرب في هذه الحارة، هه، الضرب هنا كالمعتاد، لم يتغير أي شيء لأن الأحوال المعاشية صعبة على الجميع"، شعرت بالحيرة حقاً لأنني لا أعرف ثمن الضرب، فقلت متمتماً "أعترف لك في الحقيقة أنني لم أعتد المجيء ها هنا، إذا ما كنت هنا فذلك من أجل تقطيع الوقت، أي من أجل المعاشرة فأنا لم أرَ القمر منذ أكثر من مائة وسبعة أعوام"، وبشفقةٍ أيضاً قاستني بنظرها من رأسي حتى أخمص قدمي، "أيها العجوز المسكين، آمل ألا تسقط عليَّ شبه ميت"، قالت لي ذلك وأشارت إلي أن أتبعها، ودخلت في طريق قذرة وملتوية تتوارى خلف آخر منازل الحارة، وتبعتها كظلٍ يائساً من كونها لم ترفضني، كانت موافقة إذن، وبالتالي كان بإمكاني أن أدفع حسب مزاجي وقناعتي والسعر الذي أحدده بنفسي، ومشينا قرابة عشر دقائق في العتمة، حتى أنني اعتقدت أنها ربما نصبت كميناً لي مع قوَّاديها، فقد يحصل لك أي شيء مع بائعات الهوى، لكننا وصلنا أمام منزل

صغير محاط بالعشب وقالت "هنا سنقوم بالأمر"، سألتها "أهذا بيتك، هـه"، أجابتني "ما أهمية ذلك، هل أتيت لتضرب ضرباً أم لتعرف حياتي"، ودفعتْ بابَ كوخٍ من فترة ما قبل التاريخ مبني في زاوية المنزل ففرَّت بسرعةٍ مجموعةٌ من القطط السوداء وهي تموء بالشتائم فقلت في نفسي *"في مكانٍ منعزلٍ كهذا، إذا ما تم ذبحي فلن يوقظ صراخي أحداً، حتى أنه لا وجود لجيرانٍ في المحيط، اللعنة، في أي ورطة وقعتُ"*، ثم دلفت العجوز إلى داخل كوخ ما قبل التاريخ وأشعلت مصباحاً بتروليباً وقالت "هل تأتي أم لا، اللعنة، ماذا لدي لأقدمه سوى ذلك"، قالت ذلك ودخلتُ بدوري في كوخ ما قبل التاريخ، دون أن أخفي ارتباكي بل خوفي المتنامي، وعلّقت العجوز حقيبة يدها على الجانب الآخر من الغرفة، عطستْ وتنحنحتْ قبل أن ترتمي على فراشٍ تفوح منه رائحة إبط دافع العربة اليدوية ورائحة الفطور المتعفنة، ثم نزعت تنورتها التي تعود لسنوات الاحتلال الألماني وقالت وهي تصر صريراً بطقم أسنانها "اسمي "آليس"، ينبغي على المرء أن يتوجه إلي إذا كان يريد العجائب وليس عليه أن يتوجه إلى تلك الصبيات اللواتي ما زلن يرضعن أثداء أمهاتهن، هيا، تعال إلي يا حبيبي"، لم أعد أشعر بأي رغبة، إنما كنت أريد أن أخرج راكضاً، كنت أريد أن أهرب فحسب، ثم قلت في نفسي إن موقفي سيزعجها، فقد يكون الضرب الذي أنوي القيام فيه هو فرصة الحظ الوحيدة التي حظيت بها في ذلك اليوم، وإن الزبائن لن تتدافع على رصيفها عندما ترى ملامحها بل ربما أنهم سيغيرون الرصيف عندما يرون "ماكياجها" الصارخ وشعرها المستعار الذي لا يغطي سوى ثلث جمجمتها ورائحةَ الجدَّةِ التي تفوح

منهـا وطلقـمَ أسـنانها الـذي يكـاد لا يتماسـك في فمهـا، وأنـا وددت لـو أخـرج من كوخ ما قبل التاريخ هذا، ولم أعد معنياً بمـا أتيت من أجله بسبب هذه الروائح الكريهة، ولكن لا ينبغي إذلال العاهرات، سواءً أكنَّ عجائزَ أم صبايا، فهذا يرتد عليك ذات يوم، ويجب أن نعترف أولاً وقبل كل شيء أن العاهرات كائنات بشرية مثلنا، لهنَّ كبريائهنَّ وكرامتهن، وأنهن قادرات على فعل أي شيء إذا ما تعرَّضن للإذلال، إذ يسيطر عليهنَّ حينذاك شرٌّ مستطير، وأن من الخطأ أن نزعم أنهن بلا مخ وأنهن يفكّرن بالأعضاء التي يستخدمنها في عملهن فحسب، نعم هذا خطأ فلا أخبث من عاهرة الرصيف، لذا لم أغادر كوخ ما قبل التاريخ، بل تمددت إلى جانب العجوز "أليس"، كانت تفوح برائحة المسحوق الذي يرمى في سهرة العزاء على الجثة كي لا تتفسخ، وكانت شرايين رقبتها تشبه الأخاديد التي نراها على شجرة هرمة تبول تحتها الضباع، ورأيت ساقَيْ "أليس" النحيلتين والمقوستين، قالت لي "كيف حالك يا حبيبي"، لم أجبها إذ لا بد أنها تقول هذه الجملة لجميع زبائنها إذا ما حصل وجاءها زبون من وقت لآخر، إذن نزعتْ "أليس" ذات الساقين النحيلتين والمقوستين العروة التي تتزنّر بها، ثم فكّتْ أزرار بنطالي الغامق ودسّت داخله يدها بأصابعها الملتوية ولامست عضوي المتقلص، "سآخذ الأمر على عاتقي يا حبيبي وسوف يقف كما لو كنت في العشرين من العمر، أنا معتادة على ذلك، صدِّقني"، وراحت تستحضر ذكرياتها عندما كانت عاهرة شابة، وعندما كان بإمكان يديها أن تسعدا بائساً على حافة الانتحار، لكن حركاتها كانت ضعيفة مثل حركات نورسٍ أَسَرَهُ

البحارة في عرض البحر من أجل أن يتسلّوا به، إذن كانت هذه العجوز تدعَكُ ولا تداعب، وبما أنها لم تصل لأي شيء ملموس، أصبحت عصبية مثل ذبابة المستنقعات، مما جعلني في وضع غير مريح فحاولت أن أتخيل آخر مرة مارست فيها هواية تسلق الجبال على قمم امرأة، بيد أن الذكريات كانت ضبابية بحيث لم أذكر سوى بعض الشرارات الصغيرة، وليس بإمكان الشرارات الصغيرة أن تبعث الحياة في محرِّكٍ معطَّل، حينذاك نهضت العجوز حانقةً جداً وأعادت وضع شعرها المستعار الذي يفوح برائحة زيت النخيل وارتدت تنورتها التي تعود لحقبة الاحتلال ثم تناولت حقيبتها وقالت "لقد أضعتَ وقتي، لستَ سوى أحمق أيها العجوز المسكين"، ونهضتُ واقفاً بدوري ومددتُ نحوها قطعتين من ورقة العشرة آلاف فرنك كونغولي، فقالت "احتفظ بنقودك أيها الغبي، إن الإذلال الذي تعرضتُ له لا يساوي عشرين ألف فرنك كونغولي"، ودفعتني إلى الخارج شبه مطرود.

في الساعة الرابعة فجراً من يوم أمس رحت أذرع نهر "تشينوكا"، كانت المياه رمادية وصامتة، أحصيت بضعة هياكل عظمية لحيوانات أليفة رمتها مياه النهر هنا وهناك على ضفتيه، ورحت أكلم نفسي لمدة طويلة بحيث اعتبرني الناس مجنوناً أو رجلاً تائهاً يرى طواحين الهواء في كل مكان فيصارعها بمواجهة ملحمية بطولية، قلت إنني لا آبه لذلك واستمررت أحدث نفسي فعادت بعض الذكريات إليَّ مثل الرماد المستثار، قلت إنني أحقد على هذا النهر كثيراً وإن هذا النهر يشبه لسان الموت وإنه سبب تعاستي وسبب غضبي وهيجاني، وددت لو أنني أنتقم منه، فأطلب منه أن يعيد لي روح أمي التي ابتلعها ذات يوم طويل صامت، لكنني لا أريد أن أتكلم عن هذا الآن، سأنظر أبعد من ذلك لأنني لا أريد أن تنهمر دموعي، وبما أن الطقس كان طقس الكلاب[1]

١- "طقس الكلاب" عبارة يستخدمها الفرنسيون للدلالة على الطقس الرديء (المترجم).

وبما أن الفصل كان فصلها، رأيت بضعة كلاب يتزاوجون، تناولت حجراً ورميته عليهم، نبحوا عالياً وبقوة معبرين عن استيائهم، وهربوا وهم يشتموني وينعتوني بالحقير الصعلوك الوغد الحيوان الذي يمشي على قائمتين، قلت "أنا لا آبه بكم، فأنا لا أفهم لغتكم الكلبية وما عليكم سوى أن تنبحوا، أما أنا فلن أكترث أبداً"، تابعت طريقي جائعاً، أردت أن أجلس لحظةً، ثم طويت ساقيَّ مثل غزالة ركعت كي تبكي، وفي حقيقة الأمر أنني كنت أشعر بدوار في رأسي بسبب الجوع، ثم شعرت بكرة تتحرك في بطني، ورحت أتقيَّأ كميات من خثارة النبيذ، قلت في نفسي "لن آبه لذلك"، واغتنمت الفرصة كي أتغوط على أقدام شجرة "مانجا" على الرغم من أنها لم تفعل لي أي شيء، وفي تلك اللحظة مرَّ رجلٌ ممن يسكنون على ضفاف النهر، فقال لي "أيها العجوز الغبي الهرم، يا ملوِّث المرافق العامة، أما زلت تتغوط تحت الأشجار، ألا تخجل"، فقلت له بصوتٍ عالٍ "إن العجوز الهرم يقول لك طظاً فيك"، أضاف الرجل غاضباً "تقول ذلك لي أنا، رُحْ مُتْ أيها السكير التافه"، فقلت بصوت عالٍ أيضاً "أنا لا آبه بك، ستموت قبلي، وإن مقابر هذه المنطقة مليئة بالشباب الأوغاد أمثالك"، فقال لي الرجل غاضباً "التقط برازك وإلا فسأرميك في النهر"، كان مصمماً جداً على تنفيذ كلامه، أما أنا فلم أرد أن أكون أبله لدرجة الغرق في مياه النهر بسبب خرية تحت شجرة المانجا، وبما أن البراز كان برازي أنا، رحت أجمعه بيدي فقال الرجل "ماذا تفعل أيها العجوز، لا تجمع برازك بيديك، بإمكانك أن تستعين بقطعة من الخشب، اللعنة"، لم أصغِ إليه لأننا لا نشعر بالاشمئزاز مطلقاً عندما نلتقط برازنا، إن براز الآخرين

هو الذي لا يطاق بالنسبة لنا ، إذن غمست يدي ببرازي، تقيّأ الرجل لأنه لم يستطع أن يحتمل هذا المشهد المقرف، أما أنا فرحت أضحك وأضحك دون توقف.

بعد هذا الضياع عدت مع دقة الساعة الخامسة فجراً إلى بار الدين المسافر، وكانت لا تزال في مخيلتي صورة ساقَيْ "أليس" النحيلتين والمقوستين، واسترجعت صورة كوخ ما قبل التاريخ، ثم عاد إلى مخيلتي مشهد البراز الذي التقطته بيدي بدلاً من أن أستخدم قطعة من الخشب، مما جعل رائحة البراز تفوح مني عندما عدت ها هنا نحو الساعة الخامسة، ثم نمتُ على مقعد وأفقتُ على رائحة القهوة التي جلبها لي "دنجاكي"، قال بأنها من قبل صاحب البار، ألقيت نظرةً إلى الأعلى، كانت غرفة *الحلزون العنيد* لا تزال مضاءة، تناولت القهوة التي لا يقدمونها في العادة للزبائن ها هنا، لا شك أن صاحب البار قد أعدها بنفسه في الأعلى، ثم فتحت زجاجة نبيذ أحمر فبدأ نهار جديد لكنه، كما قلت في نفسي، نهارٌ مختلف عن غيره.

في الساعة الواحدة أو الثانية ظهراً رأيت موظف المطبعة الطفيلـي يـأتي إلى بـار الـدين المـسافر ، لا أدري لمـاذا أدعـوه الطفيلي في حين أن انطباعي جيد عنه حتى الآن، لكن الحمقى فقط هـم الـذين لا يغيرون رأيهـم، إذن كان موظف المطبعة قد أنهى نزهته حول شاطئ "كوت سوفاج"، كان سعيداً جداً، ومتأثراً تماماً مثل شخص جاءته حوالة مالية من السنغال، لم أره قط على ما يرام مثلما يبدو الآن، ما الذي حصل إذن، آه هذا هو السبب، لقد فهمت الآن، لأنه يحمل بين يديه عدداً من مجلة "باري ماتش"، كان فخوراً به ومتباهياً لدرجة أن قدميه لا تتماسكان على الأرض، وراح يشرح للشبان الآخرين المتاعب التي واجهها زوجان فنانان فرنسيان، زوجان مشهوران على ما يبدو، ويقول بأن ذلك مكتوب بصورة ظاهرة في المجلة، روى بأن هذين الزوجين قد تعرضا للتحرش من قبل أولئك الذين

كانوا يختبئون وراء الأشجار مع آلات التصوير كي يلتقطوا خفيةً صورةً لنهدي المطربة المشهورة أو لقمّتَيْ مؤخرتها، وكان الحضور يصغون لموظف المطبعة، كان الحضور يصغون إليه مثلما يصغون للشيخ الروحي الذي يزني بزوجة رجل طبقات "البامبرز"، وبما أنه يتوجب على موظف المطبعة أن يتحدث طويلاً، روى قصته عن فرنسا مجدداً، قال بأنه زار فرنسا، وأن "سيلين" البيضاء هي سبب انحطاطه وزوال إمبراطوريته، وحدد أنه لم يكن مجنوناً وأن "سيلين" قد نامت مع ابنه، كان يروي كل ذلك والناس ينظرون إليه بتعاطف كبير، حينذاك قال له أحدهم بصراحة إنه لو تزوج من امرأة أفريقية في فرنسا بدلاً من أن يتزوج من امرأة بيضاء لكانت الأمور أقل تعقيداً ولتمت تسوية الأمر ها هنا في بلدنا بضربات السواطير الرواندية فحسب، لكن موظف المطبعة أجابه أن أفريقيات فرنسا مبقورات المؤخرة وأنهن متكلفات جداً، وأنه لا يطيق نزواتهن، كما أنهنَّ لا يستسلمن بلا مقابل إذ يردن أن ترتمي على أقدامهن، وأضاف موظف المطبعة أن هؤلاء الفتيات ماديات فينظرن عن كثب لسيارة الرجال وبيتهم وحسابهم المصرفي وأسهمهم في بورصة باريس، ويجب أن تدفع لهن أجور تصفيف شعرهن المضحك التي تعادل ثمن مؤخراتهن، ويجب أن تدفع لهن إيجار غرفة في الدائرة السادسة عشر من باريس، فبالنسبة لهؤلاء المزاجيات تستهويهن الدائرة السادسة عشر حتى لو كان عليهن أن يبتن في كهوف، ويجب أن تدفع لهن هذا، ويجب أن تدفع لهن

ذاك، ولذلك تراهن يتسكعن، ولذلك تراهن عاطلات عن العمل ولذلك تراهن يشخن وهن في أوج الشباب، ولهذا ينمن مع رجالٍ بيضٍ كبارٍ في السن من ثلاثة أضعاف عمرهن، ولذلك يقعن في البغاء أحياناً لأن تحويل الجسد إلى بضاعة أسهل من تحويل الدماغ إلى وسيلة تفكير، ضحك الحضور فشعر موظف المطبعة بالسعادة لأنه أثّر فيهم، وعاود تذكيرهم قائلاً "أقول لكم إنني لست عنصرياً"، وراح يسوق الأحكام المسبقة المثيرة للجدل حول فتيات باريس السوداوات ويحملهن جميع مساوئ الأرض، وقال عرضاً إن الكونغوليات يركضن وراء الرجل حتى الموت وأنهن يمثّلن دور المفكرات، وقال إن الكاميرونيات لا أسوأ منهن فهن ماديات إلى درجة تدمير الرجل، وقال إن النيجيريات يا إلهي يمضين وقتهن يتقاتلن ليحصلن على مكان على رصيف شارع "سان دوني"، وقال إن الجابونيات شيء مختلف تماماً، فهن قبيحات مثل قمل العانة، وقال إن فتيات ساحل العاج شيء لا يصدّق فهن يتمتعن بسيقان خفيفة ويمضين وقتهن في هزّ مؤخراتهن، وراح الحضور في بار الدين المسافر يضحكون ويضحكون، وأشار موظف المطبعة إلى أن المكان الذي يليق به ليس هنا في هذا البار ما بيننا، وكان الآخرون يصغون إليه باهتمام ويوافقون ويمررون فيما بينهم مجلة "باري ماتش"، وذكر موظف المطبعة أنه كان يدير فريق عمل من البيض، البيض الحقيقيين، وليس من البيض الذين نراهم في بلادنا والذين يتناولون نبات "المنيهوت" وحساء "بنين"، بل من البيض الحقيقيين

الذين يسكنون في فرنسا، وأكد أنهم هم من يطبعون مجلة "باري ماتش"، فقلت في نفسي إن هذا الرجل معتوهٌ تماماً ولا بد من أن يغيِّر موَّاله.

وبعد أن قام موظف المطبعة بالترفيه عن المجلس، تقدم مني وقال لي "لا أدري إن كان أحد قد استرعى انتباهك إلى أن رائحة البراز تنبعث منك أيها العجوز، إذ يشمها المرء عن بعد، هل تغوطت في ثيابك أم ماذا، عليك أن تغتسل، حتى أن الذباب يطاردك"، لم أجب فأنا لا أريد أن أقول له إن شخصاً جعلني ألتقط برازي الذي تغوطته تحت شجرة المانجا، لا، لن أقول له، أضاف موظف المطبعة "على كل حال برازك ليس من شأني، إنما أريد أن أقول لك إن لدي آخر عدد من مجلة "باري ماتش"، وقد اشتريته عندما كنت أذهب باتجاه شاطئ "كوت سوفاج"، ألقِ نظرة عليه فهناك مؤخرةٌ في الداخل، بإمكانك أن تراها مجاناً"، تناولت المجلة مجاملةً، تصفحتها، وقعتُ على رجل يدعى "جوزيف"، وهو فنان تشكيلي زنجي أنهكه المرض يرتدي قميصاً صبيانياً وعيناه مغمضتان، وتظهره الصورة جالساً في غرفة مستشفى إلى جانب لوحاته وأدوات عمله، يبدو أن المرض قد أنهكه تماماً، وهناك على وسادته كتاب عن الفنان "بيكاسو"، وقد وضع المريض رِيَشَةُ على هذا الكتاب، أدركت أن أي شخصٍ لا يعرف الاسم الحقيقي لهذا الفنان الزنجي، ولا جنسيته، وأدركت أيضاً أنه فنان يصور في شوارع باريس، فنان منطقة تدعى "لوماريه"، لكنني أدركت أيضاً بانفعال بعد قراءة

عدة أسطر أنه مات مؤخراً نتيجة إصابته بالسرطان، وقد ذُكر بالتفصيل أنه قد عولج منذ شهرين في قسم أمراض الرئة في مستشفى "سان أنطوان"، وكان يتعرض لجلسات من العلاج الكيميائي، وأنه كان لا يملك سكناً ثابتاً، كان ينام في الشارع إذن، وكان يشرب زجاجاتٍ وزجاجاتٍ من الخمر ويدخن علباً وعلباً من السجائر، شعرت بنوعٍ من التعاطف مع هذا الرجل الذي يشبهني قليلاً من الناحية الجسدية، وكانت الصحافية التي تدعى "بيبيتا دوبون" قد حاورت "فان كوخ" الزنجي هذا قبل وفاته بثمانية أيام، وتأكدتً أن هذا الزنجي كان مكتبة حقيقية متنقلة فهو قد قرأ أعمال "آرثور رامبو" و "بنجامين كونستان" و "بودلير" و "شاتوبريان" وبخاصة كتابه *"مذكرات ما بعد الموت"*، وهو يتحدث كالكتاب فيجد العبارة المناسبة، مما أذهل الصحافية التي أجرت المقابلة، وقد تكلم أيضاً عن الفنانين التشكيليين المشهورين الذين قرأت أسماءهم للمرة الأولى لأنني لم أكن لأهتم بالفن التشكيلي، فذكر اسم "وليام بلاك" و "فرانسيس بيكون" و "روبيرت روشنبرج" و "جيمس إنسور" وآخرين، وذكرت الصحافية أن هذا الفنان الزنجي كان من الممكن أن يذهب طيَّ النسيان لو لم يكتشفه أحد الأشخاص بالصدفة ويصبح صديقه، وهذا المخلّص محامٍ صادف "جوزيف" نائماً على الرصيف إلى جانب لوحاته، وكان المحامي يسكن في العمارة التي تمدد "فان كوخ" الزنجي أمامها ليمضي ليلته، فكاد المحامي أن يصطدم بهذا النائم على تحفه الفنية، وقد تناقشا وأعجب المحامي بفنه الأصيل إذ رأى لوحاته عن كثب

واشترى بعضها وأصبح صديقاً حميماً لفان كوخ الزنجي، ثم راحا يتحاوران كل يوم، وكرر المحامي باستمرار أن هذا الفن الأصيل لم يسترعِ انتباهَ أحد، لكنه يعلم أن الفن الحقيقي يعاني من اللامبالاة دوماً، وأن العبقرية غالباً ما تكون ضحية عمى معاصريها وضحية دسائس التافهين، وهكذا كان المحامي إزاء من يدعى بالفنان المنبوذ، وهو يريد مساعدته الآن في أن يدفعه إلى مقدمة المشهد، ويجعله معروفاً في باريس كلها، في الوسط الفني الدافئ المغلَق، وقدّمه إلى شخص مهم يعنى بمؤسسة "دوبوفيه"، هناك أيضاً كانت ضربة الصاعقة، فقد قال رجل مؤسسة "دوبوفيه" إن هذا الفنان عبقري دون أي شك، إذن أراد رجل مؤسسة "دوبوفيه" والمحامي أن يحوّلا حياة "جوزيف" إلى قصة أسطورية، ولسوء الحظ أن "جوزيف" قد فارق الحياة بسرعة وفضّل أن يذهب لممارسة فنه إلى جانب كبار المعلمين، "بيكاسو" و "روشنبرج" وغيرهم، ونعلم أن مجد كبار الفنانين لا يأتي إلا بعد موتهم، فالأحياء يجتهدون ويستقبلون أكاليل الغار، وهذا نجاحٌ وليس مجداً، إن النجاحَ نجمةٌ عابرة في حين أن المجدَ شمسٌ، وإذا ما غابت في هذه المنطقة فلكي تبزغ في منطقة أخرى وتنير أقاليم أخرى وتبثُّ أشعة المجد فيها، ويبدو أن "فان كوخ" الحقيقي لم يبع سوى لوحة واحدة في حياته، وحسب مجلة "باري ماتش" فمنذ أن مات "جوزيف" راحت حظوته تزداد من يوم لآخر، وراح جامعو اللوحات يدعون الناس جميعاً كي يتخاطفوا أعماله التي كان يرسمها على الورق المقوّى ويسجل عليها عبارات يقتبسها من كتاب *الكونت مونتي كريستو*، ويبدو أن "فان كوخ"

الزنجي هذا يحفظ عن ظهر قلب مقاطع ومقاطع كاملة من كتاب "ألكسندر دوما" هذا، وعندما يتحدث "جوزيف" عن "شاتوبريان" يقول بأنه عظيم جداً ويضيف "إنه يكتب بالكرباج فهو يجلدك جلداً، وقد التهمتُ كتابه *أتالا* وبكيتُ عندما اكتشفتُ أن والد "شاتوبريان" كان نخّاساً وهذا ما لم يذكره في *مذكراته* مطلقاً"، وأنا عندما قرأت مقالة "باري ماتش" فإن أكثر ما أثر فيَّ أنه كان شجاعاً أمام المرض الذي واجهه، فهو يقول *"إن المرض يلتهم وقتي بيد أنني أخرج منه عبر الفن، إنني أواجه السرطان المنقضّ عليَّ بضرباتٍ من ريشتي"*، وبينما كنت على أهبة الانتهاء من قراءة هذه المقالة المؤثرة عن "جوزيف فان كوخ الزنجي"، هزّني موظف المطبعة وزجرني حتى أنه حاول أن ينتزع المجلة من يدي قائلاً "اللعنة أيها القدح المشعور، ماذا يستوقفك عند الأموات، هذا الشخص لا يساوي شيئاً، ولا أريد حتى أن أرى صورته، إنه نفاية، مجرد رجل بائس، هيا اقلب الصفحة"، قلبت عدة صفحات فصرخ قائلاً "اقلب بهدوء فقد تجاوزت الصفحة التي تحوي المؤخرة، إنها الصفحة ١٣"، وعدت إلى الصفحة ١٣ حيث تعرض المؤخرة، لكنها بصراحة كانت غير واضحة من جميع جوانبها، فاستأتُ واستأتُ وقلت له "من يبرهن لي على أن الصورة ليست مزيفة، هه، أرى بوضوح أنها يمكن أن تكون مؤخرة أي شخص كان"، أطلق موظف المطبعة صرخة غضب فهو لا يحب أن يتشكك أحدٌ بصدقية "باري ماتش"، وهو لا يطيق أي معارضة في هذا الشأن، قال غاضباً "ماذا تقول أيها القدح المشعور، هه، ماذا تقول، أنت مجنون أم ماذا، كيف يمكن

لشخص يزيد عمره عن خمسين عاماً، وكيف يمكن لحكيم مثلك أن يتفوه بمثل هذه الترهات، هه، تريد إذن أن تلمح إلى أن هذه الصورة ليست حقيقية، هذا ما تريد أن تقوله، هه، أتعتقد أن مجلةً مثل "باري ماتش" تضع صوراً غير حقيقية، ألا ترى أنها ملونة، ألا ترى إنها صور التقطها مهنيون يغامرون بحياتهم من أجلها، ألا ترى أن الصحافيين الذين يكتبون فيها يتسمون بالجدية، ألا ترى أن هذه المؤخرة مؤخرة حقيقية تبعث الحلم في الفرنسي العادي بعصاه وقبعته "الباسكية"، اللعنة إذن، لا بد أنك أعمى"، وأنا تمتمت من رؤوس شفاهي كما لو كنت أخشى ردة فعله "نعم، ولكن مع ذلك يجب عدم تصديق كل ما يظهر في المجلات التي تبث الإشاعات، إن أولئك الأشخاص قد يبيعون أي شيء طالما أن هناك من يشتريه"، ازدادت عصبيته فقال "اسمع أيها القدح المشعور، أولاً هذه المجلة ليست مجلة إشاعات بل هي مجلة جدية، إنها من الاسمنت المسلّح، وأستطيع أن أقسم لك على ذلك لأننا كنا نطبعها في فرنسا، أؤكد لك أن كل ما فيها حقيقي، ولهذا السبب يشتريها الناس جميعاً، وإن رجال السياسة والنجوم الكبار وقادة المؤسسات والممثلين المشهورين يتقاتلون ليظهروا فيها مع عائلاتهم أو أمام منزلهم أو بصحبة كلابهم أو قططهم أو حصانهم، حتى إنني أريد أن أقول لك إن رجال السياسة هناك عندما يتم الاشتباه بهم أو تتم مراقبتهم في قضايا فساد قذرة أو فواتير مزورة أو استغلال منصبهم في الأسواق العامة أو التجارة المهمة فإن رجال السياسة أولئك يرغبون في الظهور مع عائلاتهم في مجلة "باري ماتش" ليظهروا أنهم أناس طيبون وأن حسّادهم وخصومهم

السياسيين يسعون وراء أذيتهم كي لا يشتركوا في الانتخابات التالية، أترى الأمر، هه، انظر إذن في الصفحة ٢٧ وسترى ذلك السياسي العفن الذي تلاحقه الأقاويل والمتورط في أكثر القضايا إثارة للشبهة في فرنسا، لكنه يظهر في "باري ماتش"، وحسناً فعل كما قلت لك"، وأنا ركّزت بالأحرى على الصفحة ١٣ حيث المؤخرة غير الواضحة فقلت "متأسف لكنني ما زلت أعتقد أن هذه الصورة ليست حقيقية وهذا يُستَشفُّ بالعين المجردة"، فانتزع المجلة مني بيديه غاضباً وشاعراً بالانتقاص من كبريائه وابتعد عني مغمغماً بشتائم مختلفة "أنت غبي من الزمن الغابر فعلاً، كنت أظنك حتى الآن شخصاً جيداً ولكن يجب أن أصدق أن الشيخوخة قد نخرت دماغك، ثم إن رائحة البراز تفوح منك، هيا اذهب واغتسل"، وبصق على الأرض قبل أن يضيف قائلاً "ليس لدينا القيم ذاتها، أنت من عصر آخر، أنت رجل من الماضي، لا أدري ماذا تفعل هنا، لا أريد أن أكلمك بعد الآن، انتهى الأمر، سأبتعد عنك، اللعنة، عليك أن تنسى أنني زرت فرنسا، هه، لا أحد هنا رأى سقوط الثلج، لا أحد هنا رأى "الشانزيليزيه" و "قوس النصر"، وعند هذه النقطة ابتعد غاضباً مهتاجاً فقلت في قرارة نفسي ***"لا آبه بك وإن عجوز الزمن الغابر يقول لك طظاً فيك ثلاث مرات"***، وها هو ذا الآن يجلس وسط بعض السكارى البلهاء الذين يتحدثون عن مباراة جمعت بين فريق "قروش الجنوب" الخطيرين وفريق "تماسيح الشمال" الأشداء، ويبدو أن "تماسيح الشمال" قد فازوا بنتيجة صريحة اثنان/صفر، بيد أنه يبدو أيضاً أن "قروش الجنوب" قد فازوا بالنتيجة نفسها في مباراة

الذهاب، من المنطقي إذن أن تكون هناك مباراة ثالثة في غضون خمسة عشر يوماً حسب ما يقوله هؤلاء الحمقى الذين يتحدثون بشكل متقطع مثل المُقْعَدين الذين أصابهم الملل، فكان أن قطع موظف المطبعة ثرثرتهم الرياضية قائلاً "هيه يا شباب ماذا يحصل هنا، هه، أين أنا، هل فقدتم دماغكم أم ماذا، لنكن جديين، اللعنة، هناك أشياء كثيرة أكثر أهمية من هذه المباريات البربرية"، وراح يمرر مجلته التي أسعدت البعض وأزعجت أولئك الذين يعشقون كرة القدم.

نهضت كي أحرِّك قدميَّ وأتناول شيئاً ما، قلت في نفسي إن هذا اليوم غريب، فقد بدأ بالبراز الذي التقطته نحو الساعة الخامسة، وهذا نذير شؤم، والآن فإن الجميع على أعصابهم، أعتقد أن هذا هو آخر يومٍ لي في هذا البار حتى لو لم أقنع نفسي بذلك، لكنني متأكد من أن هذا اليوم هو آخر يوم لي، يجب أن أتعلم كيف أنتهي، قلت ذلك في نفسي بينما كنت أخرج من البار مع أوهامي الضائعة، وتجاوزت جادة "الاستقلال"، لأصل إلى وكان الأم "مفوا" التي تبيع اللحم مقابل بار الدين المسافر، إنها صلعاء وتغني من وقت لآخر من أجل أن تبعث السرور فينا، ولهذا السبب فالناس يطلقون عليها لقب "المغنية الصلعاء"[1]، وهي تبيع السمك والفرّوج

١- "المغنية الصلعاء" عنوان مسرحية من تأليف "يونيسكو" الذي يعتبر بالإضافة إلى "صموئيل بيكيت" واللبناني "جورج شحادة" من اعلام تيار "المسرح الحديث" السائد في فرنسا في النصف الثاني من القرن العشرين (المترجم).

المشوي على الفحم أو على الكهرباء، أنا لا أحب الفروج المشوي على الكهرباء لأنه ينضج على موجات "الميكروييف" لكنني أحب الفروج المشوي على الفحم الذي يتم إنضاجه في الهواء الطلق وفوق لهيب الجمر، وتزعم الألسن الخبيثة أن مغنيتنا الصلعاء تضع سحراً في طعامها، ولهذا السبب يتوافد الزبائن عليها بصورة دائمة حتى في أضيق الأحوال، وتزعم هذه الألسن الخبيثة أيضاً أن اللحم المشوي الذي تقدمه ما هو إلا لحم قط أو كلب من كلاب الحارة، لكن ذلك لا يجعلني أتقيّأ مطلقاً، فأنا لا أصدق هذا الهراء، وإذا ما كان اللحم الذي تقدمه لحم قط أو كلب من كلاب الحارة فهذا يعني أن لحم قطط وكلاب الحارة شهيّ وصالحٌ للأكل، وبالنتيجة نكون جميعنا قد تذوقنا لحم قطط وكلاب الحارة، وإذا كان من الصحيح أن هناك الكثير من الزبائن أمام دكان المغنية الصلعاء فلأنها لطيفة جداً، ولأنها أمٌ حقيقية، فهي تخاطب كل واحد منا كلاماً لطيفاً، وتكاد لا تقبل أن تقبض ثمن خدمتها بحيث لا بد من التوسل إليها كي تأخذ النقود، وهي تقول دائماً "لا ضير في الأمر يا أبتي ستدفع عندما يكون لديك المال"، ونحن ما كنا لنقبل هذا الكرم إذ لا بد لها من أن تدفع إيجار منزلها وأن تطعم أبناءها، وعندما تدفع لها تملأ صحنك أكثر مما تملؤه أي بائعة أخرى في الحي، حتى أن هناك من الزبائن من يختارون قطع اللحم من القدر، وتعطينا قطعاً من "المنيهوت" مجاناً، هذه طريقتها في جذب زبائن حارة "ترواسان"، ولذلك يحبها الناس، وكل ما يقال غير ذلك هو من الروايات الزنجية الأفريقية الرديئة التي تروى على ضفاف نهر

"السين" ، هَرَجٌ ومَرَج، الناس يتحدثون عنها بالسوء لكنهم يأكلون مع ذلك لحم قطط وكلاب الحارة ذاك، إنه أمرٌ لا يُصدَّق، حتى أنهم يقولون إن الزيت الذي تستخدمه في القلي مزيج غريب من بصاقها وبولها، ولهذا السبب فإن للحمها المقلي طعم المطبخ الياباني، أما أنا فلا أصدق ذلك، فالأم "مفوا" مواطنة شريفة، مثلها مثل *الحلزون العنيد*، إنهما شخصان لن يعاب عليهما أي شيء يوم القيامة، وإن لهما مكاناً محجوزاً بالرقم في الجنة.

رأتني مغنيتنا الصلعاء قادماً إلى دكانها فابتسمت وقالت لي "ماذا ستأكل اليوم يا أبتي، هه، تبدو كأنك لست على ما يرام أيها القدح المشعور"، إنها تقول "يا أبتي" لكل زبائن بار الدين المسافر، هذه هي طريقتها في إظهار عاطفتها اتجاهنا، طلبت منها حينذاك أن تعطيني فروجاً مشوياً على الفحم مع كثير من الفليفلة و "المنيهوت" أيضاً، تناولت الطلب ودفعت لها فقالت لي "يجب أن تتوقف عن الشراب يا أبتي، فإن نبيذ "سوفينكو" الأحمر ليس جيداً"، أجبتها "سأتوقف اليوم فهذا آخر يوم لي وآخر قدح من النبيذ، أقسم لك على ذلك"، ابتسمت وأضافت "أنا جادة فيما أقول أيها القدح المشعور، الشراب ليس جيداً، انظر كم أنت هزيل، لقد كنت رجلاً وسيماً وأراك تموت كل يوم، اترك زجاجتك إذن"، ووعدتها مجدداً أنني سأترك عبادة زجاجات النبيذ الأحمر هذا اليوم في منتصف الليل، "أنا لا أصدقك، وماذا ستشرب إن توقفت عن شرب النبيذ، هه"، قلت لها إنني سأشرب ماءً صافياً، كميةً كبيرةً من الماء الصافي،

فهزت رأسها غير مصدقة وقالت "سأنتظر لأرى، ثم يا أبتي فكّرْ في أن تغتسل، لا أدري إن كنتَ قد جلستَ على كومة من البراز، فالرائحة قوية جداً"، قلت في نفسي إنه لم يبق لي سوى رائحة هذا البراز، ورحت أنظر إليها وهي تقلب الفروج في الفرن وتلقي بسمك الشبوط في الزيت المغلي ثم تمسح وجهها بقفا يدها اليمنى، حتى أن قطراتٍ من عرقها كانت تتساقط فوق القدر، بيد أنه لا أهمية لذلك، فكل هذا هو ما يعطي النكهة الزكية لطعامها، وقلت في نفسي إن هذه المرأة شخصية فريدة، فهي تجلس بين أواني الطبخ وتمارس عملها من كل قلبها، ورحت أتساءل عما إذا كانت تفعل ذلك لتكسب قوت يومها أم بدافع حب الناس، وبينما كنت أفكر في ذلك كررت قائلةً "الشراب ليس جيداً يا أبتي، لا بد من أن تتوقف ذات يوم، أعرف أناساً ذهبوا إلى مقبرة "إيتاتالو" مباشرةً بسبب الزجاجة، أقول لك إن جثة السكّير ذات شكل مخيف، فبشرته غريبة، حمراء مثل النبيذ، هذا مفزع جداً، ولا أرغب في أن تكون جثتك هكذا يوم موتك، أتفهم ما أقول، هه"، وحدثتني عن الرجل الذي يدعى "ديموكوسيه"، وهو سكير منذ الأزل، وقد احمرَّت بشرته ونمت الفطور عليها، إن "ديموكوسيه" لم يشرب الماء في حياته قط على حد قول الأم "مفوا"، ومات ذات يوم في أدغال منطقة "فوكس" وزجاجته بين يديه، ودفنوه مع دورق من النبيذ كما كان قد حدد في وصيته التي كانوا أمناء في تنفيذها، لكني لم أتعرف على هذا الشخص فهو لم يأتِ قط إلى بار الدين المسافر، ولهذا فلا فائدة من أن أتكلم عنه كثيراً إذ سيكون الأمر في هذه

الحالة تلفيقاً عبثياً، إذن لاحظت الأم "مفوا" أنني لم أجبها حين روت لي قصة "موكوسيه"، فقالت لي "أعتذر يا أبتي وآمل ألا تكون قد غضبت مني، هه، إنما قلت ذلك لأنني أحبك، وما كنت لأقوله لو لم أكن أحبك، صدقني يا أبتي أنا لا أريد أن تموت مثل "ديموكوسيه" فأنت تستحق أفضل من ذلك"، ثم قدمت لي ما طلبت فتناولت الفروج المشوي على الفحم واستنشقته، كان ناضجاً تماماً ورحت أعطس بسبب رائحة البصل فنظرت إلي وهمست بصوتٍ عذب "هنيئاً يا أبتي"، وعبرتُ جادة "الاستقلال" كي أذهب لآكل في ركني المعهود.

في الحقيقة أنني عندما سألني صاحب بار الدين المسافر قائلاً "وأنت أيها القدح المشعور هل تسير الأمور على ما يرام من ناحيتك" لم أجد ما أجيبه به، فهو يعرف كل شيء عني ويعرف لماذا أمضي حياتي ها هنا، يعلم جيداً أن ذلك بسبب "أنجيليك"، فقد رأى "أنجيليك" تأتي لتطردني من هذا البار منذ عدة سنوات حين كان لم ينتهِ بعد من تسقيف مبناه، فماذا باستطاعتي أن أضيف لما يعرفه، ليس لدي ما أضيفه، لكن الصحيح أنني أكتب في دفتر، ولا أدري من يستطيع أن يقرأه غيري، وهذا القارئ المغْفَلُ لن يعرف أي شيء عن كل هذا إن لم يكن من حارتنا، وسوف يتساءل عما حصل لي ويقول "جميلٌ أن تتكلم عن الآخرين، وجميل أن تأكل فرّوجك المشوي على الفحم جالساً في إحدى الزوايا، جميلٌ كل هذا، ولكن ما هي قصتك أنت أيها القدح المشعور، حدثني عنك أنت، قل لي كل شيء دون لف ولا دوران، ما عليك سوى أن تعترف"، لا بد من أن أتكلم عن

نفسي إذن، لا بد من أن يعلم القارئ المُغْفَلُ لماذا سقطت إلى الدرك الأسفل دون مظلة، لا بد من أن يعلم لماذا أمضي وقتي هنا، يجب ألا يبقى هناك فراغٌ في تفكيره، هو الذي أستمر في التكرار على مسامعه أنني من سبر هذه الأماكن، وكي أبدأ يجب عليَّ أن أحدد أن "أنجيليك" هو اسم زوجتي السابقة لكنني عندما أريد أن أتكلم عنها فسأدعوها "ديابوليك"[1]، طوال دفتري سأدعوها "ديابوليك"، نعم سأدعوها كذلك، إذ ليس لديها أي شيء من الملاك بل هي على العكس منه، إذ لا يتصرف الملائكة على هذا النحو حتى لو رحلوا، ذلك أن "ديابوليك" أمضت أكثر من خمسة عشر عاماً إلى جانبي وطوال هذه المدة كانت تأمل في أن تبرهن لي على أن قُفَّتَها أكثر إثارةً من قُفَّةِ زجاجة النبيذ الأحمر، وأنا أمضيت أكثر من خمسة عشر عاماً وأنا أحاول أن أبرهن لها نظرية العكس ذاك أنني أستطيع أن أشرب الزجاجة في أي وقت وأي مكان وأي طريقة فذاك يتعلق بي، بإرادتي، وبالساعة التي أصل فيها إلى البار، أما مع "ديابوليك" فكان الأمر كما لو أنني لست أمام امرأة.

أعلم أن الفرّوج يكاد يبرد وأعلم أن عليَّ أن آكل، بيد أنني يجب أن أذكر شيئاً يتعلق بحياتي ويتعلق بـ"ديابوليك"، في البداية إذن جاءت هذه المرأة لتسحبني من هذا البار وتعيدني إلى المنزل، بيد أنها ذهبت إلى النوم فور وصولي، وفي اليوم التالي راحت تبكي وتقول إن

١ـ تجدر الإشارة إلى ان اسم "انجيليك" مشتقٌ من الملاك Ange واسم "ديابوليك" مشتقٌ من الشيطان Diable (المترجم).

الواحد منا لم يعد يرى الآخر، وإن حياتنا أصبحت جحيماً، أنا كنت أعود دوماً عند صياح أول طيرٍ يحط على قمة شجرة المانجا الموجودة أمام منزلنا، وفي بعض المرات كنت أنام بكل صراحة تحت الشجرة، وكان يوقظني الذرق الحار والمائع لهذا الطير الذي يحط على قمة الشجرة ليعلن انبلاج فجر جديد، وهكذا عندما كانت "ديابوليك" تفتح الباب في الصباح كانت تجدني في الخارج وسط بولي وبرازي المائع الأسود، كانت تغرق بالدموع وتنادي الجيران على أمل أن يغيِّر الخجل عاداتي، كنت أقول ططاً في الجيران الذين لا أرغب في معرفتهم، وأطالب باحترام حياتي الخاصة، وقال أحد أولئك الجيران، وهو أكثر من كنت أكرهه، "لا وجود للحياة الخاصة عندما يشوش المرء محيطه على هذا النحو، إن حريتك تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين"، كان هذا الشخص يمثل دور فيلسوف عصر الأنوار حتى أننا كدنا أن نتشابك بالأيدي لأنه كان يريد أن يثبت لي باستمرار أن ثقافته العامة أعلى من ثقافتي، حسناً، حصل في نهاية الصباح ذات يوم أن أعلنت "ديابوليك" بأعلى صوتها أن الكيل قد طفح وأن لصبرها حدوداً وأنها لن تمضي حياتها تسهر على جثة متحركة مثلي وأنني قد سببت لها آلاماً مزمنة وأنني لست سوى بائعٍ للحزن وأنني أمشي على ديباج وقتها الحالي، وعليه فإن الأمور واضحة إذن، ينبغي عليّ أن أحدد خياري بشكل قاطع، ينبغي عليَّ أن أختارها هي أو الخمر، ولما كان من اللازم أن يكون الخيار مشرفاً فقد اخترت الخمر، وراحت تبكي في المساء عندما لا أعود أو أنام تحت شجرة المنزل، فتحدثتْ عن ذلك إلى جارنا فيلسوف الأنوار الذي قال لها إنني كالميت، أو

كشبح في الأوبرا، فوافقت "ديابوليك" على هذه المزاعم الفلسفية وأضافت أنها تتمنى أن يأتيني الموت بسرعة وبصورة مفاجئة بدلاً من الموت بالتقسيط الذي يجعلها تعاني بمرارة، لقد تمنت موتي كي تشعر بشيء من الحرية في حياتها، وقالت بأنها لم تعد تطيق نظرات أهل الحارة، وأنهم يهزؤون بها، حتى أن الكلاب تنبح عندما تمر من أمامها علماً بأنها ليست هي التي تشرب الخمر، وأقسمت أنه لو استمر الحال على هذا النحو فستلقي بنفسها في مياه نهر "تشينوكا"، وأنا كنت أواسيها فأسوق حججاً قوية، كنت أقول مثلاً بسيماء جدي رصين أن الشراب أفضل من التدخين لكنها كانت تدحضني قائلةً على الفور إن الشراب أو التدخين هو التبغ من نفس الغليون والماء من نفس الصنبور، إذن يجب ألا أشرب، إذن يجب ألا أدخن، وإلا فالرحيل إلى القبر المفتوح في العالم الآخر، وأنا كنت أضحك ولم أكن لأرى أي سوء في الخمر، أضف إلى ذلك أنني لم أضرب "ديابوليك" قط، بل هي التي كانت تدفعني وتشتمني عدما تكون غاضبة، هذا ما كان يحصل، ومع ذلك كنت ولا أزال سكيراً سلبياً وليس عدوانياً، ولم تكن تجهل أنني أدرك معنى اللا عنف، وأن إيقونتي المفضلة هي التي أرى فيها "لوثر كنج" ينظر إلى "غاندي"، ولا أفضل من هذا الدليل على أنني من أنصار اللا عنف، فلست أنا من يهاجم الجنس الآخر، لماذا أفعل ذلك، هه، ولذلك كنت أسألها "هل ضربتك في يوم من الأيام، هل اعتديت على أحد في الشارع، هل جاء أحد ها هنا ليشكوني، قطعاً، سأموت في اليوم الذي أرفع فيه يدي على أحد، لقد سعيت لنعتي بجميع أسماء الطيور المهاجرة والمقيمة،

وسعيتِ لاعتباري شبه رجل، وسعيتِ للانتقاص مني أمام الناس، فلم أكترث لذلك، لقد خُلقنا على الأرض وكلٌ منا يحمل وِزْرَهُ، إذن لن تنتقصي مني أكثر من ذلك، فأنا أعلم ما أفعل حتى لو كنت أشرب، إذن أنا أسخر من أفلامك المصورة بالأبيض والأسود"، هذا ما كنت أقوله لها باستمرار وأقسم على ذلك برحمة أمي التي غرقت في مياه نهر "تشينوكا" الرمادية.

أخذت "ديابوليك" تشرح لمن يريد أن يسمعها أن الشيطان يسكنني ويغويني وأنني أسير مخلوق عنيد له ذيلٌ طويلٌ مدبب، مخلوقٍ يسحرني بعينيه البركانيتين، وكانت تشرح للناس أنني أقوم بتنفيذ لعبة هذا الشيطان، وأنني عندما أتكلم إنما يتكلم بلساني الشيطان الذي يشرح الحياة للرب الرحيم، وبما أنني لم أكن لأفهم أي شيء من هذه الخرافات لم أكن أطلب سوى إثبات ذلك، وعليه فقد أقسمتْ "ديابوليك" بأغلظ الأيمان أنها ستعطيني آخر فرصة ينبغي عليَّ أن أغتنمها وأنه لن يكون هنالك أي تأجيل وأنها ستكون فترة اختبار وقالت "جيد أن تشرب ولكن يجب ألا تلوِّث حياة الآخرين، أي قصة هذه، أتعتقد أنني سأمضي حياتي هكذا، هه"، وقالت إن الخمر يؤذي في الواقع أولئك الذين لا يشربون أكثر مما يؤذي من يشربون، وعندما أشرب فكأنها هي التي تشرب، وبناء عليه فهي تسكر أكثر مني بمرتين، وحقيقة الأمر أن جارنا الفيلسوف هو من ورَّطها في هذه النظريات الجريئة التي أخذتها على محمل الجد، وكان هذا الجار يقول إن "ديابوليك" هي "ضحية بطريقة غير مباشرة"، كان هذا

الجار يزعجني وأنا كنت أستهزئ من هذا التعميم الناجم عن شخص لم يدرس الطب في باريس، ومن جهة أخرى فهناك أطباء يدخنون مثل رجال إطفاءٍ متمرِّنين، يجب ألا نبالغ إذن، كيف يمكن أن يذهب ما أشربه أنا إلى بطنها هي فيسكرها كما لو أنها هي التي شربت، ليس الله أيَّ كائنٍ كان، فقد خلقَنا وصمَّمَنا بأدق التفاصيل، ليس هنالك أي رابط بين معدتين منفصلتين، فلكلٍ قارورته ولكلٍ أمعاؤه الدقيقة وبنكرياسه، إن مرارتي هي مرارتي ومرارتها هي مرارتها، هذا كل ما في الأمر، هكذا كان جوابي على "ديابوليك" وعلى جارنا فيلسوف الأنوار، لكنها كانت الفرصة الأخيرة التي منحتني إياها زوجتي، رحت أنتظر رؤيتها الإستراتيجية بعد أن رفضتُ أن أذعن لأوامرها، قالت "أنا لا أمزح عندما أقول لك إنها الفرصة الأخيرة التي أمنحها، ستكون العاقبة وخيمةً وسوف أذكِّرك بذلك"، فسخرتُ قائلاً "كلام بكلام"، وتابعت في السكر وفي تناول جرعات من النبيذ الأحمر واستمررت في قطع أعناق الزجاجات البريئة والتهام أحشائها حتى أنني نسيت أنني متزوج، وأن "ديابوليك" هي زوجتي، وذات يوم جاء أناس مهتدون للدين الإسلامي ليسحبوني من بار الدين المسافر ويقولوا لي إن زوجتي قد لدغتها أفعى، قلت إنني لست متزوجاً وإن القصص عن الأفاعي لم تعد تسلّي أي ولد زنجي، وسمعت هؤلاء الجيران المسلمون يهمسون أن الله يحسن الفعل لو أخذني من هذه الحياة التي لا أستحقها، وقالوا إنني مجرد طيفٍ، طيفٍ بلا جسد، وكان هؤلاء الجيران المسلمون صادقين فقد لدغت زوجتي واحدة من هذه الأفاعي السوداء التي تنتشر بكثرة في حارة

"ترواسان"، كما لو لم يعد هناك من حيّزٍ حيويٍ لها في السهوب والأدغال، حتى الأفاعي تعرضت للهجرة من الريف إلى المدينة ولم تجد أي هدفٍ لها سوى "ديابوليك"، لكنني لم أكترث للأمر فقد كانت أفكاري تهيم في مكان آخر، وربما تكون قصة الأفعى السوداء هذه هي التي دفعت "ديابوليك" لتسريع الأمور.

وذات يومٍ مشمسٍ ساطع رست سفينة أهل زوجتي في المنزل وعقدوا مجلساً حربياً اثنياً، وكنت أنا القدح المشعور مثار مداولاتهم البيزنطية، تحدثوا عني بالطول والعرض وأصدروا فرماناً يتعلق بي، حكموني غيابياً لأنني لم أمثل أمام محكمتهم، وكان الأمر كما لو أنني كنت أتوقع الفخ الذي نصبوه لي، فقد عرفته حدساً، وبناء على ذلك كنت قد أخليت المنزل منذ ليلة أمس، وهكذا تخلصت من عدالة مخالب هؤلاء المفترسين، هؤلاء المنتهكين لحقوق الإنسان، هؤلاء المعكرين صفو الحياة، هؤلاء الفوضويين الحاقدين، وكان ذلك دون أن أحسب حساباً لفطنة "ديابوليك" وضغينتها ذلك أنها تعلم أين تجدني، فما كان منها إلا أن اقتادت لجنةَ الاستقبال العائلي هذه إلى الشارع على طول جادة "الاستقلال"، حتى اعتقد المارة أن هذا هو إضراب "الباتو"، فقراء حارة "ترواسان"، ذلك أنني لا بد من أن أشير إلى أن أهل زوجتي السابقة هم من الصعاليك الجوالين القرويين الذين يلبسون ثياباً مهترئةً قذرة، وهذا طبيعي لأنهم كالفلاحين الروس في أقاصي البلاد الذين لا يفكرون سوى بفلاحة الأرض وترقب المطر، وبما أنهم شديدو الطمع فهم مستعدون أن يقتلوا أي شخص ويبيعوا

حياته لأول شارٍ يظهر أمامهم، ليس لديهم أي لباقة سلوكية، فهم لا يعرفون أبداً تناول الطعام على الطاولة، ولا استخدام الشوكة أو الملعقة أو السكين، إنهم أناس قضوا حياتهم القروية في نصب الفخاخ للجرذان والسناجب وفي صيد الأسماك النهرية، ولا تستطيع أن تناقش أي أمر ثقافي معهم ذلك أن عقلهم أصغر من قمع الخياطة على حد قول المطرب ذي الشوارب، إذن جاء رجال الكهوف هؤلاء ليسحبوني من مشاغلي النبيلة في بار الدين المسافر، قرؤوا عليَّ حكمهم الغيابي، فقد قرروا أن يأخذوني إلى ساحرٍ يعالجني ألا وهو الساحر الذي يدعى "ولا غلطة" كي يطرد الشيطان العنيد الذي يسكنني، وكي يخلصني من عادة أخذ الحمَّامات تحت شمس إبليس، وكان علينا أن نذهب هناك إلى بيت هذا الوغد الذي يدعى "ولا غلطة"، أنا لم أخف منهم بل أردت عدم الاكتراث بهم فقلت "اتركوني بسلام، هل أزعج أحداً عندما أتناول كأسي، لماذا أنتم جميعاً ضدي، لا أريد أن أذهب إلى "ولا غلطة""، فقال لي هؤلاء الشجعان معاً "عليك أن تأتي معنا أيها القدح المشعور، لا خيار لك، سنقودك إليه حتى لو أخذناك محمولاً على العربة اليدوية إذا لزم الأمر"، قلت عاوياً مثل ضبعٍ وقَعَتْ في فخٍ منصوبٍ للذئاب "لا ولا ولا، أموت ولا أتبعكم إلى بيت "ولا غلطة""، وبما أنهم كانوا عديدين فقد أمسكوا بي ودفعوني وهددوني وثبّتوني فرحت أصرخ "العار عليكم يا قليلي الإيمان، لا تستطيعون أن تفعلوا أي شيء لي، أرأيتم قدحاً مشعوراً يمكن إصلاحه"، ووضعوني عنوةً في عربة مضحكة، وراح جميع من في الحارة يضحكون أمام هذا المشهد الذي لا يوصف لأنهم عاملوني كما لو كنت كيساً من

الاسمنت، أما أنا فرحت أشتم "ولا غلطة" طوال طريق الآلام في حين كانت زوجتي تتحدث عن الأفعى السوداء التي لدغتها، وسألتُ عن أي أفعى تتكلم فصرختْ بي "إنها أفعى الشيطان، أنت من جلبها، فأنا لم يحصل لي قط أن لدغتني أي أفعى في حياتي"، فقلت لها "أفعى سوداء، سوداء حقاً، وكيف استطعت تمييز لونها في الظلام الدامس"، كادتْ أن تقلب العربة بي لو لم تقم عمتها بتهدئتها "اهدأي يا ابنة أخي، "ولا غلطة" سوف يعالجه بوقت قصير وسنرى عما قريب إذا كان بإمكان الشيطان الرجيم والإله الرحيم أن يأكلا معاً دون أن يستخدم أحدهما ملعقةً طويلةَ الذراع".

واقتادوني عنوةً إلى "ولا غلطة"، كنت أدندن بنغمة لا أدري ما هي، فمن يستطيع أن يعلم ماذا يغني العصفور في القفص، هه، مما لا شك فيه أنني كنت أنشد نشيد سليمان، كانت العربة تهتز وتكاد أن تنقلب، ولا أدري بأي معجزة بقيت متماسكاً فيها، كان هؤلاء الناس يتناوبون على دفعها، جعلتهم يتغوطون لأنني كنت أتقيأ وأزعم أنني سأبول أو أتغوط، ووصلنا أخيراً إلى قمة هضبة أمام كوخ "ولا غلطة" العتيق، على الجانب الآخر لنهر "تشينوكا"، وقال الساحر الذي رآنا قادمين من بعيد "أيها القوادون انزعوا نعالكم التي تفوح برائحة البراز، اطردوا أفكاركم الشريرة، فأنتم هنا في حضرتي، أنتم في مملكة الأجداد"، وامتثل كل هذا الموكب لتنفيذ هذه الأوامر كما لو كانت صادرة عن الروح القدس بشحمه ولحمه، نزعت زوجتي حذائي بنزقٍ عسكري ثم رموا هذا الحذاء بعيداً في

إحدى الزوايا فقلت لزوجتي "لا تنسي حذائي"، ثم قدّموا الهدايا إلى "ولا غلطة" الذي كان يتمتم بآيات الشكر من سُلّمِ "دو" الكبير فأدركت في الحال أن "ولا غلطة" يمكن أن يكون أي شيء سوى أن يكون معالجاً شافياً، فهو يشبه الشخص الذي كان يريد أن يجعل القاضي غنياً، ذلك الشخص الذي تحدثت عنه في بداية الأوراق الأخيرة والذي يدعى "مويوكيه"، وكان من الممكن أن يكون "ولا غلطة" أي شيء عدا أن يكون ساحراً حقيقياً لأنني أعرف السحرة الحقيقيين، ولم يكن نصّاباً مهذّباً أيضاً، بل كان النصّاب الأكبر، وأنا تحديته، قلت للنصاب الأكبر "إذا كنت معالجاً شافياً حقيقياً، إذا كنت ساحراً كما يجب، فلتحزر أمام جميع هؤلاء الشهود تاريخ ومكان ولادتي، تكلّمْ عن شجرة نَسَبي، وقدِّمْ لنا برهاناً على علمك الغيبي"، وأهل زوجتي هؤلاء الفلاحون الروس القادرون على أن يقتلوا ويبيعوا حياة أي إنسان، هؤلاء القرويون والقرويات نظروا إليَّ بعيون جاحظة وزجروني وطلبوا مني أن أوقف تمثيليتي كي لا أجذب الغضب الإلهي بينما تتم عملية الانتقال بين "ولا غلطة" وأرواح الأجداد، ثم دفعوني إلى الجدار، أما أنا فقد أضفت دون أن أفقد وقاحتي "نعم، لأن سحرة "لوبولو" الحقيقيين، الذين يعيشون في قريتي الأصلية كانوا قادرين على أن يقولوا لك مكان وتاريخ ولادتك، أما أنت فلستَ قادراً على ذلك، هذا ما أعرفه وما تعرفه أنت أيضاً"، أصبح الجو متوتراً فقالت زوجتي "أيها القدح المشعور، هل تستطيع أن تغلق فمك للحظة وتترك "ولا غلطة" الكبير يقوم بعمله"، أما أنا فلم أتوقف وتابعت في طرق المسمار في نعشي قائلاً للحضور "هذا الشخص دجال من الدرجة

الأولى، هذا ليس ساحراً، هذا ليس معالجاً حقيقياً، يريد أن يلتهم نقودنا، نعم يريد أن يلتهمها مثلما يلتهم كبار النصّابين في هذا البلد أموال المواطنين الشرفاء، إنه هو الشيطان، وليس أنا"، أخذ أهل زوجتي يشتمونني بينما كنت أكرر هرطقاتي، صرخت زوجتي بي "اصمت الآن أيها القدح المشعور، لماذا تتكلم هكذا إلى رجل يخشاه الجميع في هذه المنطقة، أأنت مجنون أم ماذا"، ضحكت مستهزئاً وشتمت هذا النصاب بحركة من يدي، بصقت على الأرض فقال والد زوجتي "الحقيقة أن زوجك هذا ليس زوجك الذي أعرفه"، وقالت أم زوجتي بدورها "بإذن الله سيغفر أجدادنا هذر صهري، لم أكن أعلم أن الشيطان يمكنه أن يضع مثل هذه الشتائم على فم مخلوق من مخلوقات الله"، وقال أخو زوجتي "ليس مخلوقاً من مخلوقات الله بل هو عدو المسيح بذاته"، وتحدث الفلاحون الآخرون والقرويون الآخرون والقرويات الأخريات بنفس الطريقة، ثم استأنفت زوجتي كلامها لأنها كانت تريد أن تضع عقارب الساعة على الوقت الصحيح "أيها القدح المشعور آمركَ بأن تقدم اعتذارك في الحال إلى "ولا غلطة" وإلى أجدادنا الذين ينظرون إلينا الآن، فبسببك لم تحصل عملية الانتقال والتواصل، ثم تحدث "ولا غلطة" أخيراً بعدما كان يتظاهر بأنه يتأمل فقال: "أشكرك يا سيدتي على قولك الحكيم، ولكن عليك أن تفهمي أن الشيطان يسكن جسد زوجك، إن هذا الشيطان هو الذي يتحدث هكذا، أعدك بأننا سنخرج هذا الشيطان من جسده، صدقيني، فليس مصادفةً أن أُدعى "ولا غلطة"، وكما تعلمون فقد صارعتُ أرواحاً أخطر من هذه"، فسيطر الغضب عليَّ من جديد وقلتُ

له "يا بائع الأوهام توقف عن سخافاتك أيها الكذاب، أيها النصاب الكبير، أيها المتبجح، أيها الشيطان، أيها المدَّعي غير الموهوب، أيها النهَّاب، أيها المستغل، أيها الرأسمالي"، قلت كل ذلك، فغضب "ولا غلطة" فجأةً وفقد أعصابه وابتسم ابتسامةً صفراء وصرَّ على بقايا أسنانه المتكلسة، وهذا ما كنت أسعى إليه ذلك أنني أردت أن يخرج عن طوره، فقال لي "تنعتني أنا بالرأسمالي، هه، أنت الرأسمالي، أنا رأسمالي أنا، كرِّرْ شتائمك أمام أطياف الأجداد وسترى أنني سأحوِّل فمك إلى فنطيسة خنزير"، صرخ هكذا فأصررت قائلاً "نعم، أنت رأسمالي حقير، رأسمالي حقيقي حقير، أنت تقوم باستغلال الإنسان للإنسان"، فازداد غضبه أيضاً وقال لزوجتي "اسمعي يا سيدتي، لا أستطيع أن أعمل هكذا، إن زوجك لا يحترمني ولا يحترم الأجداد، وهو يجرؤ على أن ينعتني بالرأسمالي، إنني أقبل كل شيء من الشيطان إلا أن ينعتني بالرأسمالي، هل أستغل الفقراء أنا، هل أحب الربح أنا، هل أقوم باستغلال الإنسان للإنسان أنا، أنا "ولا غلطة"، اسألي أياً كان وسيجيبك أنني أعيد البصر للعميان، والسيقان للمشلولين، والصوت للبكم، والمبايض للعاقرات، والانتصاب للرجال الذين لا يحصل عندهم حتى عندما ينفخ البول عضوهم في الصباح عادةً، وهل تعلمين عَرَضاً أنني ساعدت رئيس بلدية هذه المدينة كي يعاد انتخابه مدى الحياة، ولا أريد أن أتكلم عن نجاح الطلاب في الامتحانات، وعن الوظائف في الحكومة التي أعطيتها لأناس لم يذهبوا حتى إلى المدرسة، ولا أتكلم عن عودة زوجة قائد شرطة هذه المنطقة إلى بيت الزوجية، إذن لا يطلقون عليَّ اسم "ولا غلطة" جزافاً

هكذا، أتعلمون أنني شفيت المرضى الذين اعترف مستشفى "أدولف سيسيه" بإخفاقه في علاجهم، هه، إذن عندما أرى أغبياء من هذا النوع، أغبياء مثل زوجك يأتون لينتقصوا من شهرتي الأسطورية، يأتون ليدنسوا نقاء أقنعة الأجداد المعلّقة على الجدار، أقول إن هذا العالم قد خرب حقاً، وإن عدوّ المسيح قد جاء ها هنا عبر وسيط له، أقول لكِ إن مكان هذا الرجل في مستشفى المجانين، وأطلب منكِ أن تأخذي نفايتك هذه معك، اللعنة، ما هذه القصة، اخرجوا، أقول لكم أن تخرجوا، إنني أرفض معالجة هذا الشخص الذي لا يحترمني، اخرجوا من مكاني المقدس قبل أن أرميكم بسوء الطالع"، وأنا رحت أضحك مثل ذئب أمريكي صغير يعوي بنشيد زنوج "الميسيسيبي" مثل ذئب جبلي يتدرب على رقصة "باروكية"، فقلتُ لزوجتي "أصرُّ على ألا تنسي حذائي"، وأعادني أهل زوجتي إلى العربة خوفاً من أن يرميهم "ولا غلطة" بسوء الطالع، ولأنهم خافوا أن تأتيهم بنتيجة سوء الطالع هذا سلالاتٌ من ذرّيتهم ممن يولدون بفنطيسة خنزير أو بأقدامه أو ذيله، وهكذا أعادوني إلى المنزل، وهكذا أصبحت غبياً بنظرهم بيد أنني تخلصت لحسن الحظ من براثن "ولا غلطة" ذلك النصّاب الكبير.

غير أن محنتي لم تنتهِ هكذا لأن "ديابوليك" كانت تشكو باستمرار، وعليه فقد فطمتني ولم يعد هنالك من سيقان مشرعة في الهواء على مر الأيام والأسابيع والشهور في حين أنني كنت أحب ذلك كلما شربت، جميلٌ أن تقوم بذلك عندما تشرب، إذ يتكون لديك

انطباعٌ بأنك تحلّق عالياً في الهواء، لكن "ديابوليك" لم تعد ترغب في، ويبدو أنني كنت أفوح برائحة كريهة، ويبدو أنني لم أعد الشخص نفسه وأنني أصبحت أشبه الشيطان أحياناً، ومع ذلك لم يكن بإمكاني أن أغتصبها فهذا ليس من شيمي، منذ ذلك الوقت لم أضرب أي ضربٍ إذن، وبينما كانت تتدهور الأمور من يومٍ لآخر، أجلستني "ديابوليك" تحت شجرة بيتنا وكانت تريد أن تقول لي شيئاً هاماً فلم أرغب في سماعها وقلت لها "اتركيني بسلام، لم أضرب أي ضرب منذ دهور ولن أتكلم إلا إذا ضربت ضربي"، نظرتْ إليَّ نظرةً مليئةً بالشفقة وأخذت تتكلم بصوتٍ حزين، كادت أن تجعلني أبكي عندما ذكرتني أن الجميع يعرفوني في هذه الحارة سكّيراً في حين أنني كنت معلماً ممتازاً في مدرسة "تروا مارتير" الابتدائية، قالت بأنني لم أعد أقرأ روايات "فريدريك دارد أليا سان أنطونيو"، ولا حكايات "لافونتين"، ولا "رسائل الثرثرة"، ولا "يوميات خوري من الريف"، قالت إن بعض طلابي القدامى ما زالوا يحتفظون بذكرى عزيزة عني، وإن بعضهم الآخر أصبحوا مسؤولين في هذا البلد، أصبحوا أشخاصاً مرموقين يحتلون مراكز هنا وهناك في الحكومة، وإنني كنت مع ذلك المعلم الوحيد في تلك المدرسة الذي لا يجلد طلابه، وإنني كنت رجلاً أنموذجياً، ثم ذكرت كيف تم نقلي بقسوة من وظيفتي، صحيح أن ذلك كان فصلاً سيئاً في حياتي، لكنها الحياة، هكذا هي، أتراها غلطتي، أتراني قد أصبحت غير قادر على التدريس فعلاً، هه، هم من قالوا ذلك، أولئك الناس عديمو الضمير، أعتقد أنه يجب عليَّ أن أتحدث الآن عن ذلك، أن أقول

كلمتين أو ثلاث حتى لو برد فرّوجي المشوي على الحطب الذي لم أذقه حتى الآن بسبب كل هذه الأفكار.

عندما كنت معلماً يبدو أنني كنت أصل متأخراً إلى الصف دوماً كلّما شربت، ويبدو أنني كنت أظهر مؤخرتي للطلاب في درس التشريح، ويبدو أنني كنت أرسم أعضائي التناسلية الضخمة على السبورة، ويبدو أنني كنت أبول في زاوية الصف، ويبدو أنني كنت أقرص مؤخرات زملائي من الرجال والنساء، ويبدو أنني كنت أجعل الطلاب يتذوقون نبيذ النخيل، وبما أنه لا تخفى صغيرة أو كبيرة في هذا العالم، فقد تم إخطار موجّه المنطقة بسلوكي البدائي، كما أخطر رئيس قسم الشرطة في المنطقة بوقائع انحرافاتي، ولم يكن رئيس قسم الشرطة في تلك الفترة ليهمل أي قضية، إذ كان يفقأ الدمّلَ ما إن تظهر أعراضه الأولى، إذن كان رئيس قسم الشرطة هذا رجلاً حازماً وعنيداً وصعب المراس جداً، فطلب نقلي بكل بساطة وقال بصوت يشبه صوت النبي وهو يقرأ وصايا الله المحفورة على الحجر "أرسلوا هذا السكير إلى الأدغال، لم أعد أريده في منطقتي، فهو يعيق حملتي ضد الخمر، ولا أريد أن أفقد ترقياتي القادمة بسببه"، لقد أراد إذن أن ينقلني إلى الأدغال بأي ثمن، فقلت "لا" بطريقة قاطعة باتة، لن أذهب إلى الأدغال لأراقب مؤخرات الدجاج البري، وفي تلك اللحظة أخذ مفوض شرطة المقاطعة علماً بالأمر، لا أحد يمكنه أن يمزح مع هذا الرجل الذي يبلغ طوله أكثر من مترين، بل يتم تنفيذ أمره، نقطة انتهى، فصادق المفوَّض على فكرة

رئيس القسم بأن أقيم في عمق الأدغال بين الدجاج البري، فقلت "لا" و "لا" و "لا"، فأخذ مفوض الحكومة بدوره علماً بذلك، وكان مفوض الحكومة شخصاً أليفاً يبدو لوطياً لأنه يحرك مؤخرته كالمرأة عندما يمشي، ومع ذلك فقد قال مفوض الحكومة الأليف إن الأدغال هي الحل الوحيد لمن هم على شاكلتي، وبذلك لن أشرب إلا نبيذ النخيل الأقل ضرراً من النبيذ الأحمر حسب رأيه، فقلت "لا" و "لا" و "لا"، وفي هذه اللحظة أخذ وزير التربية بدوره علماً بذلك، فقال "ما هذه البلبلة التي تتم في منطقة "ترواسان"، إن الشراب لا يبرر الحماقة والعكس صحيح، انقلوا هذا السكير إلى الأدغال إذن، ولننهِ الأمر"، أخذ الأمر منحى كرة الثلج، فأصبح الحدث الصغير شأن الجميع"، الأدغال أم لا، ذلك هو السؤال، وعلى الفور راح آباء الطلاب يسحبون أبناءهم من صفي، ثم لم يعودوا يزودوني بالطباشير لأنني رحت آكلها أو أهرسها على ما يبدو، ثم لم يعودوا يزودوني بالأقلام لأنني رحت أظن القلم ميزان حرارة فأضعه في المكان الذي تتصورون، ثم لم يعودوا يزودوني بأقلام ملوّنة لأنني لم أعد أميز الألوان ولم أعد أعرف سوى الأحمر والأسود، ثم لم يعودوا يزودوني بالأدوات الهندسية لأنني على ما يبدو أصبحت عاجزاً عن رسم قطعة مستقيمة بحيث تكون أقصر مسافة تربط ما بين نقطتين، ثم لم يعودوا يزودوني بخارطة البلد لأنني على ما يبدو كنت أسميه باسمه الدارج في العهد الملكي، وقلت عالياً "إنني لا أكترث للأمر"، وإنني لست بحاجة لأي شيء كي أقوم بالتعليم، ورحت أعلّم بما يتاح لي من وسائل، أنا لا آبه للأقلام، ولا آبه للطباشير، ولا آبه للمساطر، ولا آبه لخارطة البلد لأن هذا

البلد خرا، فقد ورثنا حدوده من البيض عندما تقاسموا كعكتهم الاستعمارية في برلين، إذن لا وجود حقيقياً لهذا البلد، فهو حظيرة حيوانات تموت من الجوع".

وذات يوم وصلت إلى الصف ثملاً تماماً ووجدت طالباً واحداً جالساً في صدر القاعة، ومن حسن الحظ أنه كان أحد أفضل طلابي، فطلبت منه أن يتقدم ويجلس في أول مقعد ويكون فخوراً بتعطُّشه للمعارف التي تتوِّجُ بهالتها وجهَه الملائكي، إذن أعطيت درسي لهذا الملاك الصغير الذي كان ينظر إلي بعين الشفقة ذلك أنه ملاك حقيقي بعينيه البريئتين ونظرته الوديعة، وبقي في الصف وحيداً مع أنه لم يأتِ أحد من زملائه، جلس في النسق الأول واضعاً أدواته على المقعد، دفتره وقاموسه الصغير ومبراته وقلمه وممحاته وقارورة مياه "مايو"، فحدثته عن جمع الأسماء، صحيح أنني كنت ثملاً لكنني أذكر ما قلته بالتفصيل "أشكرك على مجيئك يا صغيري، ربما يكون هذا هو الدرس الأخير لي في هذه المدرسة، لقد أرسلك الله ها هنا، ولا بد أنك ستصبح رجلاً ذا شأن، رجلاً حقيقياً، هذا ما أتوقعه لك، ولهذا السبب أريد أن أعطيك قواعد الكتابة، أريد أن أشرح لك جمع الأسماء، فهذا مهم جداً في الحياة يا صغيري، والباقي سيأتي فيما بعد، ذلك أن الحياة مجرد قصة تافهة للمفرد والجمع، فهما يتناحران يومياً، وهما يحب أحدهما الآخر ويكره أحدهما الآخر، بيد أنهما محكومان بالعيش معاً، خذ إذن دفترك النهاري واكتب ما سأقوله لك، انتبه إلى أن جمع

الأسماء غير العاقلة تأخذ حرف "s" في نهايتها عموماً، ولكن انتبه يكون الجمع كالمفرد إذا كان المفرد ينتهي بـ"s" أو "x" أو "z"، وفي الحال سنرى جمع الأسماء المركبة والأسماء الأعجمية غير العاقلة"، في هذه اللحظة سمعت جلبة وغضباً في الخارج، عدداً كبيراً من المتطفلين، استدرت فرأيت عشرة من رجال الميليشيات يدخلون إلى الصف صارخين في وجهي ومصحوبين بوالِدَيْ طالبي الأخير الذي أخذ يبكي لأنه لم يكن يرغب في الخروج من الصف، لأنه كان يريد أن يأخذ الدرس حتى نهايته وأن يتبع طريقه المدرسية فلا يندم على طيش الطفولة فيما بعد، وركلني رجال الميليشيا على مؤخرتي، فتخبطتُ كالشيطان، وراح طالبي يبكي ويحاول أن يدافع عني، فاستسلمت بلا قتال وقلت للملاك الصغير "شكراً يا ملاكي أنت أكبر من هؤلاء الناس الذين يرمونني بالحجارة، أنت الأكبر لأنك الوحيد الذي يفهم، إن صليبي ثقيل تماماً لكنني سأحمله بلا شكوى، لا تبكِ، سنلتقي في الجنة"، وأومأ الملاك الصغير إليَّ بإشارة تعاطف قبل أن يمسح دموعه، وهكذا مُنعتُ من أن أطأ أرض المدرسة وأنا في الأربعين من العمر فقلت جهاراً نهاراً "أنا لا آبه لذلك، فهذا لن يجعلني أشعر بالحر ولا بالبرد"، وتم إيقافي عن العمل، انتظرت أسبوعين، شهراً، شهرين في البيت دون أي جديد، وحلّتْ امرأة عجوز محلي في الصف، وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أشهر، تلقيت من الحكومة رسالة مطولة سيئة التعبير بحيث أمضيت يومي كله في تصحيح أخطاء القواعد والنحو الواردة فيها، كانوا يقترحون عليَّ وظيفة في زاوية نائية من أقاصي البلاد حيث

لا يوجد كهرباء في حين أن لينين قد قال، على حد ما ذكره عبيد مكتب القائد العام للجيش "إن الشيوعية هي مجلس السوفيات وكهربة البلاد.

في تلك الفترة العصيبة توسلتْ "ديابوليك" إليَّ كي أقبل حل الفرصة الأخيرة، قالت لي إن الأدغال ليست نهاية العالم، وإن الحياة ستكون أقل غلاءً هناك، وإن الصيد يأتي طازجاً من خلف المنزل، وإن الأسماك تدخل لوحدها في الشباك، وإن أغصان الأشجار المثمرة منخفضة جداً بحيث يضطر الأقزام إلى الانحناء بغية السير تحتها، وبرهنت لي على أن الأدغال جيدة، وأن الأموات لا يصطفون على الدور هناك ذلك أن ثمة متسعاً من المكان دوماً في مقبرة القرية، وأن السكان طيبون وبسطاء، فقلت لها "حسناً، الأدغال إذن"، شعرت "ديابوليك" أنني أراجع موقفي فأجابتني "أيها القدح المشعور، هل أموت وأنا أكرر ما أقول، منذ عدة أيام وأنت لا تريد أن تصغي لي، إنك تتشبث بالمدينة مثل صغير الكنغر الذي لا يريد أن يخرج من جراب أمه"، فسألتها في الحال "ولكن لماذا لا يندفع الناس إلى هناك طالما أنها أفضل من المدينة، هه"، فقالت "لأنهم حمقى، وهذا كل ما في الأمر، أما أنت فأنت ذكي وتستطيع أن تفهم أن الأدغال هي الحياة"، وسألتها بنوع من القلق "أنت واثقة حقاً من أنهم لم يرسلوني إلى الأدغال عقوبةً لي، هه"، أجابت بأننا لن نمضي نهارنا في مناقشة ذلك، وأن هذا الحل هو الأفضل، الأفضل لكلينا نحن الاثنين، وأنها سوف تحبني وسوف

أحبها ونعيش سعيدين بعيداً عن المغتابين والحسَّاد، ولإقفال النقاش أضافت "ديابوليك" أنني إذا قبلت هذا الاقتراح فستتركني أشرب كما أريد، ووعدتني بأنها ستبحث لي عن شخص يجلب لي نبيذ النخيل، نبيذ النخيل الجيد كل صباح، شعرت فجأة بالراحة ذلك أن "ديابوليك" لا تريد سوى الخير لنا، ورحت أتصور هذه الحياة الجميلة وزجاجة نبيذ النخيل إلى جانبي، ولهذا السبب بعد يومين من النقاش المستفيض كان قسم من قلبي يقول نعم للأدغال بينما كان القسم الآخر لا يريد مغادرة المدينة ويهمس لي أنني سأعيش في أشراك فخٍ دائم، راح قلبي يتأرجح إذن، الأدغال أم لا، ذلك هو السؤال، وخلال ذلك الوقت شعرت بتعطش كبير، تعطش للنبيذ الأحمر، ولمَّا لم أستطع صبراً، ذهبت ذات يوم لأعبَّ منه، وعدت إلى البيت ثملاً كالعادة، وكنت أشدو بصوت عالٍ بأغنيتي المفضلة "نموت من اجل المبادئ"، ورحت أسمع هذا المطرب ذا الشاربين والذي يدخن الغليون وهو يغني كما لو كان يغني من أجلي، من أجلي فقط، فيقول بصوته الرصين "لقد عرفوا كيف يقنعوني، وملهمتي الحمقاء، تجاهلتُ أخطاءهم، فتحالفت معهم، بشيء من التحفظ مع ذلك"، وراح المطرب نفسه يقول لي بوضوح وكأنه يحذِّرني "إن الأمر المرير، الذي نأسف له، عندما نسلم روحنا لله، هو اننا قد ضللنا الطريق"، وأنا الذي كنت أحفظ هذه الأغنية عن ظهر قلب لا أريد أن أضل الطريق، ولا أريد أن أغير أفكاري فأقترن بأفكار غير صالحة، وقد علَّمني هذا المطرب أن الأشخاص الذين يطلبون من الآخرين أن يموتوا من أجل المبادئ هم

آخر من يقدم المثل على ذلك، ولماذا لا يذهب هؤلاء الذين يعلمون الأخلاق الحميدة ليعيشوا في الأدغال، هـه، رفضت إذن أن أذهب إلى منفاي هناك، في أقاصي البلاد، لأنني لا أرغب في أن أكون سكّير الأدغال، وبما أنني رفضت بصورة قاطعة هذه الفرصة لانتشالي، اغتنمت الحكومة فرصتها لتشطبني من الملاك وكتبوا لي أشياء من قبيل "سيدي العزيز، على الرغم من رغبتنا في إيجاد اتفاق حول وضعك الحالي، فقد تأكد لنا بمزيد من الأسف أنك ما زلت مصمماً على موقفك بعناد لا يلين مما دعانا لنتخذ قراراً تم اقتراحه من السلطات التي تشرف على التربية الوطنية، ولا شك أن نتائج هذا القرار ثقيلة عليك لأنها تلزمنا بإنهاء عملك دون الحق بالاستئناف، ومع ذلك فنحن نمنحك أسبوعاً للتفكير، وإذا لم تتصل بنا فسيكون القرار نافذاً يوم ٢٧ مايو/أيار منتصف الليل، ولن تستطيع بعد هذا التاريخ أن تستفيد من أحكام المادة ٧ مكرر من الفقرة "هاء"، ولا من أحكام المادة ٣٤ من الفقرة "واو" المعدلة بقانون ١٨ آذار/مارس ١٩٧٧"، فقلت في نفسي "أنا لا أكترث لذلك، وهذا لا يعنيني، ثم إنني لا أفهم شيئاً من هذا الهراء"، وذهبت لأروي كل ذلك لصديقي الجديد الحلزون العنيد، كان ذلك في الوقت الذي كان لديه هو أيضاً متاعب مع السكان بسبب باره الذي افتتحه، وبّخني قليلاً، ثم قال هذه هي الحياة، يومٌ لك ويومٌ عليك، المهم أن أبقى واقفاً في مهب الريح، المهم أن أتكيف مع مصيبة الفردوس المفقود، لم أعد أدري أي شاعر زنجي أفريقي قال أشياء كهذه، مما لا شك فيه أنه

شاعر يجتهد الشعراء الجدد غير الموهوبين، أولئك الورثة البؤساء، على سرقة أبياته.

لا بد من الإشارة إلى أن "ديابوليك" لم تكن لتفهم ميلي إلى الكحول، فكانت تبرر ذلك كيفما اتفق فتفسره بموت أمي، ولكن ما الذي تعرفه عن موتها، هه، ماذا تستطيع أن تزيد على لغط حارة "ترواسان"، لم أكن أرغب في أن تأتي على ذكر موت أمي، حينذاك كنت أغضب وكان بإمكاني أن أصبح عدوانياً، على أنني كنت أسيطر على مشاعري دوماً ولم أكن لأصل إلى الغضب تماماً، فهل انتقدتُ أنا أمها التي تتمتع بعين أصغر من الأخرى، هه، هل انتقدتُ أباها الذي يتمتع بقدم مشوّهة وفتق بين الساقين، هه، لكن "ديابوليك" أخذت راحتها على مداها إذ أصرت على الموضوع وأيقظت جثة والدتي وأزعجتها بينما كانت تخلد في راحتها الأبدية، لا يمكن اللعب مع الأموات بهذه الطريقة، يجب وضع الأشياء في سياقها تماماً، لم أكن لأنتظر موت أمي كي أبدأ بالشراب حتى لو كان رحيلها، وأعترف بذلك، قد سرَّع من وتيرة الأمور، وهذا يعني أنني كنت حزيناً عندما قرنَتْ "ديابوليك" عبادتي المفرطة للكحول مع موت أمي المسكينة، وكان من الواضح أنني لا أستطيع أن أتركها تستنتج مثل هذا الاستنتاج، وأقول بالأحرى إنني خففت من عدد الزجاجات في الأسابيع التي تلت موت أمي، وكان ذلك بالنسبة لي بمثابة نوعٍ من الحداد واحترامٍ أكنه لها، ولم أستعد ذروة نشاطي

إلا عندما كنت واثقاً من أن جثة أمي قد تعفنت وأن روحها قد وصلت أخيراً إلى جنة عدن.

لنقل إنه إذا كانت أمي قد ماتت غرقاً في مياه نهر "تشينوكا" الرمادية فهذه ليست غلطتها، إنها قصة غامضة ومع ذلك فسوف أقول فيها كلمتين أو ثلاث كي تصبح الأمور أكثر صفاءً من مياه "تشينوكا" لأنه يجب التفريق بين الأموات ولو كان الموت واحداً، أريد أن أقول كلمتين مع احتمال أن يبرد فروجي المشوي على الفحم كلياً، لكنني سآكله مع ذلك في الحال، إذن ليلة رحيلها إلى العالم الآخر حلمت أمي بكابوس غريب، وحينذاك نهضت مغمضة العينين فاغرة الفم ممدودة الذراعين إلى الأمام كما لو كانت مدفوعة بقوى خفية أو بأطياف ليلية، فتحت باب كوخها كي تذهب إلى النهر على أمل الالتحاق بأبي الذي لم أعرفه، ويبدو أنه كان شارباً مشهوراً لنبيذ النخيل في "لوبولو"، ويبدو أنه كان لديه هوايتان، "الجاز" ونبيذ النخيل، وعليه فإن شباباً مثل "كولتران"، و "آرمسترونج" و "دافيس" و "مونك" و "باركر" والزنوج الآخرين الذين يعزفون على الأبواق و "الكلارينيت"، كان يعرف ألحانهم التي ربما ابتدعها الزنوج في حقول القطن والبن كي يتعايشوا مع المعاناة التي فرضت عليهم في أرض أجدادهم وكي يتخلصوا من آلام كرابيج سادتهم الذين يستعبدونهم ولا يفهمون لماذا تغني العصافير في الأقفاص، وهذا يعني أن أبي كان مغرماً بهذه الأنغام التي ابتدعتها أيدي الزنوج، ويروى أنه قد جمع

اسطوانات[1] هؤلاء الفنانين من سرعة ٣٣ و ٤٥ دورة في الدقيقة، ويبدو أنه مات كما توقّعَ المنجمون، فقد أُطلق عليه عيارٌ ناري لا يستطيع أن يتفاداه إلا من كان له أربع عيون، أُطلق عليه العيار الناري في الظهر بينما كان نائماً لأنه كان ينام على بطنه دوماً على الرغم من تحذير عدة منجمين له في "لوبولو"، وكان عمُّه هو من أطلق النار عليه كي يرث ما يملكه شارب نبيذ النخيل عادة، مجرد اسطوانات الزنوج من سرعة ٣٣ و ٤٥ دورة في الدقيقة، لكن هذه القصة التي كانت أمي تحاول أن ترويها لي معقدة جداً، ذلك أنها كانت تريد أن تبرر سبب هربها من قرية "لوبولو" إلى المدينة، فقد قررت أمي أن تغادر قرية الشجعان هذه بغية حمايتي من السحر وأولئك الذين يحقدون على أبي حتى بعد وفاته، وعندما كانت تقص عليّ قصة هذا العيار الناري الليلي الغامض كانت ترى أنني كنت أتشكك فيها على الرغم من أنني لم أكن أبلغ عامين من العمر، لا أستطيع أن أقول فيما إذا كنت أشبه أبي، لكنهم يقولون إن ملامحي تشبه ملامح هذا الرجل المقيت الذي قتل أبي بجبنٍ وبرودة أعصاب والذي ورث منه عدة السكير واسطوانات زنوج الأبواق و "الكلارينيت" من سرعة ٣٣ و ٤٥ دورة في الدقيقة، وإن موت أمي ليبدو لي غامضاً مثل موت أبي، وعند وفاة هذه المرأة الشجاعة ذكرت الصحف خبر وفاتها في صفحة الأخبار المنوَّعة

١- الاسطوانات هي الجيل الأول من أقراص التسجيل الصوتي (ما قبل اشرطة الكاسيت) وكانت تدور على جهاز يدعى "الفونجراف" بحيث يصدر الصوت عبر احتكاك إبرة "الفونجراف" بقرص الاسطوانة (المترجم).

مثلما تذكر خبر حادث مروري في الليل، وعنونت مقالها بجثة امرأة عجوز عثر عليها على حواف نهر "تشينوكا"، ولذلك فأنا أشتُم الماء كلما مررت بجانب هذا النهر وأبصق على الأرض وأرمي الحصى في الماء بعيداً نحو أعماق هذا المجرى المائي الشيطاني وأصرخ في وجه الظلم.

كنت قد انطلقت في الحديث عن أمي فظهر طيف أبي العابر، لا بد من أن أعود أدراجي وأقول إن موت أمي كان غامضاً، فقد أفاقت في الليل على كابوس مريع، ومشت نحو نهر "تشينوكا"، وهناك لعبت دوراً توراتياً بالتفصيل، ومشت على مياه نهر "تشينوكا" كما لو كانت تريد أن تلتحق بأبي في العالم الآخر، ثم بلعتها مياه "تشينوكا" الرمادية قبل أن ترميها كجيفة على الضفة، وقبل أن تقول لها بأنها لا ترغب في الحفاظ على جثتها الهزيلة في أحشائها، فوجد رجال الإنقاذ جثتها المشوهة التي قضمتها هنا وهناك الأسماك الصغيرة اللئيمة وأسماك أخرى من نوعٍ خبيثٍ كانت تسأم في لجة هذه الموجة النجسة، ومرت ليلة العزاء الأولى في بيتنا، كانت جثة أمي معروضة في الخارج كما تقضي عادات "لوبولو"، وفي هذه النقطة أستطيع أن أشكر "ديابوليك" فقد أحسنت الاعتناء بأمي، كما أنها هي من وزعت دفتر الحسنات في المنطقة كلها كي يساعدنا السكان في مصابنا، وهي التي ذهبت إلى مستودع الجثث كي تتأكد من الجثة لأنني لم أكن أحب رؤية الجثامين، وهي التي أشرفت على سهرة الندب عند النساء، وبينما كانت هؤلاء النساء يتنافسن في

الندب الحزين، كانت "ديابوليك" تقوم بطرد بعض الذبابات الخسيسة التي كانت تحوم حول جثمان أمي، وهي قد أشرفت أيضاً على غسل الجثة إذ ليس من السهل على أي كان أن يقوم بذلك، وهي التي أرسلت بطاقة النعي إلى الإذاعة ليتم الإعلان عن موت أمي، وهي التي أرسلت بطاقةً ثانيةً لتشكر كل من تفضل بمواساتنا في العزاء، وخلال فترة الحداد كانت "ديابوليك" ترتدي ثياباً سوداء، وقد طلت وجهها بالصلصال، وحرصت على الصوم أثناء فترة العزاء، ومشت حافية القدمين ولم تعد تمشط شعرها، ولم تعد تنظر إلى الرجال ولا تكلمهم ولا تلقي التحية عليهم حسب العادات السائدة لدينا، وأستطيع أن أستنتج من ذلك بصدق أنها كانت امرأة لا يمكن أن يعاب عليها أي شيء من هذه الناحية.

وبما أنني ابناً وحيداً ويتيم الأب أصلاً، فقد اعتقدت "ديابوليك" أنني لجأت إلى الكحول على أمل الانتقام عبر النبيذ الأحمر لأنني لا أستطيع أن أشرب كل مياه نهر "تشينوكا" الرمادية كي أنقذ ذكرى أمي، أقسم بأنني كنت أرغب في إعادة بناء حياتي وفي ترقيع المهترئ ورتق الثقوب والتوقف عن معاشرة الخمر، أما أن يتم نقلي من التعليم فهذه ليست غلطتي، وأقسم أيضاً أنني كنت أحب التعليم، وأقسم أنني كنت أحب أن أكون بين طلابي الصغار، وأقسم أنني كنت أحب أن أعلمهم جدول الضرب، وأقسم أنني كنت أحب أن أعلمهم اسم المفعول في جميع حالاته، وكان التلاميذ الصغار يسألوني مشدوهين متعجبين لماذا كان اسم المفعول

على هذه الشاكلة أمس ولماذا هو اليوم على شاكلة آخرى فكنت أجيبهم بأن الاستثناء في اللغة الفرنسية أقوى من القاعدة، وكنت أقول لهم إنهم عندما يفهمون ويحفظون جميع حالات الاستثناء في هذه اللغة المتقلبة تقلُّبَ الطقس فسوف تتشكل القواعد لديهم من تلقاء نفسها فتسيل كالينبوع، حتى أنهم يستطيعون أن يهزؤوا بهذه القواعد ويهزؤوا ببنية الجملة ما إن يكبروا ويعرفوا أن اللغة الفرنسية ليست نهراً طويلاً هادئاً بل نهر متعرج لا بد من تحويل مجراه.

وبالنظر عن كثب ما كنت لأكون معلماً لأنني لست حاصلاً على الشهادة العليا في التعليم، كما أنني لم أتخرج من معهد إعداد المعلمين، ولكن الشهادات تفسد أمور الحياة، فالمواهب الحقيقية تأتي في الغالب حسب الظروف، ففي الغالب لا يصبح الناس الذين يجلسون على مقاعد الدراسة طويلاً معلمين ناجحين، وفيما يتعلق بي أنا، فقد أجبروني على الدخول في هذه المهنة قبل أن أنتهي من سنتي الثانية في معهد "كينجيه بولين"، إذ قررت الحكومة أنه بالنظر لوجود نقص في كادر المعلمين في البلاد فإن على جميع الحاصلين على شهادة التعليم الابتدائي أن يذهبوا إلى التعليم، وهكذا وضعت أنفي الشبيه بأنف المهرج في التعليم، وهكذا تعلمت المهنة عبر ممارستها ميدانياً، لكنني في الحقيقة كوَّنتُ نفسي بنفسي على الرغم من مجيء أحد السخفاء من العاصمة السياسية ليعطينا دروساً مكثفة في التربية، كان هذا الشخص الذي يضع نظارتين على عينيه يزعم أنه

مفكر، ويقول إنني لست موهوباً وإنني أتكلم وألفظ الفرنسية بشكل سيّئ، وإن الحكومة قد اقترفت خطأً كبيراً عندما تركت للجهلة من أمثالي مسؤولية إرشاد الأطفال إلى طريق الحياة، ومنذ ذلك التاريخ بدأت أكره المفكرين جميعاً بأطيافهم المختلفة، ذلك أن الأمر يكون مع المفكرين هكذا، فهم يتناقشون باستمرار ولا يصلون لأي نتيجة ملموسة أبداً، أو يكون هناك نقاش يستوجب نقاشات أخرى لا تنتهي، ثم يستشهدون بمفكرين آخرين قالوا هذه الجملة أو تلك، ثم يزعجون الناس فيعاملونهم على أنهم حمقى وأغبياء وعميان، كما لو أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون أن يتفلسف، والمشكلة أن هؤلاء المفكرين المزعومين يتفلسفون دون أن يعيشوا، فهم لا يعرفون الحياة، هذه الحياة التي تتابع سيرها مستهزئةً بتنبؤاتهم التافهة الشبيهة بنبوءات "نوستراداموس"[1]، ثم يتبادلون التهاني فيما بينهم، ولكن الغريب في الأمر أن هؤلاء المفكرين المزعومين يحبون الملابس الجميلة والنظارات المدورة وربطات العنق، ذلك أن مفكراً دون ربطة عنق يكون مثل رجلٍ عارٍ غير قادر على التفكير بثقة، في حين أنني فخورُ بسيرتي، فأنا لست مديناً بها لأحد، وقد صنعت نفسي بنفسي مع أنني لا أعرف أن أعقد ربطة العنق، ومع أنني قد قرأت ما تيسَّر لي من هنا أو هناك، ثم أدركت ألا أحد على وجه البسيطة يستطيع أن يقرأ كل شيء، فالعمر لا يكفي ليستطيع المرء أن يقرأ كل شيء، ثم لاحظت أن عدد الناس الذين يتحدثون عن الكتب الرديئة أكثر من عدد من

١- طبيب وفلكي فرنسي مشهور من القرن السادس عشر (المترجم).

يقـرؤون ويتكلمـون عـن الكتـب الحقيقيـة ، وأن أولئـك الـذين يتحـدثون عـن الكتـب الرديئـة هـم الـذين لا يتسامحون مـع الـرأي الآخر، فليذهبوا ويثبتوا أنفسهم في مكان آخر، أفلا يوجد سواهم على هذه الأرض، على أن هـذه ليست مشكلتي ولست أكتب هـذا الـدفتر لأعطـي الـدروس للنـاس، فعلـى كل واحـد أن يـزرع حديقتـه بيده كما يستطيع.

كنت أدرك جيداً أنهم سينقلوني من مكاني في التعليم، كـان الخمر هو السبب، وبعد شهرين تماماً من نقلي، بينما كانت جثة أمـي لم تتعفن بعد ، أخـذت "ديابوليك" تنـام عنـد أهلها تاركـةً البيت فارغـاً لأنـه لم يكـن لـدينا أطفـال، حينـذاك مـرَّ بـه كـلُّ لـصوصِ الحـارة وأوباشـها فنهبـوا كـل شـيء، تلفزيـوني ومـذياعي وطاولـة طعـامي وسريري وكتبي وبخاصة روايات "سان - أنطونيو" التي كنت أعتبرهـا أكثر من كتب لأن النـاس المضربين عـن الحيـاة كـانوا قـد فرضوهـا علينا معياراً لدرجة الثقافـة، إذن لقـد نهـب هـؤلاء اللصوص كل شيء حتـى أنهـم أخـذوا الروايـة الأخـيرة الـتي كنـت أقرؤهـا وهـي بعنـوان يوميات لص، وأنا واثق من أنهم كـانوا يتصورون أنهـم سيجدون فيهـا أشياء يتعلمون من خلالها كيف يسرقون ويفلتـون مـن قبضـة الـشرطة، وقد حمّلتني "ديابوليك" مسؤولية كل ذلك، وقالت بـأن الـسكارى مـن أصدقائي هـم الذين سرقوا أشياءنا، وقالت بأنني أغطّي عليهم، وإنـني متـواطئ معهـم، ثـم رحلـت نهائيـاً تاركـةً لـي قـصاصة ورقـة كتبـت عليهـا، في منتـصف الليـل ربمـا، "أنـا راحلـة"، وعنـدما قلبتُ قـصاصة

الورقة تبيَّنتُ أنها أضافت عليها في منتصف الليل أيضاً عبارة "لا بد من أن أتعلم كيف أضع نهاية للأمر، أما أنا فلم أفهم شيئاً من هذه البرقيات، ثم بحثت عنها في كل مكان، في أزقة حارة "ترواسان"، في مركز المدينة، في مجالس العزاء، ثم رأيتها ذات يوم تمر من أمام بار الدين المسافر، اعتقدت أنني كنت أحلم، ركضت خلفها، توسلت إليها، سألتها "أنت بخير"، وأضفت "لا أستطيع أن أعيش دونك، أنا متعب جداً، عودي إلى المنزل"، لكنها ظلت على موقفها، رمقتني بنظرةٍ من رأسي إلى أخمص قدمي وقالت "أنت متعب منذ زمن، أنت لن تتغير، اتركني بسلام أيها المتشرد المسكين".

بدأت أصبح أحد أكثر الزبائن المواظبين في بار الدين المسافر في العام الذي طردت فيه من التعليم، فعززت علاقتي بالحلزون العنيد، أصبحت فيه كقطعة أثاث بحيث قال لي صاحبه "أتعلم أيها القدح المشعور لو كنت ترى بوضوح أكثر لعيَّنتُكَ نادلاً هنا"، فأجبته "إنني أرى بوضوح وإذا كنت تشك ببصيرتي فما عليك سوى أن تسألني في جدول الضرب"، فقال "لا، أيها القدح المشعور، ليس الأمر مسألة جدول الضرب بل هو مسألة بصيرة"، فقلت له إنني ذو بصر ثاقب فضحك وشربنا وضحكنا معاً، وكنت أتردد دوماً على شجرتي التي كنت أبول تحتها راوياً لها قصة تشرُّدي، وكانت الشجرة تبكي وهي تصغي إلي لأن الأشجار مهما قيل عنها فهي تذرف الدموع، وقد حدث الآن أنني شتمت "ديابوليك" أمام هذه الشجرة وشتمت أمها التي تتمتع بعين أكبر من الأخرى وشتمت أباها

الـذي يتمتـع بقـدم مـشوهة وفتـق بـين الـساقين، وفي هـذه اللحظـات الصعبة كانت الشجرة فقط هي من تفهمني، فتحرك أغصانها دلالةً علـى موافقتهـا علـى كلامـي وتهمس في أذنـي أنـني رجـل طيـب وأن المجتمع هو الذي لا يفهمني، وهكذا كانت تتم أحاديث طويلة بيني وبـين هـذه الـشجرة مثلمـا قـال زنجـي للقبطـان عنـدما جلب لـه مـاء القهـوة، ووعـدت صـديقتي الوارفـة أنـني سـأتحول إلى شـجرة عنـدما يدعوني الله للقائه.

عنـدما أصـبحت مـدمناً حقيقيـاً لم أعـد أغـادر بـار الـدين المـسافر، كنـت أسـهر فيـه سـواء أكـان الطقـس ريحـاً أم مطـراً، لم أكن أغادر هذا المكان الذي يتبناني، ولم أكن أتصور وجود مكـان آخر سواه، ففـي منتصف الليل كنـت أنـام علـى الطاولـة بعد أن أكـون قد تناولت شواءً كانت تبيعه امرأةٌ من دولة "بنين" قبل أن تترسخ سلطة مغنيتنـا الـصلعاء الأم "مفـوا"، كانـت حيـاةً هانئـةً ولا بـد مـن أن أشـير بـصورة خاصـة إلى أنـني فخـور بلحظـات الماضـي تلـك، فـلا يـأتي أحـد ليقول لـي إنني كنت أتخبط وأضجر وأندم على رحيل "ديابوليك" وإنني كنت أنتقدها بشدة وإنني كنـت سـأكتب رسـالة عتبٍ إلى صـديقٍ لم ينقذ حياتي أو أنني كنت سـأتقدم بطلب استرحامٍ لها.

تناهى إلى سمعي منذ فترة ليست بعيدة أن "ديابوليك" تعيش مع زوج صالح وأنهما رزقا بأطفال، أنا لا آبه لـذلك، فليس هنـاك مـن زوج يصلح لها، إنما أنا الرجل الوحيد الذي يناسبها، والآخرون ليسوا سوى

نفعيين وكذابين سوف يستنزفونها حتى يتعبوها، أنا لا أغار حتى لو أنني لم أضرب أي ضرب منذ فترة طويلة، وأنا أدرك أن حياتي الجنسية مثل صحراء التتار، لا شيء أمامها، ولا شيء وراءها، ليس هناك سوى أطياف نساء يحدثنني، وفي الواقع أنني رجل أرغب في حب بعيد، يجب عدم الاعتماد عليَّ إذن في الحديث عن الحب والشياطين الأخرى، ولحسن الحظ أنني في زمن النحس هذا حافظت على حب زجاجات الخمر، فهي فقط تفهمني وهي فقط تمد ذراعيها إلي، وها أنا ذا في هذا البار الذي أحببته والذي سأحبه إلى الأبد أنظر لحركات وأفعال الناس وأراقبها وأسجلها، ولهذا ينبغي عليَّ أن أفسر سبب هذا الدفتر بدقة، وأن أحدد الظرف والكيفية اللتين أجبرني الحلزون العنيد فيهما على أن أكتب وأشهد وأخلّد ذكرى هذه الأماكن.

حقيقة الأمر أن الحلزون العنيد قال لي ذات يوم على حدة كمن يقول سراً "أيها القدح المشعور أريد أن أعترف لك بأمر يؤرقني، في الحقيقة أنني أفكر منذ مدة طويلة بأمر مهم، ينبغي عليك أن تكتب، أن تكتب كتاباً"، فقلت مندهشاً نوعاً ما "كتابٌ عن ماذا"، فأجابني وهو يشير بإصبعه لسقف بار الدين المسافر هامساً في أذني "كتاب يتكلم عنّا هنا، كتاب يتكلم عن هذا المكان الوحيد في العالم إن لم نأخذ بعين الاعتبار "كاتدرائية نيوبيل" في الكاميرون، وضحكت، اعتقدت أن لديه فكرةً تطن في رأسه، وأنه ينصب لي فخاً محكماً، فقال "لا تضحك، أنا جاد فيما أقول،

وأعلم أنك تستطيع ذلك" ، وعندما رأيت نظرته الجدية أدركت أن الأمر ليس طرفة مقابل فرنكين كونغولين، فأجبته "لكنك أنت رب العمل، وأنت أقدر مني على نقل الأمور التي تتم ها هنا، فأنا لا أعرف من أين أبدأ" ، فقدم لي قدحاً وقال "صدقني أنني حاولت عدة مرات، لكنني لم أكتب أي شيء لأنني لا أملك هذه الدودة التي تنخر دماغ أولئك الذين يكتبون، أنت لديك هذه الدودة، يتضح ذلك عندما نناقش الأدب فتلمع عيناك وتطفو التأوهات على سطح أفكارك، لكن ذلك ليس دجلاً وليس ادعاءً، لأنني أعلم أنك يمكن أن تكون أياً كان إلا دجالاً أو مدعياً، لن تندم على أي شيء أيها العجوز" ، لزمت الصمت فتابع حديثه "أتعرف، أذكر حديثاً من أحاديثنا حدثتني فيه عن كاتب مشهور كان يشرب كالإسفنجة ، ماذا كان اسمه" ، لم أجب فتابع قائلاً "حسناً ، منذ حوارنا ذاك قلت في نفسي إنك أخذتَ تشرب كي تقتدي بهذا الكاتب الذي نسيتُ اسمه ، وعندما أراك اليوم أقول في نفسي إنك متأثر به ، زد على ذلك أنك تسخر من الحياة لأنك تقدّر أن باستطاعتك أن تخلق حيوات عدة وإنك لست سوى شخصية من الكتاب الكبير لهذا الوجود التافه ، أنت كاتب ، وأنا أعلم ذلك وأحس به ، أنت تشرب لهذا السبب فأنت لستَ من عالمنا ، وفي بعض الأيام يتكوّن لدي انطباع بأنك تحاور أشخاصاً مثل "بروست" أو "همنغواي" ، أشخاصاً مثل "لابو تانسي" ، أو "مونجوبيتي" ، نعم أعرف ذلك ، حرر نفسك إذن ، لستَ كبيراً على الكتابة مطلقاً" ، رأيته للمرة الأولى يشرب كأسه جرعة واحدة ، في حين أن جرعته تعادل نصف الكأس عادةً ، ثم قال بلهجة حاسمة "أيها

القدح المشعور، أخرج غيظك من داخلك، تفجَّرْ، تقيَّأْ، ابصقْ، اسعلْ أو اقذفْ، لا يهم، ولكن قدِّم لي شيئاً عن هذا البار، عن بعض الأشخاص الذين يرتادونه، وعن نفسك بصورة خاصة"، أخرستني هذه العبارات، كدت أن أذرف الدمع، لم أعد أذكر عن أي كاتبٍ سكّيرٍ تحدثنا، ثمة كتَّاب كثيرون كانوا يشربون على كل حال، وهناك ممن يشربون حتى الموت من الكتَّاب المعاصرين، ما هذه الطريقة التي دخل عبرها الحلزون العنيد إلى فرني الداخلي في ذلك اليوم، هه، وكي أحمي نفسي قلت وكررت القول "أنا لست كاتباً، ثم إن حياة الناس هنا أو حياتي لا تهم أحداً، إن حياتنا ليست مهمة ولا تملأ دفتراً"، فأجاب على الفور "لا تأبه لذلك أيها القدح المشعور، ينبغي عليك أن تكتب، فهذه الحياة تهمني أنا"، كنت فخوراً بأنه طلب ذلك مني، وفي الحقيقة أن الفكرة بدأت تطن في رأسي منذ تلك اللحظة، وتحت تأثير الأقداح الحمراء التي شربتها بلا توقف، شرحت للحلزون العنيد ما هي رؤيتي للكتابة، كان التعبير عن ذلك بسيطاً لأن من السهل على المرء أن يتحدث عن الكتابة عندما لا يكون قد كتب شيئاً، فقلت له إن الجميع في هذا البلد الخرا يفرضون أنفسهم أدباء في حين أن كتاباتهم تفتقر للحياة، وقلت له إنني قد شاهدت في التلفزيون في بارٍ في جادة "الاستقلال" بعضَ هؤلاء الأدباء الذين يرتدون ربطات عنق وصدرات وشالات حمراء ونظارات مدورة أحياناً، ويدخنون الغليون أو السيجار كي تبدو أهميتهم، وكأن الإنسان الجيد هو الإنسان المتأنق، هؤلاء الأدباء الذين يأخذون صوراً بمظهر من ترك عملاً رائعاً خلفه، فهم لا يريدون أن يتحدث أحد إلا عن

عظَمَتهم، وهناك من بينهم من يدّعون أنهم أدباء غير محبوبين وأنهم مقتنعون بعبقريتهم في حين أنهم لم ينتجوا سوى ذرق العصافير، إنهم ذهانيون، جلفاء، غيورون، حسَّاد، يزعمون أن مؤامرة دائمة تحاك لهم، حتى أنهم يهددون إذا ما مُنحوا جائزة "نوبل" في الأدب ذات يوم فسوف يرفضونها رفضاً قاطعاً لأن أيديهم ليست قذرة، لأن جائزة "نوبل" في الأدب هي سجنٌ، جدارٌ، موتٌ للنفس، وتتم الأحاديث لدرجة التساؤل حتى عن معنى الأدب نفسه، إذن سيرفض هؤلاء الأدباء التافهون جائزة "نوبل" كي يحتفظوا بحريتهم، وأنا أنتظر أن أرى ذلك بأم عيني، وقلت أيضاً للحلزون العنيد إنني لو أصبحت كاتباً لطلبت من الله أن يلهمني التواضع وأن يعطيني قوة التكيف بين ما أكتبه وما كتبه عمالقة الأدب في العالم، وطالما أنني أصفق للعبقرية فلن أفتح فمي أمام هذا السخف المحيط، ولذلك فقد أكتب أشياء تشبه الحياة، لكنني سأكتبها بكلماتي أنا، كلمات منقبضة، كلمات مرتَّقة، كلمات لا رأس لها ولا ذيل، سأكتب كما تخطر الكلمات في خلدي، سأبدأ بداية حمقاء وأنتهي نهاية حمقاء كما بدأت، ولن أكترث بالعقل البحت، ولا بالمنهج، ولا بالصوتيات، ولا بالنثر، وفي لغتي التافهة لن يلفظ بوضوح ما يعتمل بصورة واضحة في داخلي، ولن تقال الكلمات بصورة مريحة، ستكون هذه هي الكتابة أو الحياة، وأريد أن يقولوا عندما يقرؤونني "ما هذا "البازار"، ما هذه السوق، ما هذه الفوضى، ما هذا التجميع لهذه البربريات، ما إمبراطورية الدلالات هذه، ما هذا الهذر، ما هذا السقوط نحو أعماق الأدب السحيقة، ما هذه الفأفأة في الفناء، هل هذا العمل جدي، فما هي

بدايته وما هي نهايته، اللعنة اللعنة"، وسوف أجيب بخبث "هذا "البازار" هو الحياة، ادخلوا كهفي إذن، ففيه عفنٌ وفيه نفايات، هكذا أرى الحياة، إن خيالاتكم هي مشاريع فاشلين كتبت من أجل أن تثير إعجاب الفاشلين، وطالما أن شخصيات كتبكم لا تستطيع أن تدرك كيف نحصل على قوتنا اليومي، فلن يكون هناك أدبٌ بل استمناءٌ فكري، أنتم تتفاهمون فيما بينكم على طريقة الحمير الذين يحك الواحد منهم جسده بالآخر"، وقلت للحلزون العنيد في خاتمة المطاف إنني لسوء الحظ لست كاتباً وإنني لن أستطيع أن أكون كاتباً وإنني لا أعرف سوى أن أتأمل الزجاجات وأكلمها، مثلما أتأمل وأكلم الشجرة التي أحب أن أبول تحتها والتي وعدتها أنني سأتحول نباتاً كي أعيش إلى جانبها، وبالنتيجة فأنا أفضّل أن أترك الكتابة للموهوبين والفائقين، لأولئك الذين كنت أحب أن أقرأهم عندما كنت أقرأ كي أكوّن نفسي، قلت له إنني سأترك الكتابة لمن يمجدون بهجة العيش ويناضلون ويحلمون على الدوام بتوسيع رقعة النضال، لمن يختلقون الأعياد كي يرقصوا رقصات وهمية، لمن يستطيعون أن يدهشوا الآلهة، لمن يتخبطون في الكارثة، لمن يذهبون إلى الرجولة بثقة كبيرة، لمن يتخيّلون حلماً مفيداً، لمن يغنّون للبلاد لا للعباد، لمن يهيمون على وجه الأرض، لمن ينظرون إلى العالم عبر فتحة النور، لمن، على غرار المرحوم أبي، يسمعون "الجاز" وهم يشربون نبيذ النخيل، لمن يعرفون كيف يصفون صيفاً أفريقياً، لمن يسردون أعراساً بربرية، لمن يتأملون بعيداً هناك في القمة السحرية لصخرة "طانيوس"، قلت له إنني سأترك الكتابة لمن يتذكرون أن

الكثير من الشمس يقتل الحب، لمن يتنبؤون بعويل الإنسان الأبيض وموت أفريقيا وبراءة الطفل الزنجي، قلت له إنني سأترك الكتابة لمن يعمرون المدن ويبنون بيتاً أخضر مثل بيت موظف المطبعة أو بيتاً من الدمع من أجل إيواء المساكين الذين لا مأوى لهم والذين يشعرون بعاطفة الحجر، قلت له إنني سأترك الكتابة لأولئك، ولن أهتم بالمردة الذين يتحركون في القماقم، لن أهتم بشعراء أيام الآحاد عصراً الذين لا يباع شعرهم بفلسين، لن أهتم بالقناصة السنغاليين الذين يعزفون على وتر المقاومة ولا يريدون أن يتحدث الزنجي عن الأشجار والأحجار والغبار والشتاء والثلج والورد أو الفن للفن بكل بساطة، لن أهتم بهؤلاء الأصوليين الذين يتكاثرون كالفطور، وهم عديدون ويسببون الاختناقات في طرق الأدب، هؤلاء الذين يدنّسون نقاء الكون، والذين يلوّثون الأدب الحقيقي في أيامنا.

عندما شرحت كل ذلك إلى الحلزون العنيد ظل صامتاً فقد اعتقد أنني غاضب من أناس بعينهم أو أنني أهذي، وسألني عمن أتكلم وطلب مني أن أذكر بعض الأسماء، لكنني لم أجب، إنما ابتسمت ناظراً إلى السماء فحسب، ثم ألحَّ عليَّ ليعرف فيما إذا كنت غاضباً، فقلت "لا"، لماذا أغضب، ليس لدي من سبب للغضب، إنما أنا أضع الأمور في نصابها، وأميِّز بين ما أعتبره تافهاً وما أعتبره مثيراً للإعجاب، وفي ذلك اليوم قدَّم لي دفتراً وقلماً وقال لي "إن غيَّرتَ رأيك فبإمكانك أن تكتب في هذا الدفتر، إنه دفترك وأنا أعطيك إياه، أعلم أنك ستكتب، اكتب الأشياء كما تخطر في بالك، على غرار ما قلته لي للتو عن

الكتّاب الحقيقيين والمزوّرين الذين يسدون طرق الأدب، وعن أولئك الذين يرفضون جائزة "نوبل"، وعن الأصوليين وشعراء أيام العطل، وعن القنّاصة السنغاليين، وعن الكتّاب "المطقومين" الذين رأيتهم في تلفزيون بار جادة "الاستقلال"، عن كل هذا، تستطيع أن تزوّق عملك وتسعى لإثارة الحماس فيّ عندما أقرؤك، نعم، أريد أن أقرأ كل ذلك في دفترك، لا أتصور أين ستصل، لكنني أعتقد أنه لا بد من أن تذكر كل ما قلته للتو لي"، ومنذ ذلك الوقت، ومن أجل أن أبعث المتعة لديه، وأنا أسجل قصصي ومشاعري دون أي ترتيب، وأحياناً أقوم بذلك من أجل بعث المتعة في نفسي أنا، فعندما أنساق في العمل وأنسى أنه مهمةٌ أُوكِلَتْ إلي، أشعر بحريتي فأقفز وأتشقلب وأتكلم إلى قارئ غير الحلزون العنيد، قارئ لا أعرفه إذ لا بد من توقع أي شيء، وقال لي الحلزون العنيد ذات مرة أيضاً "أعدك بأنني لن أقرأ هذا الدفتر قبل أن تضع نقطة النهاية"، كان ذلك الدفتر تحت تصرفي باستمرار، وفي بعض الأيام كنت أقول إلى "مومبيرو" أو "دنجاكي" "اجلب لي دفتري وزجاجتين من النبيذ الأحمر"، فيجلب لي زجاجتيَّ ودفتري، فأشرب وأخربش قليلاً وأتأمل، لنقل إنني كنت رجلاً سعيداً هكذا، رجلاً حرّاً، لكنَّ قلبي ينقبض أحياناً فيقول لي إنني لن أكتب بعد الآن في هذا الدفتر، وإنني لن أضع قدميَّ ها هنا في الأيام القادمة، إذن لا بد من أن أنظر قليلاً فيما كتبت حتى الآن، ولا أنسى أن أنهي فرُّوجي المشوي على الفحم الذي برد لأنني أخذت وقتاً طويلاً في تذكر حياتي بدلاً من أن آكل، لكنني أعتقد أن ذلك كان ضرورياً، وأنني سآكل ما بقيت القلب قليلاً فأنا أشعر بحفرة كبيرة في بطني ولو لم يبدُ عليَّ ذلك.

لقد استطعت أخيراً أن أنهي فرُّوجي المشوي على الفحم ويتوجب عليَّ الآن أن أعيد الصحن إلى المغنية الصلعاء في الجانب الآخر من جادة "الاستقلال"، لكنني سأفرغ هذا القدح من النبيذ الأحمر أولاً، فهذا لن يستغرق سوى بضع ثوان، على كل حال لم يعد هناك من أهمية للزمن، أرى موظف المطبعة لا يزال هناك، وأرى الناس يحيطون به ويتصفحون آخر عدد من مجلة "باري ماتش"، أنا لا آبه لذلك، فهذا ليس من شأني ذلك أن لدي شيئاً آخر أفعله، نهضتُ إذن وتأهبتُ لعبور جادة "الاستقلال"، سأتمكن من اجتيازها بسهولة لأنها فارغة من السيارات التي تمر على الجانبين إن لم أكن قد أصبحت أعمى، وليس هنالك من درّاجاتٍ تمر أو عربات يدوية على مرمى النظر، ها قد وصلت أخيراً وأستطيع أن أعلن النصر الذي لم يكن متوقعاً سلفاً، لقد

عبرت هذه الجادة ورأيت المغنية الصلعاء، رأتني قادماً نحوها، كانت تبتسم كعادتها، أصبحت أمامها، ظلت تبتسم وقالت لي "قل لي أيها القدح المشعور، لقد استغرقت وقتاً طويلاً لتتناول طعامك، ألم تكن جائعاً أم ماذا، هه، ومن جهة أخرى أرى أنك تكاد أن تسقط على الأرض، واااي، كم لتراً وضعت في بطنك يا أبتي"، قلت إنني لم أشرب بعد، وإنني منذ الصباح لم أشرب أي قطرة من الخمر، وضحكتْ بينما كنتُ أتفوه بهذه الكذبة الضخمة بضخامة قصر ثانٍ لدكتاتور أفريقي، لكني أدركت أنها لم تصدقني لأنها قالت "هل حصل لك أن رأيتَ سكّيراً يعترف بأنه قد شرب، هه، مطلقاً يا أبتي"، فاعترفت لها "حسناً أيتها الأم "مفوا" لقد شربت قدحاً صغيراً، قدحاً صغيراً جداً، هذا كل شيء وأقسم على ذلك"، نظرت المغنية الصلعاء إلي بحنان فجأةً ولم أر عليها مثل هذه الجدية من قبل، ثم هزت رأسها وقالت "قلت لك توقف عن الشراب أيها القدح المشعور، ستموت والزجاجة في يدك يا أبتي، والجميع يحبونك في هذه الحارة"، لم أدرِ بماذا أجيبها على الفور فقلت دون تفكير "سأبوح لك بسرٍ، سأتوقف هذا اليوم منتصف الليل، وعد، قسم، أيتها الأم "مفوا"، ثم لن أضع قدمي ها هنا"، أردت أن أكشف لها أنني إذا توقفت عن الشرب فهذا ليس بدافع الخوف من الموت، أنا لا أخاف من أن أموت والزجاجة في يدي، ففي هذه الحالة يكون هذا الموت موتاً جميلاً، إذ يقال عادةً عمن يموت

هذه الميتة إنه مات والسلاح في يده، ذلك أن على المرء أن يتوقع كل شيء عندما يهاجر إلى الجحيم أو إلى النعيم، إذ تتم الأمور هناك حسب الباب الضيّق الذي يلجه كلُّ واحدٍ منا، ومما لا شك فيه أن البعض يخطئون في اختيار باب الدخول، فالأمر جدي في النعيم، وهناك على ما يبدو غيوم ناصعة البياض، وملائكة بذاكرة لا تخيب يريدون منك أن تثبت كم مرة قرأت الكتاب المقدس، وكم امرأةً عجوزاً ساعدتهن في عبور جادة "الاستقلال"، وأيَّ الكنائس ترددت عليها على الأرض، إذن لا مجال للشراب هناك، لأنه الامتحان الشفهي الكبير، الشراب ممنوع في الجنة إذن، لنقل إن الأمر نفسه تقريباً في الجحيم حيث سيكون من الصعب تناول جرعة صغيرة من الخمر لأن إبليس سينتظرك بين نارين وهو يحمل مشعباً حاداً في يده وإذا طلبتَ منه قطرة من النبيذ فسيغضب ويصرخ قائلاً "ماذا، ماذا تطلب مني أيها الأحمق، ألم تشرب بما فيه الكفاية على الأرض كي تأتي وتتعبني حتى تجتاز المَطْهَر[1]، هه، لا بد من توجيهك باتجاه الجنة، أبعد بقليلٍ من هنا حيث ستعبر هذه الجبال المغطاة بالغيوم السوداء، إنك تستحق ما يحصل لك، كان عليك أن تشرب في الحياة الدنيا عندما أعطيناك الفرصة لذلك، هنا يصدر الحكم دون حق الاستئناف، هنا يحكم اللهب في تقصفه

١ـ المَطْهَر هو البرزخ بين الجنة والنار، وهو المكان الذي يتطهر فيه الكفار قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى الجنة (المترجم).

الأخير، هنـا يـتم تحويـل الجثث إلى رمـاد ، نقطـة انتهـى، لا يـتم شـرب الكحـول هنـا بـل يـستخدم الكحـول لإشـعال وإذكـاء اللهب، هيا قـد جاء دورك في الاحتراق، تعال أيها الأحمق الذي كان يظن أن الجحيم هو الآخرون[1]".

١- "الجحيم هو الآخرون" عبارة مشهورة لجان بول سارتر (المترجم).

ومع ذلك لا بد من أن أذكر أنني لست خبيثاً ولا هستيرياً أو شيئاً من هذا القبيل، لا ، لا أسمح لأيٍ كان أن يعاملني على هذا النحو حتى لو كنت أعود إلى المنزل بعد منتصف الليل، أنا إنسان عاقل، وإلا فلماذا لا يستطيع أولئك الذين يزعمون أنهم لا يسكرون أن يحفظوا جدول الضرب، هـه، إذ تسير الأمور على ما يرام عند ضرب الأعداد في ٢ ، بيد أنها تتعقد عند ضرب الأعداد في ٩، أو عند ضرب الأعداد العشرية و "البازار" كله، لست أنا من يطيق محاولة العد على الأصابع أو الأعواد، وهذا يعني أنني لم أر مطلقاً أي آلة حاسبة، إذن أنا لا أكترث بالرياضيات الحديثة، إن الحياة بالنسبة لي زجاجةُ خمر وجدولُ ضرب مثلما كانت الحياة بالنسبة لأبي نبيذاً وموسيقى، أغاني "كولتران" و "مونك" و "دافس" و "بيشيه" والزنوج الآخرين الذين يعزفون موسيقى "الجاز" على الأبواق و "الكلارينيت"، وقد طلب الله نفسه منا أن نتكاثر فنكون جداءً لعملية ضرب مع أنه

لم يحدد لنا الرقم الذي على أساسه يتم التكاثر أو الضرب، لقد أحببت جدول الضرب وإن كنت أفضّل الجغرافيا أو الأدب، ومن الصحيح أنني ما كنت لأستطيع أن أصل بعيداً لو شرعت في دراسات معمقة في الأدب، ذلك أن الأدب لا يوصلك لأي مكان، و الأمر أفضل بالنسبة للجغرافيا حيث استطعت أن أسافر عبر العالم واستطعت دراسة الأنهار الكبرى بالطول والعرض مثل نهر "الكونغو" ونهر "آمور" ونهر "يانج تسي كيانج" ونهر "الأمازون"، بيد أنني لم أرَ هذه الأنهار بأم عيني، إن النهر الوحيد الذي أعرفه أحمر اللون تماماً ويسيل في زجاجة، وهذا النهر الأرجواني لا يجف أبداً مثل الأنهار التي ذكرتها للتو، وعندما أفكر بلترات النبيذ التي شربتها خلال السنوات العشرين الأخيرة، أظن أنها تشكل نهراً هادئاً طويلاً، لم أعد أدري إلى أين يذهب العالم، على كل حال لن أسهب الآن في الهندسة المائية، فالماء عنصر خطير، وما زلت أشعر بحنق شديد عندما أتذكر أن أمي قد بلعت جرعات كبيرة من الماء قبل أن تسلم روحها ودون أن يتسنى لها الوقت اللازم لتقول *"أبانا الذي في السموات"*.

أستطيع مع ذلك أن أذكر على هذه الصفحة أنني دون تباهٍ قد سافرت عبر العالم بطريقة أو بأخرى، ذلك أنني لم أرغب في أن يعتبرني الناس شخصاً يجهل ما يحصل خارج بلده الأم، ولذلك فأنا لا أقبل مثل هذا النقص، ولن ينسيني الخمر الذي أشربه ما كنت قد شرعت به طوال شبابي، لنقل إنني سافرت دون أن أتحرك من بلدي الأم، قمت بما يمكن أن أدعوه بالسفر عبر الأدب، كل

صفحة كتاب فتحتها كانت تدوّي مثل ضربة مجداف وسط النهر، لم أكن أواجه أي حدود أثناء رحلاتي الملحمية، وعليه فلم أكن بحاجة لأن أبرز جواز سفري لأحد، كنت أحدد وجهة السفر وأطرد أحكامي المسبقة بعيداً، فيتم استقبالي بذراعين مفتوحتين في مكان يعج بالناس، بعضهم أغرب من بعض، أكان من قبيل المصادفة أن بدأ هذا السفر مع القصص المصورة، هه، أنا لست واثقاً من ذلك لكنني وجدت نفسي ذات يوم في قرية من بلاد "الغال" بصحبة "أستيريكس" و "أوبيلكس"، ثم في بلاد "فارويست" بصحبة "لاكي لوك" الذي يمشي أسرع من ظله، وبعد ذلك بوقت قصير أدهشتني مغامرات "تانتان" ومهارته في التخلص من الورطات، كما دهشتُ بكلبه الصغير "ميلو"، هذا الكلب الذكي الجاهز دوماً لمساعدة صاحبه عند الضرورة القصوى، ونحن لا نرى مثل هذا الكلب هنا في حارة "ترواسان"، فالكلاب هنا لا تهتم سوى بقضم العظام التي تجدها على المزابل العامة، كما أنها غير قادرة على التفكير، ثم كان هناك شخص "زمبلا" الذي يعيدني إلى الأدغال، ثم كان هناك "طرزان" ذو العضلات القوية، ثم كان هناك الصديق "زورو" الذي يتلاعب بالسيف برشاقة كبيرة بينما كان "إيزنوجود" الحسود يريد أن يصبح خليفةً بدلاً من الخليفة، وسأتذكر إلى الأبد عبوري لأول بلد أفريقي هو "غينيا"، كنت الطفل الأسود، كنت مفتوناً بعمل الحدّادين، وقد حيَّرني تسلل أفعى غريبة ابتلعت قصبةً كنت أظن أنني أمسكها بين يديَّ فعلاً، ثم سرعان ما عدت إلى بلدي الأم، فأكلت من فواكه شجرة

الخبز[1] اللذيذة، وكنت أسكن في غرفة من فندق "لا في إي دمي" الذي لم يعد موجوداً الآن، حيث كان أبي كل مساء يبتهج جذلاً بين "الجاز" ونبيذ النخيل، وحيث كنت أتدفأ على نار الحطب، ومع ذلك فسرعان ما توجب الرحيل من جديد، وسرعان ما توجب عليَّ ألا أكون أسيرَ دفء الموطن الأصلي، وأن أذرع ما تبقى من القارة كي أسمع الأهازيج العظيمة وأغاني الجن، كما توجب عليَّ أن أعبر مدناً غريبةً بحثاً عن آخر رجل من الموكب لا يزال حياً، لقد توجب عليَّ الرحيل حقاً، توجب عليَّ الصعود إلى شمال القارة والعيش في أقصى درجات الوحدة ومشاهدة النهر المتعرج والعيش في البيت الكبير الذي ينيره صيفٌ أفريقي، توجب عليَّ مغادرة القارة واكتشاف أقاليم حارة أخرى والدخول إلى قرية "ماكاندو" والعيش فيها مئة عام من الوحدة والمغامرات والاكتشافات، وهناك توجب عليَّ أن أتمتع بسحر شخص يدعى "ملقادس"، وتوجب عليَّ الافتتان بقصص الحب والجنون والموت، كما توجب عليَّ المرور في النفق الذي يؤدي لمعرفة المشاعر الإنسانية، توجب عليَّ أولاً أن أفتح البيت الأخضر ثم أذهب إلى الهند لأسمع "طاغور" الحكيم يرتِّل مزاميره، ثم توجب عليَّ أن أمشِّط القارة الأوروبية العزيزة على قلب صاحبنا موظف المطبعة، أنا الغريب المتمرد الفوضوي كنت أقف تماماً خلف رجل كان يدعى "الدكتور جيفاكو" وكان يمشي على الثلج فعرفت شكل الثلج لأول مرة في حياتي، وكان هناك أيضاً ذلك العجوز الآخر المنفي إلى "جيرنسيه" الذي كان يثير الشفقة في

١- شجرة استوائية تؤكل ثمارها ذات اللب النشوي الأبيض (المترجم).

بوجهه المليء بالتجاعيد وعينيه المتورمتين والذي كان يكتب باستمرار ويرسم أشياء بالحبر الصيني فلا يكل ولا يمل، بيد أنه لم يسمع وقع خطواتي وأنا قادم إليه، فرحت أقرأ من فوق كتفه العقوبات[1] التي كان يخطها في دفتره واعداً بالانتقام من العاهل الذي كان يضايقه ويمنعه من النوم والذي دعاه "نابليون الصغير"، وكنت أحسد هذا الرجل العظيم على شعره الأشيب، كما أحسد ذلك الرجل الآخر على لحيته الكثيفة الشبيهة بلحية البطرك، ويبدو أنه قال منذ طفولته "أكون "شاتوبريان" أو لا أكون"، وكانت تروقني نظرته الهادئة التي لاحظتها في كتاب من منشورات "لاغارد إي ميشار" كنت أستخدمه كتاباً مدرسياً في الوقت الذي كنت فيه رجلاً كالآخرين، ووجدت نفسي في مسكنه الخاص في "فايانتين"، دخلت الحديقة واختبأت خلف شجيرة ورد، ومن هناك رحت أراقب ذلك الشيخ المتمرد الراكض خلف النساء، كان محني الظهر وأنفه محشور في أوراقه المبعثرة التي كان يمحوها بعصبية، كان يتوقف عن كتابة القصائد أحياناً كي يرسم أشخاصاً مشنوقين، كنت على مسافة بضع خطوات من مسكنه ورأيته ينهض بصعوبة بعد أن أجهده العمل، كان يريد أن يخرج ويمشي قليلاً كي ينشّط ساقيه، تواريت خوفاً من أن تلتقي نظراته بنظراتي، فغادرت هذا المكان وعدت إلى حارة "ترواسان"، وغالباً ما كنت أذهب إلى المحيط الأطلسي لأطلب سمك السردين من صيادي دولة "بنين" حتى جاء يوم اعتقدت فيه أنني أرى طائر

١- "العقوبات" عنوان ديوان في الهجاء من تأليف "فيكتور هوجو" (المترجم).

النورس، هذا الطائر الأخرق بجناحيه المتعبين من التحليق فوق ذرى الموج، وكأنه كان يرسم بطيرانه أطراف الأصقاع التي زارها أو المراكب التي سار في إثرها، وعند أكواخ الصيادين رأيت فجأة رجلاً عجوزاً نحيلاً وجافاً قال لي بصوت مبحوح "أقدّم إليك نفسي أيها الشاب فأنا أدعى "سانتياجو"، أنا صيادٌ وقاربي فارغٌ دوماً بيد أنني أحب الصيد"، وكان بصحبة "سانتياجو" هذا ولدٌ يظهر عليه الحزن كلما رأى قاربه يعود فارغاً في المساء، غير أنه قد توجب عليَّ الرحيل من جديد، وتوجب عليَّ الابتعاد، وهكذا كنت أسافر دائماً بحثاً عن شيء لا أدري ما هو، واليوم لم يعد لدي قوة الماضي، فوهنت عزيمتي عبر السنين، واستسلمت مثل نفاية تتبع مجرى نهر أعوج.

في المرة الأخيرة، أعتقد أنه في اليوم الذي قلت فيه إنني سأرتاح قليلاً فأتوقف عن الكتابة لحظةً، وقبل أن أغادر البار شاهدت وصول الشاحنة التي تقوم بتوزيع النبيذ الأحمر، رأيت صناديق النبيذ الأحمر وقد شكلت جبلاً ضخماً، وفي الوقت نفسه كان هناك أطفال مرعبون[1] يدورون حولها، فقلت في نفسي إن هذا البلد تافهٌ تماماً، فها هم الأطفال المرعبون يدورون الآن حول صناديق النبيذ، ثم طردهم رجل من حول هذه الغنيمة الثمينة، قال لهم إن النبيذ ليس للأطفال المرعبين، وإن عليهم أن يصبروا حتى سن البلوغ، وإن عليهم أن يكتفوا حالياً بعصير الليمون الهندي، وحليب "جيجوز" أو "بيبي هولانديه" أو "بيديلاك"، والألعاب المخصصة لسنِّهم، فغادر الأطفال غاضبين جداً، أما أنا فرحت أحلم وأتساءل أياً من هذه الزجاجات ستسلك أولاً طريقها الملتوي في حنجرتي بينما كان عامل المخزن يفرغ

١- "الأطفال المرعبون" عنوان رواية مشهورة من تأليف "جان كوكتو" (المترجم).

الحمولـة بلامبـالاة أغـاظتني، وفي حقيقـة الأمـر أن هـذا الـشخص لم يكن يبدي احتراماً كافياً لهذه الزجاجات التي يحصل بفضلها على قوته اليومي، رحت أرثي لحال الزجاجات المسكينة، كان بعضها يطرق بعضها الآخر، كانت تتدافع وتتبادل ضربات خفيفة لكنها كانت تظل واقفة في صناديقها، وكان عامل المخزن يراكمها كلها إلى جانبي، أخذتُ زجاجةً حسب الحظ وأومأت *للحلزون العنيد* أنني سأدفع في الحال وليس يوم غد، فقال لي "ليس هناك من مشكلة أيها القدح المشعور، إذا كان الأمر يتعلق بك فلن أقلق، ولو كان غيرك لأجبته إن الدين ممنوع وقد سافر بعيداً منذ مدة طويلة"، هذه هي الصداقة، أكبر صداقة بيني وبين *الحلزون العنيد*.

وبينما كنت أجلس بهدوء في يوم تسليم الحمولة إلى بار الدين المسافر، ظهر فجأةً الشخص الذي يضع على مؤخرته أربع طبقات من "البامبرز" وحشر أنفه الأحمر كأنف المهرِّج "زاباتا"، ذلك أنه كان قد خرج من مكان لا أعلمه ووقف أمامي، كان متقطعَ النفَسِ أشعثَ الشعر مغبَرَّ البشرة مثل من يتقدم بطلب الانضمام لجلسة "فودو"[1]، كان ينتعل فردة واحدة من حذائه، ولعابه يسيل من فمه كما لو كان قد تكلم كثيراً طوال النهار، لم يكن الرجل الذي كنت أعرفه بل كان رجلاً آخر، لم أرغب في أن أنظر إليه في الحال فأراه

١- "الفودو" عبادة روحية هي مزيج من السحر والشعوذة وبعض العناصر المستوحاة من المسيحية، وهي من "بنين" اصلاً غير أنها درجت لدى الزنوج في "هايتي" وجزر "الأنتيل" (المترجم).

مثل مسكين فقير انتزعوا برتقالةً من يديه، لا، لم أرغب في أن أنظر إليه إذ تكوَّن لدي انطباعٌ بأنه رجل سيطر عليه وسواسُ صورةٍ من الطفولة، زد على ذلك هذه الذبابات التي كانت تركض خلف مؤخرته، لقد هجم نحوي كما لو كان يحلم بي، كما لو أنه جاء لرؤيتي حصراً، ووقف متسمراً مقابلي، ساكناً مثل تمثال من الملح، فألقيت حينذاك نظري عليه، فوجدته غريباً، غريباً جداً حقاً هذه المرة، وكأنه كان يريد أن يشرب البحر وجاء يلتمس مساعدتي، وإن هذا كله ما دفعني لتسريع إحالتي من هذا البار إلى التقاعد في أسرع وقت ممكن، إذن جلس رجل "البامبرز" إلى جانبي دون أي كلمة، جلس مثل الشبح فلم أقل أي شيء، سألني حينذاك "أين وصلت في دفترك، هل رويت قصتي جيداً"، أجبته برأسي نعم، لكنه لم يصدق فألقى نظره على الدفتر الذي أغلقته فوراً، وراح يروي لي قصته مع زوجته من جديد، قصة تغيير القفل، ورجال الإطفاء والشرطة، وبخاصة الشرطية المرأة التي وضعت القيود في يديه، سمعته بإحدى أذني لأنني كنت قد سردت قصته كلها، ذلك أن الاسطوانات القديمة تبعث في الملل أيضاً، قال لي "أتسمعني أم لا أيها القدح المشعور، اللعنة، أنا أتكلم إليك"، فأجبته "أسمعك بالتأكيد يا رجل، إن قصتك محزنة وأنت مناضل، أنا معجب بشجاعتك إذ لا يتمتع جميع الناس بمثل هذه الشجاعة"، قال لي "ولكن لماذا لا تكتب ما أقوله لك الآن، هه، أنت تقول لي كلمات طيبة لكي تواسيني، أعلم ذلك، وحقيقة الأمر أنه ليس لديك أي شيء لتلميع قصتي، ليس لديك أي شيء لتلميع الدمار شبه المضحك الذي لحق

ببهلوان مثلي، أقول لك إنني كنت أدفع كل شيء في المنزل، الكهرباء والماء والإيجار، وأنت لا تصدقني، هه، قل لي مع ذلك إنك تصدقني، اللعنة، قل لي أي شيء أيها القدح المشعور"، أجبته "يا رجل إن قصتك تهمني، وأنا لا أستخف بك صدقني"، قال "إذن ما رأيك في ذلك، ماذا تقول عن قصتي المجنونة، هه، ما رأيك بها، تكلم بصراحة، هل أنا غبي كما أبدو الآن، هل رأسي يشبه رأس البهلوان حقاً"، أجبته "إن الحياة أمامك حتى لو كانت زوجتك سيئة وحتى لو زنت مع الشيخ الروحي لتلك الطائفة الملعونة، إن الحياة لا تزال أمامك"، فهبَّ قائلاً كما لو كنت قد ضربته وشتمته "ماذا تقول أيها القدح المشعور"، اعتقدت أنه سيثب عليَّ فقلت بهدوء "كنت أريد أن أذكر فقط أن زوجتك كانت مشعوذة، انساها، واحفظ الملف، لستَ مغفّلاً ولستَ بهلواناً، أنت رجل عاقل وكريم ومنفتح، ولا يوفيك الكلام حقك، إنك رجل طيب على كل حال"، قال الرجل رافعاً صوته كما لو كنت قد صببت الزيت على النار "لا أيها القدح المشعور، لا، لن أسمح لك بشتم زوجتي السابقة هكذا، لماذا تقول إنها مشعوذة، لماذا تقول إنها زنت مع ذلك الشيخ الذي يظهر على التلفزيون، لماذا تقول إنها سيئة، بما أنك تقول ذلك فهذا يعني أنك لم تفهم جيداً ما رويته لك في المرة الأخيرة، أريد أن أقرأ دفترك الآن، فأنا أشك فيه، لقد خيَّبتَ ظني أيها القدح المشعور، لقد خيَّبتَ ظني"، أما أنا فلم أعد أفهم أي شيء، لقد أفقدني رشدي الآن، ها هو ذا يدافع عن امرأة طردته، امرأة أرسلته إلى السجن، امرأة جعلت مؤخرته تنز إلى الأبد، حينذاك قلت له بلهجة توفيقية "كنت أعتقد

أنك غاضب من زوجتك، أنت لا تزال تحبها إذن"، فأضاف "أنا أحبها بالطبع، ماذا تظن، ولماذا تقول لي بأن أحفظ الملف، هه، إنني ما زلت أحبها، وسوف أصبح رجلاً كالآخرين، سوف تجف مؤخرتي، وأتوقف عن وضع الحفاضات، سوف أعود لزوجتي ونعيش حياة رومانسية جديدة بهدوء، سأكتب لها قصائد تصف الزنبق والعندم الهندي، وسآخذها لزيارة "كنشاسا" على الضفة الأخرى، لدينا ستة أطفال ولا يمكن النظر إلى المشكلة بسهولة، لقد وثقت بك وحدثتك عن حياتي، وأنت تسخر مني فتتكلم عن ملفٍ محفوظ، أعلم أنك تخدعني، أعطني هذا الدفتر، سوف أقرؤه، إن لم تعطني إياه فسيصبح الأمر وخيماً بيني وبينك، عليك أن تمحو كل ما كتبته عني، لا أريد أن يعلم الناس بقصتي"، لم أعد أعرف ماذا أقول له، لا بد من أن أقول شيئاً، لا بد من تحسين الأجواء ما بيننا، فغمغمتُ قائلاً "أنا سعيد بسماعك تتكلم هكذا، على كل حال سوف أساندك، صدقني، أنا لا يمكن أن أخدعك"، لم يسمع هذه النقطة بل هاجمني من جديد "لا أيها القدح المشعور، لستَ صادقاً فيما تقول، لستَ صادقاً أبداً، أحس ذلك، لا تفعلها معي، لا تتظاهر بذلك، أنت تزعجني جداً، صدقني أن الأمر سينتهي بصورة سيئة بيني وبينك، هيا أعطني هذا الدفتر"، نهضت، وضعت الدفتر على المقعد وجلستَ فوقه، وهكذا لن يستطيع أن يأخذه مني عنوةً، كنت مندهشاً مصعوقاً، لم أستطع أن أتصور أن هذا الرجل يكلمني بهذه الطريقة فقلت له "ما الأمر، هل هناك من مشكلة بيني وبينك"، وعندما طفح الكيل بي أطلقت المدفعية، المدفعية الثقيلة "أتريدني أن

أقول لك أيها الأحمق أنني وددت لو أتلف رجال سجن "ماكالا" مؤخرتك كلياً، وأنني وددت لو خوزقوك من الشرج إلى الحنجرة"، قلت ذلك بصورة عصبية فأجاب على الفور "وأنت، أتعتقد أنني لا أعرف قصتك، هه، بلى، أعلم كل شيء، آمل أن تكون لديك الشجاعة الكافية لذكرها في دفترك لأن من السهل الحديث عن الآخرين وليس عن الذات، أنا أعلم من أنت، أنت منافق، منافقٌ حقيقي، أنت تستحق الرثاء، رجل يقوم بتمثيل دور الحكيم ها هنا، وحقيقة الأمر أنك لا شيء، لا شيء على الإطلاق"، قال ذلك ودفع بالأمر إلى درجة أنني قررت التساهل معه فأردت تهدئة اللعب "ما الذي يجعلك تتحامل عليَّ اليوم، أنا لا أريد سوى مصلحتك، هيا، لنتحدث كرجالٍ بالغين"، شتمني بإشارة من ذراعه وقال "انفلق أيها العجوز الوغد، أيها الضفدع البري"، لم يعد أمامي ما أستطيع أن أفعله فقلت له "أستطيع أن أطردك من هنا يا هذا، ألا تعلم أن الحلزون العنيد صديقي الشخصي، هه"، فأجابني "إنه صديقي الشخصي أيضاً، إنه صديق الجميع"، وأضاف بازدراء "أعرف قصتك أيها القدح المشعور، أعرفها من الألف إلى الياء، لا يحق لك أن تسخر مني، أنت الذي كنت تبدي مؤخرتك للطلاب عندما كنت تعلّمهم، هه، ومن جهة أخرى فلنتكلم عن أمك، لم تكن سوى سكّيرة الحارة، وخِرْقَةً غرقت في مياه "تشينوكا"، نعم، أنت من يمارس الجنس مع الأطفال ولست أنا، ولهذا نقلوك من مدرسة "تروا مارتير"، لأنك دنّستَ الطفولة، لأنك قلعتَ البراعم الغضة، لأنك كنت تلوط الأطفال"، كان هذا الشخص يبحث عن مشكلة معي ويريد أن يجعلني أخرج

عن أطواري، كيف ينعتني بأنني أمارس الجنس مع الأطفال، هه، كيف يمكنه أن يدنس ذكرى أمي، كيف يمكنه أن ينعتها بالسكّيرة في حين أنها لم تكن تشرب، أكان يعرف أمي، هه، هل رآها مرة واحدة على الأقل، هه، أمي هي أمي، وبناء على ذلك فهي لم تمت بالنسبة لي، إنها في داخلي، تكلمني، توجهني وتحميني، لا يمكنني أن أترك هذا التحدي يمر بسلام، فمن يظن نفسه، لقد تورَّم قلبي ورحت أرتجف فشعرت كأن ثعباناً في يدي وتمتمت بعبارات حادة من قبيل "أواه أيها الغضب، أواه أيها اليأس، أتراني عشت لأشعر بمثل هذا العار"، لكن ذلك لا يهم، كنت في سورة غضب غير معقول، فقلت له "غادرْ هذا البار يا من تبدو كالغريق في شبه الجزيرة، يا من تبدو كالجيفة المتحركة"، فأجابني "لن أتحرك من هنا، لستَ صاحب البار، أيها العجوز الغبي، اذهب إلى الجحيم، لقد حان وقتك فاترك المكان للشباب"، فقفزت من الغضب مثل زوجين يرقصان التانجو، درت حول نفسي على كعبيَّ، أمسكت بياقة قميصه المهترئ، وعادت إليّ قواي، شعرت بقوتي، سوف أزمجر، أزأر، أتقصف كالرعد، هززته كما لو كان زجاجة خمر رديء، لكمته على وجهه فلم ير اللكمة قادمةً إليه، راح الناس يصرخون حتى أن البعض طلبوا أن أشطب وجه هذا الشخص ذي المؤخرة الرطبة إلى الأبد، وتغوط هذا الشخص في حفاضاته ذلك أنني عندما أسدد ضربتي أصبح خطيراً جداً لأن أمي كانت قد ألبستني التمائم عندما كنت صغيراً، كانت ترغب في أن أصبح قوياً لأنني ولد وحيد، لم ترد أن يضربني الآخرون في المدرسة، ولذلك فإن من جرّبوا لكمتي

جميعاً يعرفون كم هي مؤلمة ومميتة، صرعتُ رجل "البامبرز" إذن، سقطنا على الأرض وتدحرجنا على التراب حتى نهاية جادة "الاستقلال" بالقرب من المغنية الصلعاء، أعتقد أن الحارة كلها كانت في الخارج وراح المشاهدون يهتفون: " يا الله يا علي، يا الله يا علي، يا الله يا علي"، ذلك أنني كنت "محمد علي"، أما هو فكان "جورج فورمان"، كنت أطير كالفراشة وألدغ كالنحلة وكان هو خائر القوى، كنت أرى لكماته فيتسنى لي أن أتفاداها بمهارة، كنت أرميه أرضاً وأضربه من الأعلى، كنت أرفسه بقدمي وأضربه برأسي، كنت أؤلم نفسي أحياناً، وكان هو يستقبل وابلاً من اللكمات، لم أتوقف، فظنَّ أنه مطوَّق وأنه يقاتل خمسة أو ستة رجالٍ معاً، أصبح أنفه ينزف فأخذ ينادي أمه لنجدته، أراد أن يهرب لكني أمسكت به ورحت أرفعه في الهواء وأقلبه وأضربه أرضاً، خرج الحلزون العنيد من البار واضعاً منشفته على كتفه الأيسر وركض نحونا ثم فرَّق الناس من حولنا "دعوني أمر، لا يوجد أي شيء، أقول لكم اذهبوا"، وأظهر الحشد استياءه لأن مشهدنا التافه كان يروق له، فرَّقَ الحلزون العنيد ما بيننا، وأجلسنا حول طاولة وقال لنا "ما هذه القصة أيها المجنونان، أنتما الاثنان، لا أريد أن يحصل هذا في منشأتي، لماذا تتقاتلان مثل شيطانين، أتريدان أن تسببا لي المزيد من المشاكل أم ماذا، أتريدان أن يُسْحَبَ الترخيص مني أم ماذا، هه، اللعنة، أنتما بالغان وتتصرفان كطفلين، لم يحصل أي شجار مطلقاً في بار الدين المسافر، والآن ستأتي السلطات لتقول لي إن شجاراً يحصل ها هنا، فتأمر بإقفال منشأتي، لا أريد مثل هذه السخافات هنا، هل هذا

واضح، هه"، فقلت "أقسم أنه هو من سعى لذلك، أنا لم أكن أسعى للشجار"، وقال هو "لا، هذا ليس صحيحاً، أقسم أنه هو من سعى لذلك، هذا القدح المشعور العجوز، لم أكن أريد الملاكمة، إنما كنت أريد ألا يكتب أيَّ شيء عن حياتي"، وقلت أنا "ألا تخجل من أن تكذب هكذا، هه"، وقال هو "أنت الكذاب، تكتب أي شيء عن حياة الناس، تعتبر نفسك كاتباً أم ماذا، هه"، وكدنا أن نتشابك بالأيدي من جديد فصرخ صاحب البار "أقول لكما توقّفا، اللعنة، يكفي هذا، لا أريد أن يعلم أحد أي شيء عن ذلك، خذا هاتين الزجاجتين وتصالحا، وليصافح كل منكما الآخر بسرعة"، وتصافحنا وصفقوا لنا في الخارج حيث كان الناس يتوقعون أن يستمر العراك، وشربنا مع رجل "البامبرز"، ونسينا هذا الحادث، والتقطت دفتري الذي كان قد وقع على الأرض وذهبت لأقوم بجولة في الحارة.

لكل امرئٍ همومُه، لكن رجل "البامبرز" كان يحمل همومه على ظهره منذ غابر الزمن، أنا لا أستفز أحداً، قلت ذلك مراراً وتكراراً، ثم إن هذا أول شجار لي ها هنا، ولذلك قلت في نفسي إن وقت رحيلي قد حان، كنت قادراً على أن أذهب في هذا الشجار بعيداً، فما زلت قوياً، وليس بإمكان التافهين من أمثاله أن يعكروا صفو حياتي وإمبراطورية تأملاتي، سأبقى قادراً على حلبة المسرح مثلما أنا قادر على التحليق في السماء، أنا شاهد خراب هذه الأمكنة، لكل امرئٍ حماقاته، وعلى هذا الشخص أن تزداد معارفه في النزاعات، كان يظن أنني لم أعد أستطيع أن أركله على قفاه

لأنني أصبحت شيئاً من الماضي، وقد فهم الآن أن الديناصور يبقى ديناصوراً رغم الزمن، فقررتُ منذ هذا الشجار ألا أصغي لقصته السخيفة بعد الآن، وكدت أن أشطبها من هذا الدفتر، أن أشطب الصفحات الخاصة بموته المؤجل، لكنني قلت في نفسي إنه سيكون من الطريف أن أتركها وأن أسرد حدث عراكنا، ذلك أنه لا بد من رش التوابل على هذا الدفتر كي لا ينام من يتسنى له أن يقرأه، أما رجل "البامبرز" فلم أعد أكلمه فتبنَّيتُ فلسفةً جديدةً في الحياة، فلسفةً بسيطةً وفعَّالة، فقد قررت في الواقع أن أقول لجميع الفنانين إنهم موهوبون، فسوف يعضُّوني إن لم أقل ذلك، لكنني لا أعلم من قال هذه العبارات الحكيمة الجميلة، مما لا شك فيه أن قائلها شخص جيد، شخص يحترم أمه المتوفاة ويعتبرها نعمةً من الله، إذن أنا لا أكترث بطبقات "البامبرز"، ولا بالقفل المبدَّل، ولا بالمرأة الشرطية، ولا برجال الإطفاء الذين يضرمون الحرائق[1]، فلتذهب هذه السخافات إلى الشيطان، لم تعد هذه الأشياء تهمني، ولا أريد أن أسمع أي شيء عنها بعد الآن.

١- "رجال الإطفاء الذين يضرمون الحرائق" عبارة قالها جان زيجلر، مقرر الأمم المتحدة بخصوص حق الإنسان في الغذاء، وذلك عمن يديرون صندوق النقد الدولي، فإذا أرادوا أن يساعدوا بلداً أحرقوه (المترجم).

توجهتُ بسؤالٍ عن الوقت إلى شخصٍ غريبٍ يتناول شرابه بعد طاولتين من طاولتي، لم أكن قد رأيته من قبل مطلقاً، كان هذا الشخص يمسك كتاباً بيده، عنوانه مكتوب باللغة الإنجليزية، أنا لا أتكلم هذه اللغة، لكنني استطعت أن أتبيَّن على الغلاف رسماً لحصان ولم أستطع أن أقرأ العنوان كاملاً بل قرأت منه فقط كلمة "in the rye"، أما باقي العنوان فكانت تغطيه يدا الرجل الضخمتان، ومع ذلك فقد سألته عن الساعة، تفرَّس الرجل في وجهي، وابتسم كما لو كان يعرفني، وقال لي إنها ما بين الساعة السادسة والسادسة والنصف عصراً، وبما أنني لا أحب هذا النوع من الأجوبة المبهمة فقد قلت له "ما هذه الطريقة بتحديد الوقت، إما أن تكون الساعة السادسة أو تكون السادسة والنصف"، فقاسني بنظره وقال لي "انغلق أيها الرجل العجوز، لقد ابيضَّ شَعْرُكَ وأنت في هذا البار، ورائحتك تفوح برائحة البراز، ماذا تفعل هنا، من المفروض أنك تقرأ

الآن قصص "آمادو كومبا"، و "موندو" لأحفادك بدلاً من أن تمضي نهاراتك في مراقبة الناس وتسجيل ما لا أعلمه في هذا الدفتر"، لم أستطع أن أجيبه في الحال لأن هذا الرجل كان يبحث عن خلاف جدي معي، فقلت في نفسي "لقد تغير الزمن وتغيرت الأخلاق، هي ذي العظايات تأتي لترفع رأسها أمام أسدٍ هرمٍ لا يطلب من الآخرين سوى الاحترام والتقدير، وها هو ذا الأسد الهرم يتلقى الركلات من حمار أجرب"، فخطرت في بالي فكرة إغلاق فم هذا المتبجح، وشعرت من جديد بالأفعى في يدي مثلما شعرت بها عندما تعاركت مع رجل "البامبرز"، ولكن ما الفائدة من ذلك، ألا يوجد في الحياة ما هو أكثر أهمية من ذلك، لماذا أضيع وقتي مع أناس يقرؤون كتباً باللغة الإنجليزية، هه، لكن الغضب دفعني لأن أقول له كلمتين فسألته "من أنت أيها الشاب كي تكلمني بهذه الطريقة"، فاستغرق وقتاً في تقويمي قبل أن يجيبني "أنا أدعى "هولدن" وأنا جديد هنا"، هززت رأسي وقلت لو عرفته سابقاً لكنت قد أعرته اهتمامي، كان سينساق ويروي لي طريقته في حياته التافهة وخيباته من عالمه، ذلك أنه يعيش في عصر آخر، لا شك أنه يعتقد أنه لا يزال في فترة ما بعد الحرب، بيد أنني لم أعد أرغب في أن أدمي قلبي بهذه القصص المزعجة، وهذا الشخص الذي سمى نفسه "هولدن" شخص غريب، يبدو عليه سيماء مراهق يمر في أزمة في حين أنه بلغ الثلاثين من العمر أو ما يناهزها، فهو رجل قصيرٌ بدينٌ منتفخُ الوجهِ مهترئُ الحذاء، وهو يعلم مسبقاً أن سيف القدر قد جرح مسيرة حياة زبائن هذا البار، لكنني لا آبه به الآن، لم أعد بحاجة لأن أسمع كائناً من كان،

أشحت بنظري عنه لكنه لم يتركني فقال "أريد أن أسألك سؤالاً وأنت الحكيم وأنت الأكبر عمراً"، يبدو أن هذا الشخص يعرف كيف يدغدغ فضولي، تساءلت حينذاك أي نوع من الأسئلة يريد أن يسألني، كنت أعدُّ نفسي للأسوأ فطرح سؤاله "هل تستطيع أن تقول لي ماذا يحصل لطيور البط المسكينة في البلاد الباردة عندما يسقط المطر، هه، هل يحبسونها في حديقة الحيوان، هل تهاجر نحو أقاليم أخرى، أم أن طيور البط المسكينة تتلاصق باحثةً عن الدفء تحت الثلج، هه، أريد جوابك"، نظرت إليه بعينين جاحظتين، لا بد أنه يسخر مني، إنه مختل العقل أكثر من أي إنسان آخر، وشاء القدر أن أصادفه الآن فقلت له "لا أريد أن أصغي إليك، ولم أعد أريد أن أصغي لأي كان في هذا البار، لقد طفح الكيل بي، أنا لا أهتم بطيور البط، لا أهتم إذا حبست أو نفقت في الثلج أو هاجرت نحو أقاليم أخرى"، وأدرت ظهري له فهاجمني من جديد قائلاً "سوف تسمعني أيها القدح المشعور، هذا أمر، أريد مكاناً لي أنا أيضاً في هذا الدفتر، فليس من العدل ألا تتكلم عني، لدي أشياء مهمة في حياتي القذرة، إنني الأكثر أهمية من جميع هؤلاء الناس الذين يأتون ها هنا، فأنا قد زرت أمريكا"، قلت له "لا تتعب نفسك يا ولدي، لن تأسر قلبي بهذه اللعبة، فقد سمعت في السابق شخصاً يقول لي إنه الأكثر أهمية لأنه زار فرنسا"، قال "نعم لكنني أنا قادم من البعيد، البعيد جداً، ليس الأمر نفسه إذن"، "أنت تضحكني يا ولدي، فليس بإمكانك أن تأتي من مكان أبعد من الأمكنة التي أعرفها أنا القدح المشعور"، فصرخ قائلاً "ماذا، هه، تزعم أنك قادم من بعيد وأنت لم تركب

الطائرة مطلقاً، هه، دعني أضحك، إذا كان هناك رجلٌ ظل ثابتاً كالجبل فهو أنت"، لم أجبه وابتعدت بضع خطوات، "قل لي إذن أتريد أن أروي لك قصتي أم لا"، "لا، شكراً، لقد طفح الكيل"، وبينما صرت أبعد من ذلك بمترين هتف بي "أنا قادم من البعيد، من البعيد جداً، وقد أمضيت شبابي في أمريكا"، فأجبته "لن تغير أمريكا رأيي أبداً"، وأدرت ظهري له نهائياً بينما كان يغمغم "اللعنة، إنها أمريكا على كل حال، أول قوة في العالم، سأفعل المستحيل وسوف تسمعني وتكتب قصتي عن أمريكا، وإلا فلن يساوي دفترك شيئاً، أي شيء غير ورقه الأبيض"، وسمعته يصرخ خلفي "هيه، أيها القدح المشعور، أنا لا أمزح، أريد أن تجيبني حقاً، هل تستطيع أن تقول لي ماذا يحصل لطيور البط المسكينة في البلاد الباردة عندما يسقط المطر، هه، هل يحبسونها في حديقة الحيوان، هل تهاجر نحو أقاليم أخرى أم أن طيور البط المسكينة تتلاصق باحثةً عن الدفء تحت الثلج، هه".

رفعت عيني عن دفتري وألقيت نظرة باتجاه المدخل، فظهرت "روبينيت"، كانت قد جدلت شعرها الأشعث عموماً وارتدت تنورة هولندية جديدة تضيق لتبرز مؤخرتها، ابتسم *الحلزون العنيد* ابتسامة عاكستني، كان يبدو عليه أنه يحفّزني كي أذهب إليها وأعترف لها بما يعتمل في قلبي، ولكن لا، هذه ليست ملعوبة، فلا شيء يساوي مثل هذا العناء، فما كان منها إلا أن مرت من أمامي، نظرتُ إليها لحظةً فانتبهتْ وقالتْ لي "لماذا تنظر إلي هكذا، تريد أن تلتقط صورة لي أم ماذا"، فقلت لها "لا أعلم عما تتكلمين يا "روبينيت"، فأنا لم ألحظ حتى وجودك ها هنا"، أشارت إلي بإصبعها وصرخت "أيها الكذاب، أنت تلاحقني أم ماذا، بما أنني ألبس هكذا تزعم أن الرجال لا يرونني، هه، إنك تلاحقني، إنك تلاحقني أيها القدح المشعور"، "أقسم أنني لم أرَكِ، لكن هذا لا يعني أن الرجال الموجودين هنا لم يروكِ، أنا هو أنا"، صرخت من جديد "اللعنة، إنك تغيظني، إنك تغيظني أكثر، فلماذا لم ترني، ها، لماذا لم ترني أنت، أنا

لا أهتم بالرجال الآخرين فلماذا لم ترني أنت"، "لنقل إني رأيتك حقاً لكنني تظاهرت بعدم رؤيتك كي لا تعلمي أنني رأيتك، هكذا"، "أتعني بذلك أنني بدينة، هه، ولهذا السبب تتظاهر بعدم رؤيتي، أنا بدينة، هه، قل الحقيقة"، ولكن ما الذي حصل لهؤلاء جميعاً كي يحتكوا بي، هل فهموا أنني، أنا بَطْرَكُ هذه الأمكنة، أتوجه نحو نهاية سلطاني، هه، وأصبح الآن لدى الجميع كلمةً يقولونها عني، لم يعد أحد يخشاني، يظنون أنني انتهيت وأنني لا أساوي "كوبيكاً" أو فرنكاً كونغولياً، لدي ما يشبه الشعور بأنني قد هرمت تماماً، وبأن السنوات تثقل كاهلي، وأنني لم أعد أطيق صبراً، وأن كل شيء يزعجني، وأنني أفقد السيطرة على الأحداث، وأنني أصبحت هشاً، وأنني لم أعد أستطيع الرد على الحمير الذين يركلوني بأقدامهم، فأولاً جاءني رجل "البامبرز" ليرهقني بقصة زوجته التي بدَّلت القفل في الساعة الخامسة فجراً، وبينما كنت أتعاطف معه تجرَّأ على أن يهاجم ذكرى أمي لدرجة أننا تشاجرنا، لدرجة أنني شعرت بالأفعى في يدي، ثم جاءني موظف المطبعة حتى لو لم تصل الأمور إلى ما وصلت إليه مع رجل "البامبرز"، ومع ذلك فقد استفزني بعدده الأخير من مجلة "باري ماتش"، ومثلما تأتي حوادث النحس بالتتالي، جاءني اليوم هذا الرجل ذو الوجه المنتفخ القادم من أمريكا على ما يبدو، والذي يزعم أن اسمه "هولدن"، والذي يهتم بمصير طيور البط في الشتاء، والذي عاملني على أنني عجوزٌ هَرِمٌ من الماضي والذي طلب مني في خريف عمري البطركي أن أقرأ لأحفادي مغامرات "موندو" وحكايات "آمادو كومبا"، أكان يعلم أنه لا أحفاد لدي، أكان يعلم ذلك حقاً، لقد فقد الناس أعصابهم إذن كما لو أنني قد أسأت لهم، وها هي ذي "روبينيت" تأتي الآن بدورها، ما هذه اللعنة، فقلت لها بأدب

"لا أرغب في الشجار معك يا "روبينيت"، إنني أحترمك وأقسم على ذلك"، قالت لي "ليس صحيحاً، أنت لا تحترمني، ثم إنك لا تحترم أحداً ها هنا فيما عدا *الحلزون العنيد*"، فأجبتها "ما الذي يجعلك تقولين إنني لا أحترمك، هه"، "لأنك كذاب من الدرجة الأولى، أنت تكذب مثلما تتنفس، حتى إنك لا تحترم شيبتك فتكذب وتكذب وتكذب باستمرار"، لم يصدر صوتي لكنني قلت همساً "أظن أنك مخطئة يا "روبينيت""، فكررتْ موّالها "بلى، أنت كذاب، كذاب حقيقي"، هنا لم أستطع أن أتركها تقول ذلك كما يحلو لها فتحديتها "أعطني مثالاً، قولي لي متى وأين كذبت"، فنظرتْ إلى السماء ثم فكّرتْ لحظةً وقالت "هل قدّمتَ لي مرةً واحدة زجاجة من النبيذ، زجاجة صغيرة من النبيذ، هه، لا، على الإطلاق، أنت بخيل وأناني وبطّال، ثم إنك لم تنظر إلي مطلقاً، أنت تكرهني كما تكره الطاعون، هذه هي الحقيقة، ولكن أتعرف عدد الرجال الذين يركضون خلف مؤخرتي، هه"، أنزلتُ ذراعيَّ، نظرتُ في عينيها وقلت لها "خذي زجاجة وسوف أدفع ثمنها فهذا يوم مهم بالنسبة لي"، وقد أدهشتني كثيراً لأنها رفضت قائلة "لا ولا ولا، من تعتبرني؟؟، متسولة، مسكينة، من أنت كي تعتبرني هكذا، هل طلبت منك أي شيء، هه، تريد أن تسكرني لكي ترتكب الحماقات معي يا غبي"، وبما أنها كانت تتكلم بصوتٍ عالٍ فقد هيمن صوتها على جلبة الحضور الذين استداروا نحونا، سمعتُ قهقهاتٍ في البعيد، راحوا جميعاً يتابعون المشهد، وأصبحتُ منزعجاً جداً، لا بد من أن أجد وسيلةً لأنسحب من هذا الموقف، ولكن ما العمل، لا بد من أن أبتعد عنها بأقصى سرعة ممكنة، فرحت أنظر إلى الوقت في ساعة هذا المتمرد "هولدن" الذي أزعجني منذ بعض الوقت، فهو

لا يـزال يجلـس علـى مـسافة طـاولتين مـن طـاولتي ويـسأل الحـضور "هـل تستطيعون أن تقولوا لي ماذا يحصل لطيور البط المسكينة في البلاد البـاردة عنـدما يسقط المطـر، هـل يحبـسونها في حديقـة الحيـوان، هـل تهـاجر نحـو أقاليم أخـرى، أم أن طيور البط المسكينة تتلاصق باحثةً عـن الـدفء تحـت الثلج، هه"، ومن هنا أستطيع أن أرى ساعته الكبيرة المعلقة على رقبته، إنها طريقة طريفة في حمل الساعة، فكأنها منبه، ربما أن الأمريكيين يحملـون الساعات هكذا، فهؤلاء النـاس لا يحبـون الرتابة، وأخيراً نجحتُ في قـراءة الوقت فصرختُ "يا إلهي إنها الساعة التاسعة مساء".

نهضت كي أخرج من البـار فقالت لي "روبينيت" "لا تتحـرك مـن هنـا أيها القدح المشعور، لقد وعدتني بزجاجة، لا تتحـرك مـن هنـا، وإلا فسوف لا تسير الأمور على ما يرام بيني وبينـك، هيـا ادفـع ثمـن الزجاجـة"، فخرجـت عن طوري أخيراً وقلت لها "لقد طفح الكيل بي أيتها العاهرة، يجب أن تعـرفي ماذا تريدين بالضبط"، فقالت بينمـا كنـت أتجـه إلى مكـان المحاسـبة "لمـاذا تخرج عن طورك يا حبيبي، هـذا لـيس جيداً، هـذا يزيـد التجاعيـد في وجهـك مع أنه مليءٌ بها أصلاً"، ابتسم الحلزون العنيـد، مـدَّ زجاجـةً لـي، وهمـس في أذني "أتركبها أم لا"، قلت برأسي لا، وأجبته "أظن أنها مجنونة فهـي تتهمني بكـل شـيء، لا أريـد أن أخـرج مـن هـذا البـار وأشـعر بـأي تبكيـت ضـمير، سأدفع لها ثمن القدح الذي ما انفكّت تطالبني به"، فقال المـدير لـي "لا، أيهـا القدح المشعور، لن تذهـب إلى أي مكـان، أنت فردٌ مـن الأسـرة، توقـف عـن تباكيك إذن، واذهـب لهذه الفتـاة فسوف تغير أفكـارك، أنـصحك بـذلك"، وراح يضحك قبل أن يضيف "إنهـا ترغـب فيـك، هـذا واضـح وضـوح الـشمس،

إنها ترغب فيك، فلتصرَّ قليلاً لتأخذك إلى إحدى غرف المسافرين العابرين، أو اذهب معها إلى إحدى غرفي، أعطيك الضوء الأخضر"، أنا لا أصدق ذلك كثيراً، ثم إنني لا أرغب في أن أحتكَّ في "روبينيت"، إنما أريد أن أنسى صورتها من الآن فصاعداً، فقد أتعبتني بهجومها المجاني، لقد نفذت شحنة بطارياتي، لا أستطيع أن أتصور نفسي وأنا أمتطيها، لم يعد هذا من شأني، أنا الرجل الذي يرغب في حبٍ بعيد، ولذلك أدور في مكاني، إنني أريد الآن أن أذهب لأتنفس على طول جادة "الاستقلال"، قبل أن أفرَّ منتصف الليل.

وفي اللحظة التي وقفتُ فيها وخطوتُ خطوةً نهائية وجدتُ نفسي أمام الحلزون العنيد فقال لي "أين تذهب يا رجل"، لم أجب فأمسك بيدي اليمنى وسألني كيف تسير الأمور مع "روبينيت"، بقيتُ صامتاً ومددتُ له الدفتر فأخذه، رغبتُ في أن أنتزعه من يده في الحال، لم أعد أرغب في أن أعطيه إياه الآن، لا أدري لماذا أردتُ أن أستعيده، حاولتُ أن أخطفه فلم أفلح، رجوتُه أن يعيد لي دفتري فقال لي "لماذا تريد استعادة الدفتر الآن، أصبح الوقت متأخراً قليلاً على الكتابة، فأنت نادراً ما تكتب بعد العاشرة ليلاً، لدي إحساسٌ بأنك ستمزقه، لن أعطيك إياه الآن، بإمكانك أن تأخذه غداً صباحاً إن أردت"، "أعطني إياه الآن، فأنا أريد أن أتحقق من بعض الأشياء، أقسم لك بأنني سأعيده لك، لن أفعل به أي شيء، ولا أريد أن أمزقه، صدِّقني"، تصفح المدير الدفتر بسرعة وهتف قائلاً "إنه مليء تقريباً، ولم يبقَ سوى بضع صفحات بيضاء، متى كتبت كل ذلك"، لم أجب بل ابتسمت بالكاد فاقترب الحلزون العنيد مني وأسرَّ لي "ما زال اقتراحي سارياً، اصعد ونم

عندي، خذ المفاتيح، حتى أنك تستطيع أن تصعد مع "روبينيت" فقد كلمتها في ذلك وهي موافقة"، رميت المفاتيح واستعدت الدفتر، وقلت إلى الحلزون العنيد "خذ، تستطيع أن تحتفظ به الآن، فالمهمة انتهت"، فقال مندهشاً: "المهمة انتهت كيف، لا تزال فيه بضع صفحات بيضاء"، ثم تصفحه بكثير من التركيز هذه المرة قبل أن يهمس متنهداً "لم أر جيداً تماماً، لكن الفوضى تسود في هذا الدفتر، لا وجود للنقاط مطلقاً بل فواصل وفواصل ومزدوجين أحياناً، هذا ليس طبيعياً، يجب أن تقوم بالتبييض، ألا تعتقد ذلك، هه، ثم كيف يمكنني أن أقرأ كل ذلك عندما يكون متلاصقاً هكذا، لا بد من ترك بعض المساحات الفاصلة، الكافية للتنفس أو الاستراحة، أترى، كنت أنتظر منك أفضل من هذا، لقد خاب أملي قليلاً، اعذرني، لم تنتهِ مهمتك، بل ينبغي عليك أن تبدأ من جديد"، فكررتُ قائلاً: "المهمة انتهت" وأدرت ظهري له فنعق قائلاً "إلى أين تذهب أيها القدح المشعور"، قلت له إنني سأذهب لأتنفس الهواء بعيداً عن البار، "إلى أين تذهب أيها القدح المشعور، هذا بيتك فعد"، فقلت له "سأعود في الحال"، ورأيته يتصفح الدفتر من جديد ثم سمعته يقرأ بصوت عالٍ الصفحات الأولى التي خربشتها في بداية هذا الدفتر "لنقل إن مدير بار الدين المسافر أعطاني دفتراً وطلب مني أن املأه، فهو يعتقد جازماً أنني أنا، القدح المشعور، استطيع ان أؤلف كتاباً لأنني رويت له مازحاً ذات يوم قصة كاتبٍ مشهورٍ كان يشرب كالإسفنجة، كاتبٍ كانوا يلتقطونه من الشارع عندما يكون ثملاً، ينبغي ألاّ يمزح المرء مع المدير إذن، لأنه يأخذ كل شيء على محمل الجد".

حاولت عبثاً أن أشق طريقي وسط الجموع، فقد ناداني "مومبيرو" و "دنجاكي" معاً وأمسكا بي، "أيها القدح المشعور، تعال هنا، تعال من فضلك، خذ دفترك"، أخذت دفتري وقلمي، وما إن أصبحتُ خارج البار حتى رحتُ أسجل الحديث الذي أجريته للتو مع *الحلزون العنيد*، كما لو أنه يتم الآن نقلاً مباشراً على الهواء، وابتسمت عندما خطرت لي الفكرة بأنه لن يعلم أحد هذا المساء أني سأسافر مع سمكة سليمان، وأنني سأمشي طوال نهر "تشينوكا"، وأنني سألتحق بأمي كي أشرب وأشرب أيضاً من تلك المياه التي أخذت المرأة الوحيدة في حياتي التي كان باستطاعتها أن تقول لي *"يا بني، أيها القدح المشعور، أحبك وسوف أحبك حتى لو أصبحت ذات يوم نفايةً"*، إنها أمي، إنها أجمل امرأة على الأرض، ولو كنت

موهوياً بشكلٍ كافٍ لكتبت كتاباً أسميه "*كتاب امي*" ، أعلم أن هناك من كتب كتاباً بهذا العنوان لكن "زيادة الخير خير" ، سيكون هذا الكتاب في الوقت نفسه رواية مفتوحة ، رواية سعيدة ، كتاب رجل وحيد ، أول رجل ، كتاب العجائب ، سأكتب على كل صفحة منه مشاعري وحبي وأسفي ، سأخترع لأمي بيتاً من الدمع ، وجناحين كي تصبح ملكةَ ملائكةِ السماء ، كي تحميني دوماً ، وإلى الأبد ، سأطلب منها أن تسامحني على حياتي التافهة هذه ، هذه الحياة الزائدة التي عشتها بصراع دائم مع النبيذ الأحمر ، سأقول لها أن تسامحني على المتعة التي كنت أشعر بها وأنا أراقب كفل الزجاجات الحمراء باستمرار ، وأعلم أنها ستسامحني ، وأنها ستقول لي "*هذا خيارك يا ولدي ، ولن استطيع فعل أي شيء ازاءه*" ، ثم ستروي لي طفولتي ، ستقول لي كيف قامت بتربيتي لوحدها ، وكيف هربت من قرية "لوبولو" بعد موت أبي ، وستروي لي كيف ذهبتُ إلى مدرسة "كويكو" الشعبية ، وكيف كنت أتبع طريق المدرسة وحيداً لمدة ساعتين ، فكأنني أنظر في المرآة لأرى من جديد مغامرات طفولتي عندما كنت أركض طوال شاطئ "كوت سوفاج" ، لم أكن أرغب في أن أكبر في ذلك الوقت ، لأن الحياة بعد سن الثانية عشر ليست سوى تفاهة ، إن الطفولة هي كنزنا الثمين الوحيد ، وكل ما تبقى من الحياة ليس سوى تراكم الحماقات والسخافات ، فلأقل إنني خلال شبابي الأول

كنت أنظر لكل شيء بفضول، ولم أكن لأشك في الخرافات التي تقول أن البحر كان مسكوناً بمخلوقات نصفها امرأة ونصفها الثاني سمكة والتي ندعوها في بلادنا "مامي واتا"، وفي ذلك الوقت أيضاً، كان البحر يمتد على مد البصر بينما كانت أسراب البجع تأتي لتحط على الرمل، وقد تعبت أجنحتها من التشرد، وكم مرة تساءلت عما يحصل في الأعماق السحيقة، لذلك كنت أعتقد أن البحر هو تابوت أجدادنا، وأن طعم مياهه المالح ناجمٌ عن عَرَقِهِم، وقد جعل مني هذا المعتقد ابناً حقيقياً لهذا الشاطئ، فلم أكن أستطيع أن أمضي يوماً واحداً دون أن أذهب إلى المرفأ، لم تكن أمي تقول شيئاً، ولم يكن هناك من وجود للصوت الأبوي، إذن كان باستطاعتي أن أطير، وأن أعود بسمكة "طونة" في المساء، سمكة كانت أمي تقطعها قطعاً صغيرة ثم تلقي بها قطعةً قطعةً في قدر كبير من الألمينيوم، كنا نأكل بصمت، ثم تقول لي بصوت عذب حزين "لا تذهب بعد الآن إلى شاطئ "كوت سوفاج"، فالناس يموتون هناك، وهناك أرواح شريرة، وقد عثر بالأمس على ولدين على الشاطئ منتفخَيْ البطن مقلوبَيْ العينين، لا أريد أن أراك هكذا ذات يوم، وإلا فسوف أتبعك، لا أستطيع أن أعيش من دونك، فأنا أعيش من أجلك فقط"، أواه، لقد نهضت في اليوم التالي باكراً، غبت عن المدرسة وصعدت خفيةً في شاحنة الفريق البحري، وهي شاحنة مهترئة الفرامل تنقل العمال إلى عملهم في المرفأ، وما كان

بإمكان هؤلاء أن يطردوني من الشاحنة فقد تعوَّدوا على الصبية الذين كانوا يساعدونهم أحياناً في عملهم المضني، كانوا يتقدمون قليلاً ويتركون أطفال الشاطئ يصعدون، وعندما كنت أصل أمام المرفأ كنت أتنفس الصعداء، كنت أجد عالمي، كنت أرى مجموعات متشردة من تلك الكلاب البائسة التي يسيل لعابها، كنت أراقب ذيلها اللولبي وهي تتصارع مع النوارس وطيور البجع على بقايا الأسماك، وكان هناك ثمة ذباب لا أدري من أين يأتي، كان يطن مثل النحل حول خليته، كنت أحدق في الأفق وأتساءل كيف سأبدأ يومي وإن كنت سأعود إلى المنزل حاملاً سمكة "طونة" معي على الرغم من المنافسة مع صبيان الشاطئ الآخرين الذين عضلاتهم أقوى من عضلاتي والمتعودين على البحر أكثر مني، وعندما نكون أكثر عدداً في بعض الأيام كان الصيادون يصبحون أقل كرماً فيطردونا من قواربهم وهم يشتمونا بأشد الألفاظ، إذن لا بد من أن أصارع من أجل سمكة أحصل عليها مما يستوجب مني أن أكون أسرع من الآخرين، وعندما كنا نلمح سفينة صيد في الأفق، كنا نصرخ فرحاً ونتدافع ونندفع في الماء لنظهر لعمال البحر أننا قد لامسنا شباكهم على الأقل، وأننا ساعدناهم على إرساء سفينتهم في الميناء، ولا نبتعد عنهم قيد أنملة حتى يعطونا مكافأتنا من الأسماك، غير أننا كنا نحلم بصورة خاصة بالعودة بسمكة "طونة" إلى البيت، نعم، هكذا كانت طفولتي، كنت أستعيد

تلك اللحظات البعيدة حيث كنت أقرأ على ضوء الفانوس، في ذلك الوقت كانت أمي تقول لي إن القراءة تذهب بالبصر ولا تفيد شيئاً بل تجعل الإنسان أعمى، ومع ذلك كنت أقرأ، كنت محني الظهر دائماً وجبهتي تنضح عرقاً، كنت أكتشف سر الكلمات، كنت ألج أعماقها، وكنت أريد أن يشح نظري لأنني كنت أعتقد أن ناقصي النظر هم أناس أذكياء قرؤوا كل شيء وراحوا يتضايقون من الجهلة في عالمنا، كنت أريد أن أصبح حسير البصر كي أريك أولئك الجهلة في هذا العالم، وكنت أرغب في أن أقرأ كتباً مطبوعةً بالأحرف الصغيرة لأنه قيل لي إن هذه الكتب هي التي تجعل الإنسان حسير البصر، والدليل على ذلك أن الخوارنة الأوروبيين الذين يذرعون حارة "ترواسان" جميعهم ناقصو النظر ويضعون نظارات سميكة، ذاك أنهم قد قرؤوا الكتاب المقدس ألف مرة ومرة دون أي شك، وكبرت على هذا النحو وعيناي شاخصتان في صفحات الكتب بانتظار اليوم الذي سأضع فيه، أنا أيضاً، نظارتين سميكتين مثل الخوارنة الأوروبيين، بانتظار اليوم الذي أستطيع فيه أن أقول وأبرهن للناس قاطبة أنني رجل ذكي، رجل كامل، رجل قرأ الكثير، وانتظرت ذلك اليوم الذي لم يأتِ قط، ولم أفقد نظري أبداً، والله وحده يعرف السبب، وظل نظري هو الشيء الوحيد الشاب لديَّ، هذا ظلم، بيد أن هذه هي الحياة، ولا أستطيع أن أفعل أيَّ شيءٍ إزاءها، ولكن بعد عدة لحظات سأصبح أخيراً وحيداً

مقابل أمي، سوف نتحدث طويلاً في غضون أقل من ساعتين، وفي منتصف الليل تماماً سوف أغطس في أعماق هذه المياه السحيقة، يكفيني أن أعبر الجسر حتى أصبح وجهاً لوجه أمام المغامرة الكبيرة، سأكون سعيداً بالالتحاق بأمي، وفي اليوم التالي لن يكون هناك قدحٌ مشعورٌ في بار الدين المسافر، ولأول مرة سيصلح الرب الرحيم قدحاً مشعوراً، ثم سأستطيع من العالم الآخر أن أهمس أخيراً "انتهت المهمة".

ينبغي عليَّ أن أرحل، ليس لدي ما أفعله هنا، ينبغي عليَّ أن أتخلّص من هذا الدفتر، لكنني لا أعلم أين أرميه، استدرت نحو بار الدين المسافر دون أن أعرف السبب، اعتبرني الناس ممسوساً لأنني كنت أكتب وأنا أخترق الزحام، صادفت رجلاً كان قد سمّى نفسه "هولدن"، سمعته يتفوّه بترهات المراهق المتمرد ويسألني "هيه أيها القدح المشعور، هل تستطيع أن تقول لي ماذا يحصل لطيور البط المسكينة في البلاد الباردة عندما يسقط المطر، هل يحبسونها في حديقة الحيوان، هل تهاجر نحو أقاليم أخرى، أم أن طيور البط المسكينة تتلاصق باحثةً عن الدفء تحت الثلج، هه، أريد أن أعرف"، لقد حفظ سؤاله عن ظهر قلب فهو لا يغير حتى ترتيب الكلمات كلما طرحه عليّ، قلت له "يا "هولدن" ألا تجد أنه كان من الأفضل لك أن تطرح هذا السؤال على طيور البط في البلاد الباردة عندما كنتَ هناك، هه، ولا شك أن هذا السؤال موجود في

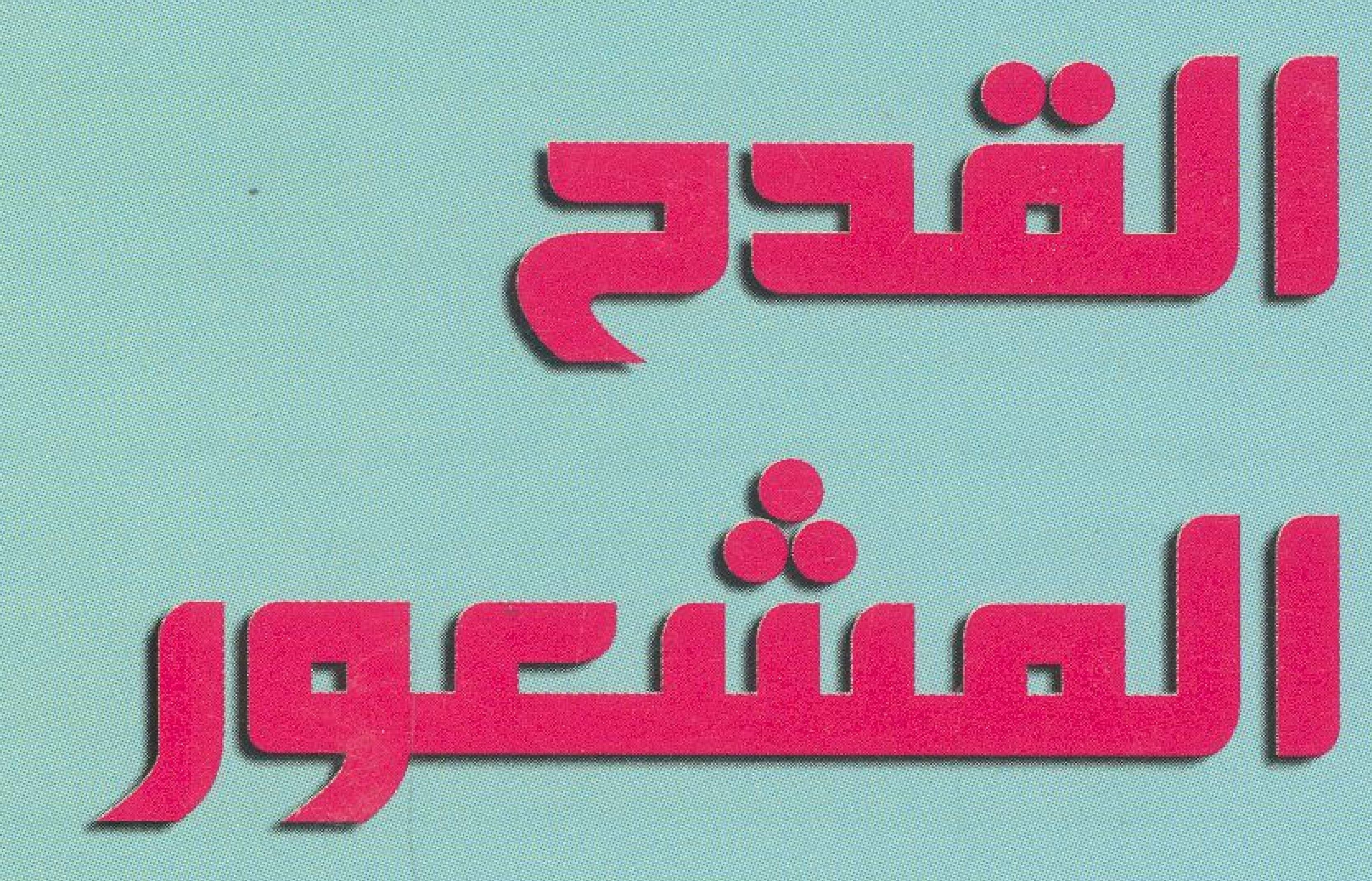
الكتاب الذي تحمله بين يديك، أنا واثق من ذلك"، نظر إلي محبطاً جداً وهمس قائلاً "أنت لستَ لطيفاً، أنت لا تحب طيور البط، وأنا أدركُ ذلك، في الحقيقة أنني كنت أريد أن أعرف لأنك لا تستطيع أن تتصور المصير المخبأ لهذه الطيور المسكينة"، وبدأ يتأسف فسألته مع ذلك مرة أخرى عن الساعة حتى لو كان يعلّقُ منبهاً على رقبته، كان سؤالاً يدل على الاحترام فرفض أن يجيبني عن الساعة وقال "لن أقول لك كم الساعة إن لم تقل لي ماذا يحصل لطيور البط المسكينة في البلاد الباردة عندما يسقط المطر"، ثم تقدم أكثر، رمقني بنظره وقال لي إن الساعة تقترب من الثانية عشرة منتصف الليل، مددت الدفتر إليه واعتمدت عليه قائلاً له "أعطِ هذا الدفتر إلى *الحلزون العنيد* يا صديقي، ولكن لا تفتحه حتى لو كنت أنت موجوداً فيه أيضاً، لم أرغب في أن أتكلم عن حياتك فليس لدي الوقت لذلك، وفضلاً عن ذلك فمما لا شك فيه أنك كنت ستخبرني أنك كنت طالباً أجنبياً هناك، هه، كنت ستقول لي إن أحد رفاقك قد ضربك في المدينة الجامعية، وإنك كنت تتسكع في "مانهاتن"، وإنك كنت تعيش في نيويورك، وإنك رأيت البط في حديقة "سنترال بارك"، هه، لا تنظر إلي بهذه العيون الجاحظة، فأنا لم أضع قدميَّ هناك مطلقاً، ولم يروِ أحدٌ قصتك لي يا "هولدن"، لكنك بطريقة ما قد شتمتني تقريباً، لا ضير في ذلك، إذن تمتع بنبيذك، عِشْ، سوف نلتقي في العالم الآخر يا "هولدن"، ونشرب كأساً معاً، وتستطيع أن تروي قصتك لي بالطول والعرض، وسأجيب على سؤالك، سأخبرك حينذاك عن مصير طيور البط المسكينة في البلاد

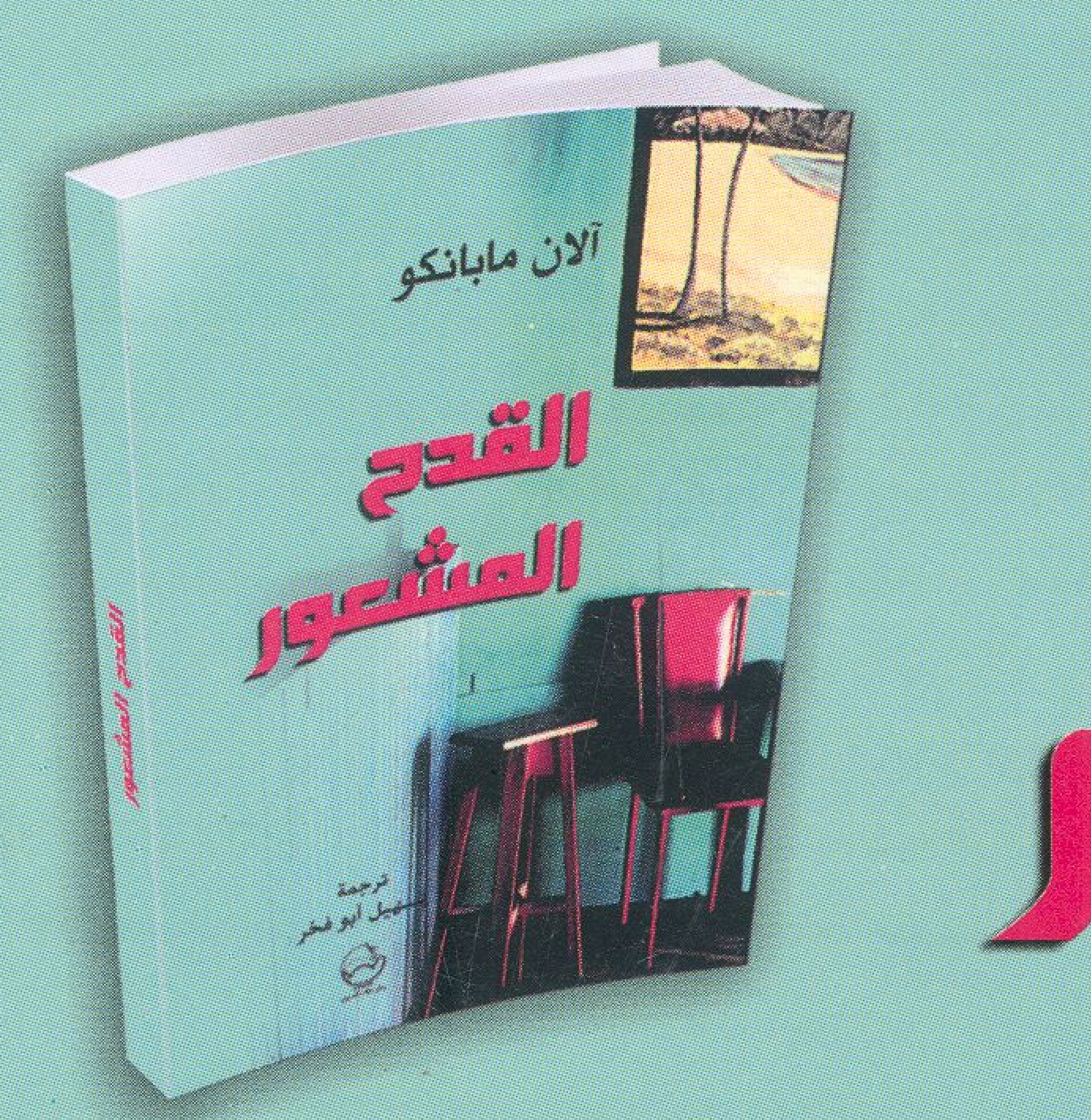
الباردة أثناء الشتاء، وداعاً أيها الرجل الطيِّب، أريد أن أتحرر، مكاني في الجنة، وإذا ما ضلّلني بعض الملائكة الماكرين كي لا أدخل من الباب العريض، صدِّقني أنني سأستطيع أن أدخل من النافذة على الرغم من ذلك".

من منشورات دار علاء الدين

- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  .... أ. بـ دانييال
- الحب المتبادل بين الزوجين
  .... البرتو مورافيا
- أرخبيل غولاغ
  .... الكسندر سولجنيتسين
- مساء ذبول الوردة
  .... اردال أوز
- خبز فوق الماء
  .... ارْوين شو
- قرب النهر أبكي
  .... باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  .... بريم ستوكر
- أخوية اليقظانين
  .... جاك اتلي
- مشاهد من حياة كهنوتية
  .... جورج اليوت
- هيجان محاكمة وقتل لوركا
  .... جوزيه لويس دي فيلالونغا
- إيفا
  .... جيمس هادلي شيز
- النطع
  .... جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  .... خورخي لويس بورخيس
- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
  .... خوليو كورتاسار
- نذير بالشر
  .... دافيد سلتزر
- انماط غريبة من الحب
  .... سومرست موم
- الرحيل
  .... طاهر بن جلّون
- فصل الراحة
  .... غور فيدال
- قليل من حرارة الشمس في الماء البارد
  .... فرانسواز ساغان
- ٩٩ فرنكا
  .... فريدريك بيغبيدير
- نوافذ على العالم
  .... فريديريك بيغبيدير
- الأرواح الرمادية
  .... فيليب كلوديل
- حفيدة السيد لنه
  .... فيليب كلوديل
- لعبة حب مجنون
  .... كريستين أوربان
- الخطيئة الأولى المميتة
  .... لورنس ساندرز
- ابنة الكاتب
  .... هنري ترويا

Verre Cassé





عندما تحتقرك الحياة، لا تبقي أمامك سبيل سوى أن تسكر وتنسج بعض القصص الخيالية بأسلوب فظ غير مألوف.

استمدت أحداث هذه الرواية من حانة قذرة في برازافيل، عاصمة جمهورية الكونغو التي كانت سابقاً مستعمرة فرنسية. والقدح المشعور هو الشخص المكلّف من قبل مالك البار لتسجيل حساب الأشخاص الذين يرتادونه. فشرع يكتب في دفتر ملاحظاته أثناء ذلك عن أمجاد الزبائن المنتكسة. وفي ذلك أثبت أنه راوٍ ماكرٌ لعوب استحواذي. بعض قصصه نسخها عن الرعاة؛ وفي بعضها الآخر سخر من السياسيين والوجهاء، وفي بعضها القليل [illegible] مغامراته الفاشلة. وما يجمع بين كل هذه القصص أن [illegible] ساقها باتجاه الخيال، وأن معظمها ينتهي بالدموع.

وما يميز رواية القدح المشعور من ناحية سرد الحدث أن [illegible] يقف على هامش الأحداث ليتركها تتابع وفق العرف، وو[illegible] الذي تعرضه طبيعة الشخصيات. أما ما يميزها من الناحية ال[illegible] فهو السردية الإيقاعية، وتناغم الجمل في سرعتها، وه[illegible] المشاعر في الأوساط الباريسية عند صدور هذه الرواية.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy